مكتبة ياسمين

رواية

لوران سيكسيك

فرانتس كافكا لا يريد أن يموت

ترجمة
محمد الفحايم

دار الرافدين

telegram @yasmeenbook

"اقتلني، وإلا فأنت قاتل".

هذه هي الكلمات الأخيرة لفرانتز كافكا وهو يتوسّل للحصول على جرعة مورفين أخرى من صديقه طالب الطب روبرت كلوبستوك. بجانب سريره، تراقبه زوجته دورا ديامانت. بينما تنتظر أوتلا، الأخت العزيزة، في براغ الحصول على أخبار.

تحكي هذه الرواية قصة الشخصيات الثلاث الرئيسة في حياة كافكا وتشابك مصائرهم، بلغة وحبكة تحبس الأنفاس على مدار فصولها. سيصبح روبرت في نيويورك جراحاً بارزاً متخصصاً في مرض السل. سوف تنجو دورا من الاضطهاد النازي ثم الستاليني، حاملة إلينا ذكرى كافكا. وسترافق أوتلا مجموعة من الأطفال اليهود البولونيين الذين تطوعت لمساعدتهم، فيقودها النازيون الى مصير مأسوي في معسكر «أوشفيتز» في الذكرى الستين لميلاد شقيقها.

تتيح هذه الشهادات تشكيل صور أخرى عن كافكا انساناً ومفكراً ورؤيوياً، مثلما تقرب القارئ من رؤى كافكا ودلالاتها العميقة في عيون أقرب المقربين اليه في أشد لحظات حياته محنة.

يقول سيكسيك، المؤلّف: "كل شيء في هذه الرواية حقيقي. استندتُ الى وثائق دقيقة للغاية، وغنية جداً. تقمصّت الشخوص بوصفي روائياً، ويعد هذا بمثابة تحدٍ كبير. كافكا لا يحتاجني، ولا يحتاج كاتباً غيري مهما كان. إنما الغاية من الرواية تقديم زاوية جديدة، وإيجاد نظرة جديدة".

مكتبة ياسمين

عام أدب الكتابة والقراءة 2025
دار الرافدين

ISBN 978-9-9227216-1-3
9 789922 721613

تصميم الغلاف: ماهر عدنان

فرانتس كافكا
لا يريد أن يموت

telegram @yasmeenbook

فرانتس كافكا

لا يريد أن يموت

لوران سيكسيك

ترجمة: محمد الفحايم

Franz Kafka

Ne Veut Pas Mourir

By Laurent Siksik

Translated by Mohamad Al-Fahayem

الطبعة الأولى: يناير - كانون الثاني، 2025 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب **كافكا لا يريد أن يموت** بالاتفاق مع منشورات غاليمار باريس/ فرنسا.

This book **Franz Kafka ne veut pas mourir**, was translated & published under an agreement with Editions GALLIMARD Paris/France.

Copyright@ Editions Gallimard 2023
Arabic Translation Copyright@Dar Al-Rafidain 2023

بغداد ــ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 721 - 61 - 3

رواية

لوران سيكسيك

فرانتس كافكا لا يريد أن يموت

مكتبة ياسمين

ترجمة:

محمد الفحايم

دار الرافدين
www.daralrafidain.com

الفهرس

تمهيد 9
القسم الأوّل 17
2 فبراير 1921 17
روبير 17
13 ـ يوليو ـ 1923 52
دورا 52
3 ـ يونيو 1924 58
أُوتْلا 58
روبير 66
دورا 73
أوتلا 78
4 ـ يونيو ـ 1924 100
روبير 100
دورا 119
روبير 128
أوتلا 135
روبير 142
القسم الثاني 163
1933 ـ 1936 163
دورا 163
روبير 171

دورا 211
صيف 1936 223
دورا 223
17 ـ سبتمبر ـ 1938 255
روبير 255
أوتْلا 263
1941 279
دورا 279
خاتمة 289
1972 289
روبير 289

إلى زوجتي

وإلى أبنائي

يمكننا أن نجعل من كافكا شخصيةَ أُسطورةٍ...

فالتر بنيامين.

تمهيد

مكتبة ياسمين

كيرلينغ، الرابع من يونيو 1924.

نحن الدكتور هوغو هوفمان، طبيبٌ متخرّج في كلّية فيينّا، ومُدير مصحّة كيرلينغ، نُقِرُّ وفقاً للمادة 29 من النّظام الداخلي للمؤسّسة بالإقْرار التالي؛ ونشهد على صحّته.

(ملاحظة موجّهةٌ إلى السكرتارية: تُرْسَلُ نسخةٌ من الملفّ الطّبّي إلى البروفسور بيك في براغ، وإلى الدكتور سيغْفْريد لوي؛ الطّبيب المُعالِج وخال المريض). لقد عايَنَّا أمْس، 3 يونيو 1924، وفاةَ المريض فرانتس كافكا، المولودِ في الثالث من يوليوز 1883 في براغ، لهيرمان وجولي كافكا، دكتور في القانون بحسب مهنته، والمقيم في منزل العائلة، والعامِل في المقَرّ الرّئيس لمكتب التّأمين ضدّ حوادث العَمَل لمملكة بوهيميا في براغ، والمسموح له بالتّوقّف عن أداء عمله.

ارتبطت الوفاة بالتهاب الحنجرة السُّلِّي المتفجّر، الذي أدّى إلى اختلالِ التّغذية والاِجتفاف.

بالإضافة إلى الحُنجرة، غَزا المرضُ الرّئتيْن، والأمعاءَ والسَّحايا.

لقد حلَ السيّد كافكا بمؤسّستنا في 19 من أبريل 1924.

وكان قد استُقبِل أوَّلاً في مستشفى فيينّا الجامعي، في قِسْم البروفسور ماركوس هايك، في الطّابق المُخصّص لعلاج المراحل النّهائية من داء السّلّ، في حالة تُعَدُّ ميؤوساً منها. ولقد أُخْرِجَ المريضُ من القسم، خلافاً للنّصيحة الطّبّية، بناءً على طَلَب ذويه، ليُنْقَلَ إلى مصحّتنا.

لقد عايَنّا المريضَ عند وُصوله. وأجْريْنا التشخيصَ التالي: سُلٌّ تطوُّرِيٌّ مُعَمَّمٌ، مُعَقَّدٌ بسبب التهاب الحُنجرة السُّلّي المُتفجّر.

عند الفحص السَّريري:

الرّئة اليُمْنى: حشرجةٌ في المستوى القِمّي العُلوي، وأزيزٌ في المستوى الفَصّي الأوسط، وبُحَّةٌ قاعدية.

الرّئة اليُسرى: حَشْرجةٌ في الجوْف البَيْضِلْعِي الثالث، وأزيزٌ في الفَصِّ السُّفْلي.

أظهر الفحصُ بالأشعّة وجودَ كدْمَتَيْن كبيرتيْن في الرِّئَتيْن اليُمنى واليُسرى، بما في ذلك واحدة من النوع الكَهْفي القِمِّي الأيمن، إضافة إلى انْصِبابٍ جَنْبِيٍ أيْمَنَ ضاغطٍ.

أظهر تنْظيرُ الحُنجرة وجودَ شِعْبٍ حُنجريٍ غيرِ سالكٍ، مع انْسدادٍ شبْهِ كاملٍ للحَلْق.

وفقاً لبروتوكولنا العِلاجي، الذي يهدف إلى وَقْف تقدُّم المرض، وصفْنا ما يلي:

خمسة أكواب من الحليب كلّ يوم.

كوبان من القشدة الطّازجة بين الوجبات.

راحة في الفراش لِستّ ساعات يومياً.

نزهة يومية لنصف ساعة إذا كانت الحالة الصّحية تسمح بذلك.

أَخْذُ عَيِّنات من البَصْق وتحليلُه.

قياس الوزنُ في الصباح والمساء.

قياس درجة الحرارة أربع مرّات في اليوم مع مراقبة المُنْحَنى.

حَقْنُ 10 مل من الإيثانول إزاء الأعصاب الحُنجرية العُلوية لأغراض مُسكِّنة ومُهدّئة.

وبما أنّ كافكا المريض كان نباتياً، فإنّه امتنع عن وجبات اللّحوم الحمراء المُقدَّمَة بوصفها مُكَمِّلاً من السّعْرات الحرارية الضرورية للعلاج. مع الإشارة إلى أنّ هذا النوع من الطّعام مُنِعَ تناوُلُه خلال الأسبوعيْن الماضييْن، نظراً لحالة الحَلْق لدى المريض.

لقد أظهر المريض كافكا دائماً معرفةً دقيقةً بحالة مرضه.

وبحسب نتائج استجوابِ المريض؛ فإنّ المرض كان قد بدأ قبل عقْد من الزمن، أيْ في عام 1913، أو 1914.

ظلّ المرضُ هامداً لفترة معيّنة، ولا يتجلّى إلّا في الوَهَن وآلام المعدة العنيفة، مِمّا يُشير إلى احتمال إصابةٍ بالسُّلّ في الجهاز الهضْمي والغُدّد اللّيمفاوية.

كان الظُّهور الأوّليّ للمرض قد تجلّى في أغسطس 1917، من خلال نَفْثٍ هائِل للدّم في اللّيل، الذي أعقبه بصْقٌ عديدٌ للدّم متكرّرٌ في الأيام التالية. وكان المريض آنذاك في عامه الرّابع والثلاثين.

كانت العوامل التي أدّت إلى الإصابة بجُرثومة كوش هي: العيْش في عاصمة، وشهية المريض للحليب الخام وغير المُبَسْتَر وغير المَغْلِي. والذي، كما نعلم، يُؤدّي إلى انتقال البكتيريا عن طريق حليب الأبقار المُصابة بالسُّلّ.

ثُمّ استشار المريضُ الدكتور مولهشتاين، وهو طبيب عامّ في براغ، والذي شخَّص المرضَ بوصفه التهاباً بسيطاً للشُّعَب الهوائية.

وإزاء الأعراض المُلحّة، استشار كافكا البروفسور فْريدل بيك، الذي شخّص المرضَ باعتباره سُلّاً رِئوِياً.

لاحظ الفحصُ بالأشعّة إصابةَ المنطقة القِمِّيَة من الفَصّ الرِّئوِي الأيمن.

من عام 1917 إلى عام 1921، احْتُوِيَ المرضُ نسبياً، وقد تجلّى في الصُّداع الشّديد الذي ربّما يكون مرتبطاً بغزْو الدّاء للسَّحايا وآلام البطْن الحادّة المرتبطة ـ بلا شكّ ـ بغزْو التجويف الهضْمي.

كان المرض قد أتاح الحفاظَ نسبياً على الحياة المهنية والشخصية للمريض كافكا.

انطلاقاً من يناير 1921، تطوّر المرضُ على نحو غير مُواتٍ. وتطلّب الأمرُ الإقامةَ المُتعاقبة في المصحّات، بما في ذلك مصحّة ميرانو (إيطاليا الشمالية)، ومصحّة ماتلياري (جبال تاتْرا العالية)، مع انقطاع متكرِّر لنشاط المريض المهنيّ.

منذ تسعة أشهر، في سبتمبر 1923، أُصيب المريضُ بالحُمّى الإسبانية. أدّى فيروس الحُمّى إلى تفاقم الإصابات من خلال الاِلتهاب الرّئوي

المزدَوَج، الذي ترك المريض في غيبوبة دامت اثنتيْن وسبعين ساعة. وخلافاً لكلّ التوقّعات، ونظراً لحالة المريض، تمّت السيطرةُ على العدْوى أخيراً.

بعد الإصابة بالحُمّى، أدّتْ إقامةُ المريضِ الطويلةُ في برلين، في أثناء فصل الشتاء الماضي القاسي على نحو خاص، والذي عاشه في ظروف محفوفة بالمخاطر للغاية؛ إلى تطوُّر لا رجعة فيه نحو تَلَفِ الحُنجرة.

في الثالث من مايو، بعد فحْص المريض، قدّم الدّكتور أوسكار بيك استنتاجاته في رسالة أُعيدُ نشْرَها أدناه، وتوجدُ في ملفّ المريض كافكا:

(أمس؛ اتصلَتْ بي الآنسةُ دورا ديامانت في كيرلينغ. كان السيّد الدكتور كافكا يُكابِد ألماً مبرّحاً في حنجرته، لاسيّما عند السُّعال. وعندما يتناول الطّعامَ تتفاقم المعاناة بحيث يكاد يكون من المستحيل بلْعُه.

لقد تمكّنتُ من ملاحظة عملية تفكُّكٍ في الحنجرة ذات طبيعة دَرَنِيَة، تُؤْذي أيضاً جزءاً من لسان الحنجرة. في مثلِ هذه الحالة يكون التدخُّل الجِراحيُ غيرَ عَمَلِيٍّ على الإطلاق، وقد أمرْتُ بحَقْن الكُحول في العَصَب الحُنجُري العُلْوِي.

اتصلتْ بي اليوم دورا ديامانت لتُخبرني أنّ الإجْراءَ كان مُؤقّتاً فحسب، وأنّ تباريح الألم عادت بالشّدّة نفسها.

لقد نصحتُ الآنسةَ ديامانت بإحضار الدكتور كافكا إلى براغ، حيث قَدَّرَ الدكتور نومان فُرَصَ بقائه على قيْد الحياة بثلاثة أشهُر.

أَبَت الآنسةُ دورا ديامانت ذلك لِاعتقادها بأنّ المريض سيُدرِك بذلك خطورةَ حالته.

وسيكون من الجيّد أن تُقدَّمَ لوالديْه كافّةُ التوضيحات اللّازمة حول خُطورة الحالة.

إنّني أُدرِك جيّداً من الوجهة النفسية؛ رغبةَ الآنسة ديامانت ـ التي تتفانى في رعاية المريض على نحو مُؤثّرٍ ـ في عَقْد مؤتمر للمتخصّصين في كيرلينغ.

كان عليّ أن أشرح لها أنّ رِئَتَيْ السّيّد الدكتور كافكا، وكذا حنجرته، كانتا في حالة لا يستطيع معها أيُّ شخص مُساعدَتَه، وأنّنا لا نتوقّع تخفيفاً إلّا من البانتوبون أو المورفين.

بعد أن احتفظ بكامل وعْيه حتى لحظاته الأخيرة، إلّا أنّه فقد القُدرة على الكلام من جرّاء غزْو الحُنجرة، كان المريض يعبّر عن نفسه في الأسابيع الأخيرة من خلال تدوين المُلاحظات.

وترتبط أسبابُ الوفاة، في هذا اليوم الثالث من يونيو، بتكْرار حُقَن المورفين التي تعاطاها بهدف التّخفيف من معاناة المريض، والاِختناق النّاجم عن اكتساح الحُنجرة.

هُويةُ الأشخاص الذين سهروا على المريض وقُيِّدَتْ أسماؤُهم في سجلّ المُؤسّسة:

السيّد والسّيدة كافكا، أبو المريض وأمّه. زاراه بتاريخ 28 أبريل 1924.

السيّد ماكس برود، صديق المريض، زاره عدّة مرّات وآخرها بتاريخ 11 مايو 1924.

الدكتور سيغفريد لوي، خال المريض. زاره أيضاً بتاريخ 11 ماي 1924.

أمّا اللّذان لازَمَاه على نحو مستمرّ، وكانا ينامان في الإقامة، في الغرفة 14 والغرفة 15 من مؤسّستنا، ولعبا دوراً كبيراً في تتبُّع المريض ورعايته، فهما:

الآنسة دورا ديامانت زوجة الرّاحل.

السيّد روبير كلوبْسْتوك، طالب في الطّبّ ببودابست، وصديق المريض.

كان قد خُوِّلَ للسيّد كلوبستوك برعاية المريض، نظراً لكفاءته الطّبّية، وبموافقة الدكتور كافكا.

وكان السيّد كلوبستوك هو الذي أبلغ عن وفاة المريض كافكا، بعد أن قدّم له العِلاجَ النّهائيَ، لاسيّما حُقنةُ المورفين المُميتة.

كانت الآنسة دورا ديامانت تسهر بجانب المريض في المُصَلّى المُجاور للمؤسّسة.

وتُرِكَ الأمرُ للسيّد روبير كلوبستوك، بناءً على طلبه، لِإخْطار الأُسرة.

وسُيوارَى المريضُ كافكا الثَّرى في براغ يوم 11 يونيو 1924.

القسم الأوّل

مكتبة ياسمين

2 **فبراير** 1921

روبير

لقد رأى أثَرَ الدُّخّان الأسود الذي تركته القاطرةُ خلفها بمثابة نَذير شُؤمٍ. سلسلة من المُنحدرات الصخرية والقِمَم تتوالى عبر نافذة المقصورة. كان قد قرأ *أنّ القِمم العالية من سلسلة التّاتْرا تُشْرِف على جبال الكارْبات بارتفاعها الذي يبلُغ 2500* متر. بسَطَتْ غاباتُ التّنّوب في اتّجاه الوادي؛ سجادةً داكنةً ذابتْ في سفْح القِمم الثلجية في اسْوِداد الجبال. تساءل في قرارة نفسه، بحَقّ الجحيم، كمْ سيدوم مقامه في المصحّة. واستدرك مُصحِّحاً، بل كم ستدوم عُزْلتي. كان البروفسور إيمْري دِيتْز، أحدُ أساتذته في كلّية الطّبّ، قد اعْتَراه صمْتٌ مُحرِجٌ عندما سأله هذا السّؤال، وهو الشخص نفسه الذي أوْصاه بماتلْياري لعلاج مُصابه بداء السّلّ. وأخيراً كان البروفسور قد نطق: «مَن يستطيع أن يدْري ما يُخبِّئه هذا الدّاء؟». قبل أن يقول بنبْرةِ مُواساةٍ: «كُنْ واثقاً من نفسك، يا كلوبسْتوك، سَتبَلُّ مِن مرضك». حَمَلَتْه على الاِبتسام رؤيةُ ظبْيِ الجبلِ على صخرة. فلْيذْهبْ إيمْري ديتْز إلى الجحيم، ومعه كلّية الأساتذة برُمّتها في بودابست! لن يبقى

مكتوف الأيدي منتظراً أنْ يتلاشى المُصابُ الذي كان ينخر رئتيْه، محروماً من الأوكسجين الذي تتغذّيان عليه من خلال التأثير الطّيّب المفترض لهذه المرتفعات. سيعرف كيف ينتهز فرصته. كان عميد كلّية الطّب قد سمح له بتأجيل امتحاناته لأسباب صحّية. تحْوي حقيبتُه مكتبةً كاملة من دروس الطّبّ، وكُتُبِ التّشريح، وكُرّاسات الجراحة. قال متباهياً: «لقد كانت الذاكرةُ دائماً نقطةَ قُوّتي». عند عودته إلى بودابست سيُبين عن هذا لرُفقائه الذين دفنوه حَيّاً لَمّا علِموا بطبيعة الحالة الصّحية التي كان يُعاني منها. أفْضى الأمرُ بكلّ مؤلّفات ديستويفسكي إلى أنْ تملأ الحقيبة. كان ديستويفسكي يشغل أسابيع عُزلته وضجرِه. وكان ديستويفسكي حقيقاً بصحبة البشر. عاهد روبير نفسه على أن يقرأ جميع هذه الأعمال الأدبية. كان يُحبّ التحدّيات، وكان تعلُّمُ الطّبِّ وقراءةُ كلِّ كُتبِ ديستويفسكي كافِيَيْن لإسْعاد الفرد، أو إسعاد نفسه، على أيّ حال. ماذا سيفعل سوى القراءة والدراسة، وإلّا فإنّه سيبتلع تلك الأطنان من لِتْرات الحليب، وتلك الكيلوغرامات من القشدة الطّرية، التي من المفروض أن تقْضِي على عَصِيَة السُّلّ؟ لعلّ هذه الأيّام التي لا نهاية لها تمنحه مُتّسَعاً من الوقت لاستئناف كتابة روايته. لقد كان دائماً يختلق الأعذار حتى لا يغوص فيها مرّة أخرى، ويُرجئ زمن كتابتها باستمرار. هناك، سيَعْدَم أيَّ عُذر يتعلَّل به، أوْ حُبّاً غامضاً، أو لياليَ الحراسة في المشفى. الفراغ في الأعالي يُمَطِّطُ الزّمنَ إلى ما لا نهاية. وسيكون قادراً أخيراً على تحقيق حُلمه. كان يحلم دائماً بأن يكون كاتباً. لم يكن يتخيّل أن يحْيا حياة كاملة من دون أن يكتب رواية. كان طموحه هائلاً. أنْ يكون تشيخوف أو لا يكون، تكون حياتُه مرصودةً لشِفاء الأجساد وسَلْوى للنّفوس. ولكن ما إن رفع قلمه حتى ألْفى

نفسَه يُواجه الهاوية، كما لو أنّ الشَّكّ يشُلُّه. كلّ سطرٍ كان عسيراً عليه. أمّا مقدار الكلمات التي كانت تأتيه فضئيلٌ، وبَدَتْ حواراتُه مُزَيَّفَةً، وكانت جميع أنواع الأسئلة تنهال عليه. أيتّخذُ من معاناته مادّةً ليكتب روايةً، فيُعبّر عنها تعبيراً كاملاً، أمْ يجدُر به أن يتغاضى عنها كلّ التّغاضي؟ كيف يُرتّب قصّتَه، ويمنح حياةً ووجوداً لشخصياته؟ ولمّا كان يعْدَم فكرةً دقيقةً عن النهاية، فكيف يمكن المُضيُ، إذاً، في المجهول؟ وكانت قصته تتألّف من اثْنَي عشَر فصلاً، وما كان راضياً عن أيّ منها. أكان الإلْهامُ كامِناً في الكُتُب، أمْ في الحياة الواقعية؟ لقد قرأ كلّ ما في وسعه، ولكن، هل كان يعرف ما يكفي عن الوجود، وهو في العشرين ونَيِّفٍ من عُمره؟

كان يحلُم بروح رحيمة تستطيع أن تضع حدّاً لهذه الأسئلة. غير أنّ أساتذته كانوا يستهزئون به مواجهةً عندما يكتشفون أنّ لديه موهبةً أخرى غير الطّبّ. ودَعْك من زملائه في الفصل، الذين كانوا مهووسين بمسيرهم الدّراسي، أو ما هو أسوأ من ذلك، والذين كانوا يطمحون ببساطة إلى أن يعيشوا في سعادة دائمة. أمّا روبير فالأيّام السّعيدة كانت تُشعره بالإحْباط.

ربّما ينبغي له أن يُبْدِيَ طموحات أدبيةً أكثر تواضعاً، ويكتفي باستئناف كتابة هذا المقال عن ألفريد دوبلين، الذي كلّفَتْه به صحيفةٌ من بودابست التي طرق بابَها ـ كاشفاً أنّه طالبُ طِبٍّ، وكَلِفٌ بالأدب. لقد أراد رئيس تحرير هذه الصحيفة الرّديئة اختبارَه بأنْ عَرَضَ عليه موضوعاً مخصّصاً للكاتب الطبيب البرلينيّ.

هدْهَدَتْه حركةُ القطار فانتهى به الأمر إلى النّوم. لقد كان نوْماً سيّئاً بطبيعة الحال، حيث وضعَتْ قعْقَعَةُ حديدِ القاطرةِ حَدّاً له، وهي تدْنو من محطّة تاتْرا لومْنيتز. فتح عينيْه. لقد بلغ وجهتَه. كانت المنازل مجلّلةً

بالثّلوج الكثيفة، والسّماء يلُفّها الضّبابُ. وفي المرتفعات استطاع أن يُميّز قمّة لومنيتز، التي كانت تشرف على الأمكنة. وكان يعتقد أنّ الموت يثْوي في الهواء الطّلْق.

كانت مديرة المصحّة، السيّدة فُوزْبيرْجر قد أكّدت في رسالتها أن هناك من سينتظره على الرّصيف. غادر المقصورة، ونزل من القطار يحمل حقيبتَه في يده، وكان الرصيف شبه خالٍ. ثمّة رجل في الطّرَف الآخر يتدثّر ببدلة طويلة، وعلى رأسه شابْكا[1] كان يُلوّح بيدٍ نحوه، فردّ على تحيّته. أقبل الرجل نحوه بخُطى سريعة، وبعد عبارات المجاملة دعاه ليتبعه. ولمّا أخذ الحقيبة سأله: «ماذا وضعتَ فيها، جُثّةً؟». تبعه روبير نحو العربة في الخارج، وصعد إلى المقعد الخلفي. ضرب الرجل بسوطه في الهواء، وشدّ العنان. انطلقت العربة عبر الثلج، اجتازا القريةَ، وعلى حافة المنازل الأخيرة، توغّلا في الغابة. كان روبير يرتجف من البرد في معطفه الخفيف، الذي يصلح بالكاد لفصل الشتاء القارس في بودابست. بدأ الحوذي المُحادثة:

«أحسَبُ أنّ هذه هي المرّة الأولى التي تأتي فيها إلى هُنا، وستشعُر بالرّاحة في هذا المكان. فالمؤسّسة تُدارُ على نحو دقيق، والمطبخ مثالي، والموظفون لا عيْب فيهم، والمرضى بأعداد معقولة، يُناهز عددهم حالياً ثلاثين نفراً على الأكثر، موزّعين على مبنَيَيْن. إذا كنت محظوظاً فسيكون المبْنى الأكبر من نصيبك، وإلّا سأفعل ما هو ضروري. تبدو لي ودوداً، لستَ مِهْذاراً، ولكنّك لطيف. ثم لدينا طبيبٌ مُقيمٌ. لا مثيل للدكتور ستريلينجر

(1) كلّ الهوامش من وضع المترجم.
ـ شابكا: قُبّعة عسكرية بولونية.

ليُطَمْئِنَك عندما تسوء حالتُك. المرضى من كلّ جِنْس، ثمّة مَجريّون من بودابست مثلك، ولكنهم أكثر ثراءً، وتشيكيّون من براغ، لا يوجد ألْمانٌ بالطبع، لماذا يأتون إلى هنا وهم يملكون مؤسّسات؟ من الواضح أنّ هناك يهوداً أيضاً، أَلستَ يهودياً يا سيّد كلوبتسوك؟ ينِمّ اسمُ كلوبتسوك على أُصول جرمانية. لكن أولئك الموجودين هنا جيّدون للغاية، وستتمكّن من مُعاينة ذلك. آه! لقد نسيتُ أمراً أساسياً ذا صلة بسنِّك. هناك أيضاً شابّاتٌ؛ لاسيّما أرانْكا، وهي مَجريّة فاتنة جدّاً، وإيلونْكا، شابّة جليلة، غير أنّها تسْعل مثل شخص مُعْتَلّ الصحّة... إلّا إذا كان لك رأيٌ آخر مختلفٌ، فإن الأمر يتطلّب كلّ شيء لتشييد عالَم. هنا لدينا ضابط، لكنّي لا أعرف إذا كان شأنه كذلك، بيْد أنّه يُنفِق وقتَه في الرّسم، ومع ذلك فهذه إشارة تشي بأنّه شديد الإحساس بجمال الأشياء... آه! هناك أيضاً طبيب أسنانٍ يُدعى جلوبْر، في المبنى الصغير، ويوجد أيضاً تشيكيّ، في الخمسين من عمره، ليست أحوالُه بالحَسنة، حاوِلْ أن تَنْأى عنه، يزعمون أنّ الدّاء غزا حلْقَه. آه! نسيتُ شخصاً غريباً يُقيم فوق غرفة التشيكي، مديد القامة، مهزول كمسمار، ليس سيّء الطّبْع، يتجنّب النّاسَ بعض الشيء كأنّه أفضل منهم. يُقال إنّه يُؤلّف الكُتب... هيّا، ها نحن قد وصلنا. لا بُدّ أنّ السيّدة فورْبيرجْر في انتظارك. سترى أنّها امرأة ساحرة، فظّةٌ قليلاً. لقد سُعِدْتُ بالحديث معك. يمكننا القول إنّ الأطبّاء أكثر إنسانية من معظم أقرانهم».

سأل روبير: ـ ما اسمه؟

ـ من هو؟

ـ الكاتب، ما اسمه؟

ـ كافكا، فرانتس كافكا.. نحيفٌ وفارع القامة، لن يفوتك من أمره شيءٌ. أراكَ قريباً، سنلتقي مرّة أخرى، يا سيّد كلوبتسوك. كلُّ ما علينا فعلُه هُنا هو أنْ نلتقي مرّة أخرى.

نزل روبير من مركبة الجليد وسار صوب المبْنى، وهو مبنى يَشي بأُبّهة قصْر عتيق، كان قد بدأ يغرق في اللّيل. كانت قدماه تغوصان في الثلج، وأحسّ فوْراً أنّ نَفَسَه انْقَطع من الجهْد. صعد بضعَ خُطُوات ودخل. وعَزَّزَت القاعةُ انطباعَه الأوّل بأرضيتها من خشب البلّوط وأرائكها الجلدية على الطّراز الإنجليزي. على طاولة منخفضة وُضِعَت جرائدُ على أعواد القراءة. استرعتْ انتباهَه يوميةٌ هنغارية. كان العنوان الرّئيسُ يتعلّق بالاِتفاق بين الاتّحاد السوفياتي وإيستونيا، الذي صادقَ على التخلّي عن جميع المطالبات الإقليمية لروسيا السوفياتية على جارتها. وثمّة باقاتٌ من الزهور في مزهرية كبيرة تبْدو أنّها قُطِفَت حديثاً. كانت هناك نافذة كبيرة تُطلّ على الخارج بالقرب من مدفأة كبيرة، حيث كان الجمْر لا يزال مُتوهّجاً. كان يتخيّل فترات ما بعد الظّهيرة في وقت الثلج، حيث كان النّاس يتدفّؤون بالقرب من النّار حول مشروب ساخن، وهم يخوضون غمار هذه الأحاديث أو تلك. أحسّ بالتّعب فجأة، وقاوم إغْراءَ الجلوس على أحد الكراسي، وأكْرَهَ نفسَه على الذّهاب إلى المقصورة، وقرْعِ الجرس.

فُتِح بابٌ، وتوجّهت امرأةٌ نحوه، فحَسِبَها السيّدة فوربيرجر. نادتْه باسمه الأوّل من دون أن يُعرّف بنفسه. وانشغلتْ بشأن ما إذا كانت الرّحلة قد سارت على ما يُرام، وعرضتْ عليه أنْ تُريه غُرفتَه، وسيتوّلى نادلُ الفندق أمْر حمل الحقيبة. «لكن أوّلاً..» أضافتْ وهي تغادر المقصورة: «اتْبَعْني لكي أُريكَ مكانَ إقامتك الجديدة!». فحَذا حذوَها.

كان هناك بابٌ مزدَوَج مفتوحٌ على غرفة طعامٍ كبيرة، حيث كانت طاولاتُها مُغَطّاةً بسُمُطٍ ذات لونيْن أحمر وأبيض. تعمل فيها اثْنتان من خادمات الغُرف بأوامر من كبير الخدم. أعلنت فوربيرجر بلهجة عسكرية: «الاستيقاظ عند الساعة السادسة، ووجبة الغداء عند الحادية عشْرة والنصف، والعشاء عند الساعة السادسة والنصف، والفطور بين الساعة السادسة والنصف والساعة السابعة». ثمة غرفة أخرى مفتوحة على التوالي، وفيها صفوف من الكراسي مصفوفة أمام بيانو كبير، على بعد بضعة أقدام من طاولة البلياردو، قالت بصوت ودود: «إذا كنتَ من الهُواة، لدينا بطلٌ أو اثنان في الوقت الرّاهن». وبالقرب من الجدار وُضِعَتْ على مساندها مناظرُ طبيعيةٌ جبليةٌ.

قالت فوربيرجر وهي تبتعد: «والآن غرفة النوم!». كان يجهد في سبيل مجاراة وتيرتها، وكان مجرّد عُبور الصالة قد أرهقه. أُصيبَ بنوبة سُعال. لاحظت فوربيرج أنّها نوبةٌ «كَهْفِيَةٌ بعض الشيء»، لقد نطقت هذه الكلمات نُطْقَ العارِف، كما لو كانت ستحكم على طبقٍ أعدّه طَبّاخُها، «مالِح جدّاً» أو «ناقص الصَّلْصَة».

صعد درجات السُّلّم خلفها. قالت مُحدِّدة «الغرفة في الطابق الثاني، رقمها 215». كان يودّ أن يطلب منها إبْطاءَ خُطواتها. قالت: «أنت محظوظ، الشرفة تُشرف على امتداد الجنوب»، وعرَّجت على ذكر طبيب المصحّة. كان الطبيب ليوبولد ستريلنجر يُقيم في المُلحقة، بدارة تاترا، والتي كانت تؤوي أيضاً عدداً قليلاً من المقيمين. وكان يفحص المرضى مرّة كلّ يومين. كانت توصياته صارمة: أن يقوم المرضى بوزْن أنفسهم يومياً على ميزان الأشخاص الموجود في الطّابق. أشارت بسبّابتها إلى العتمة

في نهاية الممرّ حيث كان من المفروض أن يوجد الميزان، وعلى المريض أن يقيس درجة حرارته ستَّ مرّات في اليوم.

«سيكون المحرار موجوداً في مغسلتك، موضوعاً في غِشائه الأحمر، وستأتي خادمة كلّ صباح لتُقدّم لك في الشرفة كوباً من الحليب، وإناءَ القشدة الطّازجة اللّذيْن أمرَ بهما ستريلنجر أيضاً». كانت تتحدّث بطريقة آلية، تُشبه إلى حدّ ما دليلةَ مُتحف.

عند مُنبَسَط الطابق الثاني، دَلَفَتْ إلى ممرّ ضيّقٍ سَيّء الإضاءة. طفقت أنفاسُه تخذله، لقد وعد نفسه بالذّهاب لرؤية ستريلنجر. ومن الغرفة رقم 211 دَوَّتْ نوبةُ سُعال كانت من الشّدّة بحيث إنّ الجُدران اهتزّت لها. علّقت فوربيرجر ببُرود: «ارتكب السيّد هارتمان حماقة أخرى من حماقاته».

توقّفتْ على بعد أمتار قليلة، وأخذتْ مجموعةً كبيرة من المفاتيح من جيْب معطفها، ونظرت إليها بدورها، وحرّكتْها بين أصابعها، أصابع طويلة ومَلْداء، ويَدا امرأةٍ رائعتان لا تمُتّ بصلة لأيْدي الفتيات اللّائي التقى بهنّ حتى ذلك الحين. أوْلَجتْ مفتاحاً في القفل «ها جناحك أيّها الشابّ!»، وَدَعَتْه إلى الدّخول.

كان مُشمّع الأرضية يلْمع تحت الضّوء الكهربائي، وكان السرير الخشبي واسعاً، وهناك خزانة ملابس ضخمة قبالة أحد الجدران، خزانة ستملؤها بدلته الوحيدة، وقمصانه الأربعة، وسترته الصوفية. والمكتب من خشب السنديان، عليه ورقٌ يحمل علامة المؤسسة، وقلم حِبْر. هنا سيُنْهي روايتَه. ومن خلال عائدات المبيعات سيُعوّض الجمعيةَ الخيرية التي كانت قد سدَّدَت تكاليف إقامته. كانت المغسلة واسعة كالخزانة،

مع حنفيتيْن من النّيكل، ومرآة ثُبِّتَتْ على الحائط. والمحْرار في غشائه على لوحة بالأسفل، ومبصقتان مُسطّحتان بمشبكهما الفضّي ستُحدّدان مستقبلَه.

تابعت فوربيرجر: «آه، ثمّة نقطة حاسمة، إذ من الواضح أنّ مصحّتنا مختلطة. فهناك طابق واحد للرجال، وآخر للسيّدات. لا يتعلّق الأمر بإقامة حواجز بين البالغين، إلّا أنّ النّظام يحظُر العلاقات من أيّ نوع داخل المؤسسة. إضافة إلى ذلك؛ أنت تدرك باعتبار حالتك الصحية أنّ إقامة العلاقات شأنٌ لا يُنصَح به. ومع ذلك، فنحن لسْنا شُرطةً ولا قُضاةً. لذا، اعْرِفْ كيف تكون متحفّظاً...».

كانت الغرفة تُطلّ على شرفة بُسِط فيها كُرسيٌّ طويلٌ، «الرّاحة إجبارية في الخارج، ما لَم يتساقط الثلج. بين الثامنة والعاشرة والنصف، والثالثة والخامسة والنصف. سوف تجد بطانية في خزانة الملابس الخاصة بك، وكذا رداء الحمّام». قاستْه من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين: «أخشى أن يكون رداءُ الحَمَّام صغيراً جدّاً... لندخُلْ، تبدو أنّك تجمَّدْتَ».

وعندما دَلَف إلى الدّاخل، سأل أخيراً:

ـ الرجل الذي بعثْتِه من أجلي...

ـ فريتز؟

ـ نعم، فريتز.. حَدّثني عن كاتب يُعالَج في المؤسسة...

ـ الدكتور كافكا؟

ـ كافكا، إنّه هو.

ـ ستلقاه غداً. هناك نحو ثلاثين شخصاً فقط في مؤسستنا. وحصل بينهم تعارفٌ بسرعة كبيرة. ألديك سؤال آخر؟».

أوْمأ برأسه، لا.

ـ إذن، ليلة سعيدة يا روبير، اِرْتَحْ، يبدو أنّك في حاجة إلى الرّاحة.

قال: ليلة سعيدة.

أوصدت البابَ خلفها.

تأمّلَ جدرانَ عالَمه الجديد، ثمّ ذهب ليقف أمام المرآة. أرْعَبَتْه عيناه المحمومتان، وبشرته الشّاحبة، وخدّاه الغائران. تراجع خطوة إلى الوراء، فتهالكَ على سريره، ثمّ نام مباشرة.

صحا مذعوراً. وكأنّه مقتنع بأنّه قصَّرَ تقصيراً فادِحاً. كانت ساعته تشير إلى السادسة وخمس وأربعين دقيقة. لم يكن قد سمع صوت المنبّه، وكانت الجلبَة في غرفة الإفطار، الواقعة أسفله بطابقيْن هي التي أيقظتْه من النوم. نضح وجهَه بالماء كثيراً، وأخرج قميصاً نظيفاً، ومشّط شعره سريعاً، وارتدى بدلته. ولمّا تهيّأ لإغلاق بابه، عاد لإحْضار مبصقة، فوضعها في جيبه، وغادر.

وبعد أن بلغ أسفل الدّرج؛ زَرَّر ياقةَ قميصه وعدّل بدلته وعبَر القاعة واجتاز الأمتار الأخيرة المؤدية إلى غرفة الطّعام، مُتقدّماً بهدوء وثقةٍ ما وَسِعَه ذلك، توقّف عند عتبة الباب، وسادت هناك ضجّة مبهمة من الهتاف، وقعقعة أدوات المائدة. أخذ نَفَساً عميقا ثمّ دخل.

وبينما كان يتقدّم كانت قعقعة الملاعق والأكواب تخْفُت، وهدأت

الأصوات واحداً تلْو الآخر، وشخصت العيونُ نحوه. أضحى الصوت أكثر هدوءاً، وأرْعبه هذا الصمت، وهذه العيون المُحدّقة فيه.

قال صوت رجل من ورائه: «يا سيّد كلوبتسوك، دَعْني أُجْلسْك!». تقدّمه رئيسُ الخدم بخطوة سريعة إلى الجزء الخلفي من الغرفة نحو طاولة تشمل ما يناهز عشرَة أشخاص.

استقبله الضيوف بابتسامة عريضة ردّ عليها بحركة من رأسه. طُلِب منه الجلوسُ فجلس، وتراءى له كما لو كان يتسلّق قمّة لومْنيتز.

وبينما كان مُنشغلاً بقَدْحه؛ أحسّ بأنظار الضيوف تشخص إليه، كانوا يتفحّصونه بصمت. طفق الرجل في سنّ النُّضج الموجود على يمينه يتحدّث مع مُجاورته، وأشار باستئناف المحادثة. في المقابل، كان هناك رجل يبلغ من العمر نحو خمسين عاماً، مستغرقاً في طبق فاكهته.

استهلّ الحديثَ مُجاورُه على اليمين مادّاً يدَه: «لا بُدّ أنّك السيّد كلوبتسوك. أتشرّف بمعرفتك، اسمي جلوبر، أنبَأَتْنا السيّدة فوربيرجر بخبر وصولك. كيف تجد المكان؟».

فأجاب بأن الوقت لم يسْنَح له بعد لتكوين فكرة حقيقية، غير أنّ انطباعه الأوّل كان جيّداً.

قالت ضيفةٌ على يساره: «الانطباع الأوّل يكون دائماً جيّداً».

رفعت المرأة الشابّة التي بجانبه بصرَها إلى السّماء.

تدخّل الرجل الذي في المقابل: «لقد وجدتُ المكان دائماً مقيتاً، منذ اليوم الأوّل الذي وصلتُ فيه».

قالت المرأة: «هذا ما قلتُه بالفعل عن الانطباع الأوّل».

قال جلوبر: «أُقدّم إليك الضابط، إنّه رجلٌ بشوش ومُحبَطٌ، ولكنّه رسّام عبقريٌ، مزيج من رامبرانت وبونابارت مُتّحدَيْن في جسد واحد».

ـ أنت مُصانِعٌ يا جلوبر. ومع ذلك لن تحصل على أيّ لوحة من لوحاتي المائية...هل ترسم أيّها الشابّ؟

نطقت المرأة: ـ قالت لنا السيّدة فوربيرجر بأنّه طالبٌ في الطّب.

ـ الفنّ؛ يا عزيزتي السيّدة فيشمان، لا ضفاف له. ألستُ أنا شخصياً مُقاوِماً وجُندياً وضابطاً...؟

ـ «وبطلاً!»، أضاف جلوبر.

ـ ضابط ورسّام، أنا شاهدٌ حَيٌّ

على أنّ الفنّ لا حدود له، نعْلَم هذا.

قالت المرأة: هذا العام لدينا فنّانون فحسب، أمّا العام الفائت فكان لدينا مُحاسبون، لا أدري لماذا أصابتْنا جائحة المُحاسبين! كانوا يتناقشون، عند كلّ وجبْة، في الأرقام، والميزانيات العمومية والضّرائب والرّسوم. وإنّي لأتساءل عمّا إذا كان هناك شيءٌ أكثر مللاً من المُحاسب.

«كنتُ أعرف مُحامياً كان مُضجِراً تماماً»، قالت المرأة الشابّة، وكانت هذه كلماتها الأولى.

تساءل روبير: أيْن حَلَّ؟ لم يكن هذا المكان مصحّة، بل مشْفى للأمْراض العقلية. كان يرغب في النّهوض وترْك وجبة الفطور والصّعود لأخذ حقيبته ثمّ الهروب. لكنّه شعر بالإرهاق الشّديد لدرجة أنّه كان يخشى أن ينهار وسط الغرفة.

خلُصت السيّدة فيشمان: على أيّ حال، لا شيء يُعادِل صُحبة الفنّانين. هل لديك أيّ أخبار في هذا الموضوع؟

أجاب جلوبر: أعتقد أنّه ما يزال موْجوعاً.

سأل الضابط: كيف يمكن أن يُصاب بمثل هذا الدّاء؟ الاِلتهاب الرِّئَوي في المصحّة!

قالت المرأة: لا بُدّ أنّ السّبب يعود إلى رحلة يوم الخميس. أرأيتم كيف كان متدثّراً؟ فبما أنّه كان واهِناً، ما كان ينبغي له أن يُشارك فيها أبداً. غُصَيْنٌ في الثّلج، قيل لي إنّه يَزِن خمسة وستّين كلغ، مقابل طول يبلغ متراً واثنيْن وثمانين سنتيمتراً. كيف يمشي المرءُ في الثلج مع هذا النّزْر القليل من الدّهون!

ـ على أيّ حال، لم يأتِ السيّد المقيم في الطابق الثالث.

تدخّلَ جلوبر: أيّها الضابط، هذا الذي تسمّيه المقيم في الطّابق الثالث يُدْعى السيّد سالْتوفْسكي. لقد غزا الدّاءُ حنجرتَه.

أضافت فيشمان: لو كان الأمر يتوقّف عند الحنجرة فحسب...

وتابع جلوبر: عندما تُصاب الحنجرة فإنّ بقية الأعضاء الأخرى تُصاب أيضاً، وكلّنا نعرف ذلك. اذهبوا إذن لِعِيادةِ سالتوفسكي، وسيُريكم إصابتَه. ينتاب المرءَ شعورٌ حاصله أنّه يجد فيها ضرْباً من المتعة المُقزِّزة. فأن يكشفَ الشخصُ عن تقرُّحات في الحلْق لهو عَرْضٌ لا تليق، مع ذلك، مشاهدتُه.

سألت المرأة الشابّة: هل كشف لكم عن إصابته؟

ـ وهو ما تمنيت لو أنّني لم أفعله. لقد كنت مع جاره السيّد كافكا المقيم في الطابق السّفلي، كان سالتوفسكي يحرص على أنْ يُرينا حنجرته، وأصَرَّ على ذلك مهما كلَّف الأمر! لقد فغَر فاه، وطلب منّا أن ننظر، وعَرَض علينا أنْ نرى على نحو أفضل بمساعدة مرآة، فإذا بخمسة ثُقوب في أعماق اللّوزتين تَنِزُّ صَديداً.

ـ إنّنا نأكل!

ـ عُذْرا سيّدتي فيشمان... عندما أطبق سالتوفسكي فمه، حسبتُ أن السيّد كافكا سيُغْمى عليه.

ـ ما رأيكم في تقنية ستريلنجر لمكافحة إصابة الحنجرة؟ يُقال إنّها طريقة ثورية.

ـ وبما أن الاطبّاء ينصحون بها، فلماذا لا نُصدّقها؟ أنشأ جلوبر يشرح التقنية: العلّة هي أن الحرارة تُعَطِّل الإصابة السُّلِّية عن طريق حَرْقِها. تُستخدَم مِرآتان، إحداهما بحجم راحة اليد، والأخرى أصغر حجماً. ينبغي للمرء أن يستلقي على كرسي طويل في ضوء الشمس السّاطع، ويضع المرآةَ الكبرى عند زاوية شفتيه، ويُوجِّهها على نحو يجعلها تلتقط أشعّة الشمس فتوجّهها داخل حلقه.

ما وظيفة المرآة الصّغرى؟ سأل الضابط.

هذه المرآة الصّغرى، كما أظهر لنا ذلك سالتوفسكي؛ قبل أن يوشك كافكا على الإغماء تقوم بإدخالها في قرار حلْقك...».

ينبغي أن تُحْمَل المرآة الصغرى إلى أَغْوَرِ نقطة ممكنة في الحلق،

وذلك لتركيز أشعّة الشمس على الإصابة، ويتعيّن البقاء بلا حَراك لمدّة خمس دقائق من أجل كَيِّ التّقرُّحات.

قال مستخلصاً: وعلى هذا النحو سيشْفَى السيّد سالتوفسكي، وسيظلّ العِلْم منتصراً دائماً!.

وكان هناك تصفيق حماسي حول الطاولة. كرَّر روبير في دخيلة نفسه: «هذا مشفى مجانين».

وتابع جلوبر: بالعودة إلى السيّد كافكا؛ أكدّت لي السيّدة فوربيرجر أنّه في حال أفضل.

أرهف روبير السّمْعَ. ربّما سيكون هذا الرجل طوْقَ نجاته هُنا؟ وإلّا فإنّه سيرحل ويعود إلى بودابست. فمن الخير أن تموت بالعصية على أن تموت من الضّجر!

قال جلوبر: أمّا أنا فأُحبّ كثيراً كاتبَنا.. قالت فيشمان: آسفة، لكنّه يحملُني على الإحساس بعدم الإِرتياح، أجده شخصاً تافهاً وكارهاً للبشر.

أنت تخلطين بين كُرْه البشر والخجل، هل سبق لنا أن رأينا شخصاً على هذه الدرجة من اللّطف والودّ؟

قال الضابط: يُقال إنّه كاتب، ولكن هل سبق أن قرأتم شيئاً له؟

أخبرتْني صديقة من برلين، وتُدْعى فْراولين فينجولد، أنّ بعض الدّوائر المُعيّنة كانت تُقدِّره. يمكن للمرء أن يُقارن أدَبَه بأدَب كلايست.

أردف الضابط: ولماذا لا يُقارَن بهاينه!

تدخّلت المرأة الشابّة: فسواء أكان كاتباً أم لا، فإنّ للدكتور كافكا سِحْراً باهِراً..نظروا إليها مشدوهين.

... ذكاء مُتفَرِّد ونظرة عذْبة وحساسية مفرطة وجمال عظيم أيضاً. في واقع الأمر، لا أُبالي بكونه كاتباً.

قال جلوبر: هذا هو ما يُسمّى بالحبّ، إذا جاز لي قول ذلك.

«لِتُسَمِّ ذلك ما شئتَ!»

ثمّ غادرت الطّاولة.

قال جلوبر: إلونكا هذه حادّة المزاج!

طلبت السيّدة فيشمان: حدِّثْنا قليلاً عن شخصك يا سيّد كلوبتسوك، لقد نذرْتَ نفسَك إذن لكي تُصبح طبيباً...

أردف الضابط: الأطّباء هم الذين يُنقذون البشرية.

همستْ فيشمان: لا يجب أن يمرضوا كافّة.

قال جلوبر: سوف ينهض السيّد كلوبتسوك من كبْوته هذه، إنّه رجلُ صَلْدٌ!

ـ شاحبٌ قليلاً، وواهِنٌ مع ذلك.

ـ أُوافق، والعيْنان مُحتقنتان بالحُمَّى، ونوبات السُّعال المُريبة. لكنّ ماتْلياري سوف تَشفيه! وسوف يَشفيه الدكتور ستريلنجر! هذا العِلْم، يا سيّد كلوبتسوك، الذي بَسَطْتَ له ذِراعيْك كلّ البَسْط، وبَذَلْتَ في سبيله أفضل ما تملك من خلال التضحية بشبابك، وأجمل سنوات حياتك؛ لسوف يُنْجيكَ بواسطة عَوْدة عادلة ونبيلة للأمور! وذات يوم، أيّها الشابّ، على مرأى من الأنظار المُعجَبَة والمفتونة لجميع المستشْفين في مُنتجع ماتْلا الصّحّي، المُلتئمين لهذه المناسبة، ستتسلّق جُدْرانَ لومنيتز بيديْك الحافيتيْن.

قال الضابط: آمين.

«أعتقد أنّ الوقت قد حان للذّهاب»، قالت فيشمان.

نحن آخر مَن يجلس إلى المائدة، ستوبّخُنا السيّدة فوربيرجر مرّة أخرى.

اختتم جلوبر: نلتقي بعد ساعة في الحديقة. في هذا الطقس المشرق أوصى الدكتور ستريلنجر بترْك كراسي شُرفاتنا للصّبيحة. كراسي طويلة تنتظرنا في الحديقة.

رأى روبير الضيوف ينهضون. لم يُصِبْ أيَّ شيءٍ من فُطوره، لقد وعد نفسه بالهروب من مشفى المجانين في أسرع وقت ممكن.

وصل إلى الحديقة بعد الجميع، وجلس على أحد الكراسي التي ماتزال شاغرة، على مسافة مناسبة من المستشْفين الآخرين. كانت النساء يرتدين ملابسَ خفيفةً، والرجال يرتدون قمصاناً بأكْمام، وكأنّ الرّبيع قد هَلَّ في مطلع شهر فبراير. واحْتُفِظ بغطاء في مكان قريب.

كانت المحادثة في أوْج نشاطها، وكان يُبدي عدم اهتمامه وهو يسمعهم يُناقشون فوائد هذه الأيام المشمسة. تجادل الضابط وجلوبر في ما إذا كان استهلاك سمك التروتة مُوصَى به أكثر من تناول سمك السّلْمون بالنسبة لأولئك الذين أُصيبتْ كِلْتا رئتيْهما. ادَّعى جلوبر، وهو المقتدر في مجال تكوينه كطبيب أسنان؛ أنّه النّاطق باسم الحقيقة العلمية. واستشهد الضابط بتجربته في الجبهة ليُرَجِّح خِبرة مُفترضة في هذا الشأن. نحن في عالم المَجانين.

جاءت امرأة لتجلس إلى يساره، وأنشأت تتحدّث معه. كانت إنجليزية، تُسمّى دْريسْلْر، تتحدّث بأسلوب أرستقراطي. كان زوجها مستشاراً في

السفارة ببودابست. وعندما علِمَتْ أنّ روبير قادمٌ من هناك، تحدّثت عن مُصادفة سعيدة، وأوضحت أنّ المصادفة لا توجد، إنّما قُوى العقل هي التي تعمل فقط. ها هي امرأة أخرى غريبة الأطوار. حدّقت في عينيه وقالت: «إنك تُشبه ابني بعض الشّبه في العينيْن»، ثمّ خفضت نظرها. أوه! كم كانت تُحبّ ابنها، فهي لن تحبّ أحداً أكثر منه، فضلاً عن ذلك فهي لن تحبّ أحداً بعد الآن وقد رحل حبيبُها الكبير. وخلُصتْ: «من يستطيع أن يتخيّل حياة مُفلسة في سبيل الدّفاع عن فيردان؟ لقد قضى جيمس في سبيل الشرف، أيْ أنّه مات بلا ثمن أو مقابل». وسألته إذا كان قد شارك في الحرب، فكذب. ثمّ قالت: «إذن، لنتحدّث عن شيء آخر». وطفقت تُكيلُ المديحَ لِسِحْر بودابست، ونَداوة تِلال بيسْت، وحيوية مقاهي بودا، وجلال نهر الدّانوب في المساء عند الشّفق من مرتفعات جبل يانوس. لقد فكّر في حربه، على الجبهة الروسية، في خدمة الإمبراطورية النّمساوية المجرية، في المُعسكر الخاسر. ليعتبر أنّ ثمّة منتصراً في هذه المقبرة الجماعية العملاقة. فهو لم يفقد حياته فيها، إنّما أُصيب بمرضه هناك. فهل كان حقّاً أهْوَنَ الشَّرّيْن؟ كانت المرأة تواصل قائلةً إنّها تتحسّر على فُقدانها لندنَ دائماً، ولن تتمتّع أيُّ مدينة أخرى بنضارة الحياة وألَقِها في لندن. توقفتْ فجأة، وركّزت نظرها على نقطة قَصيّة، ونهضت، ولوَّحَت بيدها في الهواء، وصاحت: «مِن هُنا!... نحن هُنا!».

كان رجلُ يعبُر الحديقة بخُطى واسعة، شخص فارع الطّول وضامِرٌ يُوحي مظهره بالشّباب، ولكن لا بُدّ أنّه كان يُشرف على الأربعين، غائر الوجه، شاحبٌ للغاية، غزيرُ الشَّعر كثيفُه أسمرُه. وكان يعوم في بدلته. صاح جلوبر نحوه وهو يضرب بذراعيْه: «يا سيّد كافكا، أصدقاؤك كلّهم هُنا!».

خَمَّن أنّه الكاتب، بلْ شبحُ كاتبٍ. نحافةُ وشُحوبُ طَيْفٍ! حيّى الرجلُ الحُضورَ بإشارة، وجاء ليجلس على الكرسي الشّاغر الموجود على يساره، مُلْقِياً عليه تحيّة ودّية بصوت خفيض حَسِبَه روبير صوتَ آلةِ الباريتون.

وأردف جلوبر: تُسعدنا رؤيتك مرّة أخرى، سيّد كافكا!

«وفي هذا المظهر الحسن!»، أضاف الضابط.

«لقد اعتقدنا أنّك كنت موجوعاً؟»، سألت السيّدة دْريسْلر، وفي صوتها نبْرة قلق.

تدخّل جلوبر: أنا شخصياً، في الأسبوع الماضي فحسْب، بلغتْ درجة حرارتي 39، خلال مساءيْن متتاليَيْن، وها أنا قد شُفيتُ!

قال الضابط: إضافة إلى ذلك، يا سيّد كافكا، لم يفُتْك الكثير... حفْل بيانو وفيولونسيل مساء السبت في قاعة الطعام، أداجْيو رقم 3 لشوبرت.

لم تكن السيّدة فوربيرج على ما يُرام، وقد لاحظتُ أرْبَعَ نُوتات نَشاز.

أردفت السيّدة فيشمان: بالنسبة إلي؛ هناك موتسارت فحسب... وأنت، يا سيّد كافكا، أخبرْنا عن الموسيقى التي تُؤْثِرها. أيُمكن ألّا يملك الكاتبُ أُذُناً مثالية؟

صحّحَ الضابط: يتحدّث النقد عن موسيقى المُؤَلِّف الصّغيرة، إذا لم أكُن مُخطئاً.

قاطعهم صوتُ امرأة من خلفهم بنبْرة سُلطوية: إنّها الساعة العاشرة، لقد حان الوقت!.

لَبِدَتْ مُمرّضةٌ منتصبةٌ وراءهم ترتدي بدلتها، يداها مُتقاطعتان، وهيئتها

صارمة. كلّ واحد يُخرج من غشائه مِحرارَه الذي أحضره. نظرتْ إليه السيّدةُ نظرةَ اتّهام. فقال معتذراً «لقد وصلتُ أمس»، واعترف الكاتب أنّه قد نسيه أيضاً. شخصت المرأة بنظرها إلى السّماء قبل أن تستعيد مظهرها الصّارم، وتفحص المُستشْفين الآخرين وهم يضعون مَوازين حرارتهم بين شفاههم، وجفونهم نصف مُغمَضَة، فبدوا وكأنّهم ينتظرون إشارة جديدة. وبعد بضع ثوانٍ طويلة، صفّقَت الممرّضةُ بيدها، فأخذ كلّ واحد محراره بين أصابعه، وتفحّص الرّقمَ الذي يُظهره الزّئبقُ، ثمّ أعاده إلى غشائه، بعد أن مسحه بمنديله أوّلاً، ومنظره إمّا يوحي بالاِبتهاج أو بالحُزن.

شرعت السيّدة دريسلر بالكلامَ ثانية، وراحت تروي قصّة امرأة شابّة عندما اكتشفت ذات صباح درجة حرارتها، فقامت ثم انطلقت تعدو، ليس في اتجاه الحديقة، بل في الجانب الآخر نحو الطريق. وقد حاول جلوبر والضابط إدراكها عبثاً. وذهب كبير الخدم والسيّدة فوربيرجر للبحث عنها بلا طائل. وفي اليوم التالي، عثر رجال الدرك على جُثّتها في سفْح المُنحدر الصّخري. شعرت السيّدة دْريسْلْر أنّها مُضطرّة إلى التوضيح فشبّهت جُثّتها بِدُمية من قماش. قاطعها جلوبر: «آه! ها هو علاج تجديد شبابنا أخيراً»، مُشيراً إلى خادمتيْن كانتا تحملان أكواباً كبيرة من الحليب على صواني عريضة، وجاءتا لتضعاها بجوار كلّ كرسي طويل. بدأ كل واحد ينكبُّ على الشّرب بجُرعة كبيرة، وحاول أن يفعل الشيء نفسَه تاركاً نصفَ الكوب ممتلئاً. أوضحت له السيّدة دريسلر بعد إفراغ كوبه: «إن العلاج بالزّرنيخ مُوصى به أيضاً في هذه المؤسسة، ولكن له كذلك العديد من المُشنّعين، بيْد أنّي لا أُلقّن أيَّ شيء لطبيب المستقبل، أليس كذلك؟».

صمتتْ برهة قبل أن تستأنف بصوت أكثر حُزناً: «فيك شيءٌ لم يكُن أبداً من نصيب ابْني... أنت على قيْد الحياة». قالت هذا الكلام قبل أن تنهض.

تبعها بنظرة قلقة بينما كانت تنأى في اتجاه الطريق، ثمّ سمع الكاتبَ يوصيه بصوت عذْب ومُطَمْئِن ألّا يخشى شيئاً، لأن السيّدة دريسلر لن تقترف ضرراً غير قابل للإصلاح. فشكره على حُسن اهتمامه.

بعد حين؛ ستحلّ الساعة الحادية عشرة والنصف، وسيحين وقتُ الذّهاب لتناول الغداء، وجواباً على جلوبر الذي سأل الكاتبَ إن كان سيُرافق المجموعة، ردّ عليه الكاتبُ بأنّه يُؤْثر البقاء للحظةٍ أطول. أجاب روبير بالمِثل، وكان مبتهجاً بالفرصة التي سنحت له للبقاء بمفرده مع مُجاوره.

كان شيءٌ ما مُرعِبٌ يصدر عن الرجل، مظهرٌ سُلطويٌ يتناقض مع هشاشته الجسدية البادية. ليس لدي الكثيرُ من الذّكريات عن أبي، فكّر روبير، لكنّني أعتقد أنّي رأيتُ تلك السّيماء على وجهه. ذكرياته عن أبيه الحيّ تعود إلى زمن بعيد لدرجة أنّه لم يكن يعرف ما إذا كان قد عاشها أو حلم بها.

أراد، قبل كلّ شيء، أنْ يترك انطباعاً جيّداً. كان يخشى أن يُخيِّب الظنَّ بمحادثة غَثَّة للغاية. ولكن عندما طفق الصّمتُ بينهما يُمْسي ثقيلاً، سأل ببساطة كيف كان الكاتب يجد المكان. بعد وقت من التّأمّل، أجاب مُجاورُه:

«نستلقي في الشمس، أو في الحديقة، أو في الشرفة. في الصباح الباكر نتنزّه في الغابة المُشمسة. نضحك، أو نضْجَر، أو نحزن، أو نفرح في بعض

الأحيان. نبكي مرّتيْن في اليوم بسبب الطّعام. في الجملة، هذا عالمٌ منغلقٌ على نفسه. ومثلما هو الحال على نحو عامّ، فإنّك لا تترك العالَمَ الدُّنيوي إلّا حينما يأتي ملاكٌ ليأخذك. والشيء نفسه هنا».

قهقه روبير. كان من الأفضل، بحسب الكاتب، أن يأخذ الأمرُ مجراه على هذا النحو. وران صمتٌ آخرُ جعله يهاب أن تخرج من فمه تفاهاتٌ أخرى، ومن الاِنطباع السّيّء الذي سيحمله الكاتب عنه. ومع ذلك فقد أبى أنْ يبدأ المحادثة في مسألة ديستويفسكي، حتى لا يكشف عن أوراقه دفعة واحدة. لقد آثَر أن يطرح موضوع صحّتهما المشتركة، مقتنعاً بأنّ استحضار مرضهما في هذه المعركة ضدّ العدوّ نفسه؛ سيجعلهما أخَوَيْن في الكِفاح. بدأ يذكر أعْراضه، كان قد فقد القليل من الوزن، سبعة كيلوغرامات على الأكثر. ولم يكن يسعل إلّا منذ اليوم السابق، وهو سُعالٌ يُعْزَى بالطبع إلى آثار الرّحلة. وإزاء هيئة الكاتب التي تنمّ على الاِهتمام، شَعَرَ بالتشجيع على الاِستمرار: كانت الحُمّى هي التي حَثَّتْه على المجيء إلى ماتلياري، وهي حُمّى طفيفة، لكنّها لم تهدأ منذ عدّة أشهر.

«لا توجد حُمّى طفيفة، هناك فقط حُمّى مقيتة»، أجاب كافكا قبل أن يكشف بدوره، ومن دون أدْنى تحفّظ، عن أعْراضه الخاصّة؛ بَصْقُ الدّم، تَعَبٌ لا سبيل إلى قَهْرِه، ضيقُ النَّفَس عند بَذْل أدنى جَهْدٍ، خُراجات متكرّرة، نُحولٌ، صداع الرّأس، تعرُّقٌ لا يمكن كَبْحُه.

لا مِراء في أنّ روبير فكّر في أنّ المرءَ ما إنْ تطأ قدمُه مكاناً كهذا؛ حتّى تزول كلّ أشكال الرّصانة، ويُلْفي كلُّ فرْدٍ نفسَه، سواء أكان طالبَ طِبٍّ أمْ كاتباً، مجرّدَ شخْص مريضٍ، مَثلُه كَمَثَل الجندي الذي يرتدي الزّيَّ العسكري، فهو مجرّد مُحارب مجهول.

وبعد أن فرَغ الكاتب من الكشف عن خفايا أعْراضه، أنشأ يحكي كيف كان مرضه قد بدأ. في منتصف إحدى ليالي صيف 1917، شرع بغتة يبصق الدّمَ بغزارة. وخلال أسابيع وُصِف الأمرُ بأنّه عَدْوى بسيطة في الرّئة. وبعد ذلك أدركوا خُطورة الحالة. اكتسحت الإصابات العُضويةُ القِمّةَ اليُمنى اكتساحاً كاملاً. ومنذ ذلك الحين وهو ينتقل من علاج إلى آخر، ومن مصحّة إلى أخرى. آه! لقد أُصيب أيضاً بالحُمّى الإسبانية في أكتوبر 1918، لكنّه تعافى منها. فهل كان لديه ما يشكو منه؟ هنا، على أيّ حال، يُقيم المرءُ على نحو لائق. ولم تكن ماتلياري أسوأ من ميرانو حيث كان يُقيم سابقاً. وأوضحَ أنّه لا يقيم في البناية الرئيسة، بل في المُلحقة.

وتابع: «إنّ دارة تاتراس منزلٌ فاتنٌ ذاتُ أفضال كبيرة، وبحسب ما قيل لي فإنّ البناية الرّئيسة صاخبةٌ، الأجراس تُدَقّ باستمرار، والمطبخ يُحدث ضجيجاً، والمطعم يُثير جَلَبَة، والطّريق الذي يمُرّ بالقرب من مسير التزحلق يُسبِّبُ صخباً. أمّا المكان الذي نقيم فيه فهادئ جدّاً، والطّبيب يقيم على بعد ثلاثة أبواب على اليسار في الرواق الذي أُقيم فيه، إذا افترضنا أن ذلك يمكن عَدُّه مَزِيَةً».

ـ «كيف يبدو هذا الطبيب ستريلنيجر؟ وماذا وصف لك عند وصولك؟». سأله روبير وهو يتوجّس قلقاً على نفسه.

ـ بادئ ذي بدء، وبطبيعة الحال، أراد أن يشرع في العلاج بالزّرنيخ، فأعدته إلى الصّواب. وأخيراً وصف لي تناول الحليب خمس مرّات في اليوم، والقشدة مرّتيْن في اليوم. وبعد أن أَكْرَهْتُ نفْسي إكْراهاً شديداً، لم أستطع تناول الحليب سوى مرّتيْن ونصف، وتناول القشدة مرّة واحدة...

كما عرضتُ عليه اتّفاقاً يقْضي بأن يزورني مرّة واحدة في اليوم لِقاءَ مبلغ قدره سِتّ كورونات.

ـ يُقال إنّ للألمان مصحّاتٍ أكثر تحديثاً.

قال الكاتب باسماً: ـ في بافاريا؟ لا يستقبلون اليهود هناك إلّا ليقتلوهم... وتابع بنبرة أكثر جدّية: ـ كان طبيبي الدكتور كْرال قد أيّدني، عندما أخبرته أنّ المصحّات المجرية والتشيكية لا يمكن أن تُوازي المصحّات الألمانية في الجودة، ومع ذلك فقد أوْصاني بمصحّة بْليس! يتعذّر على المرء أن يتفاهم مع هؤلاء القوم. لديّ ثلاثة أطبّاء، ستريلينجر، الطبيب الموجود هنا، والدكتور كْرال، في براغ، وخالي سيغفريد، وهو طبيب ريفي في تْريس. إنهم يقدّمون لي نصائح متضاربة، ويمكن قَبول ذلك على أنه ممكن أو مقبول. فكْرال يُؤيّد حَقْنَ الزّرنيخ، أمّا خالي فيُعارضه. لكنهم يُناقضون أنفسهم، فعلى سبيل المثال، بعثني كْرال إلى هُنا بسبب شمسٍ عالية الإرتفاع، والآن، بعد أن بدأت الشمس تسطع، يُوصيني بِـ(بْليس) التي تقع على ارتفاع منخفض! كان روبير مُتلهفاً لطرح هذا السؤال:

ـ تحدّث السيّد جلوبر عن رجل يقطن في الغرفة الموجودة فوق غرفتكم، تشيكي، إصابته بالغة...

ـ إنه رجل لطيف يُعاني داءَ السُّل الحنجريّ أحد أنواع (الحياة أو الموت)... طلب منّي أن أعود وأُمضي بعض الوقت معه بعد العشاء. أراني المرآة الصغيرةَ، التي ينبغي له حين يسطع ضوءُ الشمس؛ أن ينقلها إلى الجزء الخلْفي من حلْقه لِتَشْعيع تقرُّحاته. وبعد ذلك كشف لي قُرحاته التي ظهرت على الحنجرة منذ ثلاثة أشهُر. تراءتْ لي نوْبةُ إغْماءٍ تنقضُّ عليّ كموجة. وجدتُ ما يكفيني من قُوّة لأنْصرف. لا أدْري لماذا لا يُغْمَى

على النّاس كافّة في حضرته. فما نراه هناك أفظع من الإعْدام... كلّ هذه الحياة البائسة في السّرير، الحُمّى، والاِختناق، وابتلاع أدوية غير ناجعة، والإشعاع المُؤلم والقاسي... كلّ ما ليس له من تأثير سوى إبْطاء تطوّر القُرحات التي ستخنقه في آخر المطاف...

ـ هل راود ذهنكم يوماً أنّ المرض إذا ما تطوّر فسننتهي نحن أيضاً، مثل جاركم التشيكي، بتقرّحاتنا، ومرايانا الصغيرة التافهة، وحنجرتيْنا اللّتيْن غزاهما الدّاء الذي يهلكنا؟أجابه الكاتب بقصة كان يعرفها: ـ هذه قصّة حسيدية[1]؛ يقول أحد الخامات إنّه استقبل في خانٍ فلاّحَيْن مخمورَيْن. كان الفلاّحان يجلسان متقابليْن، أحدهما حزينٌ، والآخر يُواسيه بكلمات مُطَمْئِنَة حتى اللّحظة التي صرخ فيها الرجل الحزين قائلاً: «كيف تزعُم أنّك تُحبّني بينما أنت تجهل عِلّة مُعاناتي؟»..

قاطعه صوت السيّدة فوربيرجر من البناية. وكان الجمْع ينتظر الرجليْن لتناول طعام الغداء، وحُجِز مكانُهما على طاولة الضابط. قاما وطفقا يسيران صوب البناية. فكّر روبير أنّهما يسيران بخُطى مُوَقَّعَة ككتيبة عسكرية.

كانت أسابيعُ قد مضت. فحمد روبير القدَر الذي جعله يُلاقي مثل هذا الرجل في هذا المكان اليَباب. وقد أَذِن له الكاتب بقراءة بعض قصصه القصيرة، التي كان القليل منها قد عثر على ناشر. لم يسبق له أن طالَع مثل هذا النّثر، أو قرأ نصوصاً على هذه الدرجة من الحداثة، وبمثل هذا الصَّفاء، وعلى هذا النحو من العُمق في المعنى. فَخَلْفَ اليُسْر الظّاهر للّغة

(1) ـ نسبة إلى طائفة الحاسيديم اليهودية.

والشخوص؛ يثْوي تعْقيدٌ وثَراءٌ لا مثيل لهما. لم يكن هناك شيءٌ قاتِمٌ في الرجل. كانوا يضحكون، ويُغَنّون، بل يرقصون أحياناً على ألْحان غيتارة الضابط. وما كان يمكن أن يصفه أيضاً بالعاطفة لا يبْدو أنّه شُعورٌ أُحادِيٌّ.

وكان الكاتب قد دعاه لقراءة فقرة من هذه الرسالة المكتوبة إلى صديقه ماكس برود، حيث عرض فيها موضوع إقامته في المصحّة:

«*لا أُصادِق، في حقيقة الأمر، إلّا طالبَ طِبٍّ، والبقية ليس لهم أهمية كبيرة عندي. إذا أرادوا منّي شيئاً يقولونه لطالب الطّبّ، وإذا أردت شيئاً قلتُه له أيضاً*».

وفي رسالة إلى أخته أُوتْلا، أُتيحَتْ له قراءتها، يذكر الكاتب:

«*شابّ فارع القامة، متين، عريض، أشقر، ممتلئ الجسم تقريباً، له وجه صبي كتلك الوجوه الموجودة في نقوش حكايات هوفمان، جادٌّ ومجتهد، على الرغم من أنه غارقٌ في أحلامه، هكذا، شخص صبوح تماماً، طالب طبّ شديد الذّكاء، وصادق، ومترفّع، ومُفْعَم بالرّقّة، وطموح للغاية، إضافةً إلى ذلك فهو يبدو هاوياً للأدب بشدّة، ولا يخلو من الشبه بشاعرنا فرانتس ويرفيل*».

كان روبير قد رأى حالته تتحسّن. انْحسرت الحُمّى وزال السُّعال، وازداد وزنُه. كان لديه مَنْ ينفضُ عنه أتْراحَه ويُشاطِرُه أفراحَه. كان يتشرّب كلام الكاتب. لقد أحبّ هذا الرجلَ بوصفه أَخاً. أَسَرَ الرّوسُ شقيقَه في جبهة القتال عام 1917، ولم يعد بمستطاعه مبارحة الاتحاد السوفياتي.

في هذا الصباح من أُخْريات الرّبيع؛ قاما بنزهة في الغابة مع مجموعة صغيرة تتكوّن من جلوبر، والآنسة جالجون، وإيرينا، والدكتور سترلينجر.

كان يبدو أن زرقة السّماء تحتفي بقُدوم أيّام الحياة السعيدة. كانوا يتقدّمون بروح طليقة، على البساط الطّحلبي الذي ما زالت تضْرِسُه صفائحُ الثّلج الذّائبةُ. المَرأتان الشابّتان ترتديان سترة خفيفة فوق ملابسهنّ، والرّجال حاسرون بلا ربطات عُنُق. صاح جلوبر: «سيندم الضابط على عدم مجيئه»، وردَّدتْ الآنسة جالجون: «هذا أجمل يوم في حياتي!». كانت تحوم حول نفسها، وفُستانها يستدير حولها، وكانت قرارة الوادي تُتيح ارْتقاء خرير النّهر الممزوج بصيحات الطيور المُبهِجة.

يمشي كافكا الهُوَيْنى. لقد بدا مُنهكاً بسبب هذا السّير القصير. وإذا كانت الأسابيع المنصرمة قد أنعشت الشّابّ وقوَّتْه، فلا يبْدو أنّها قد حسَّنتْ حالةَ الكاتب بأيّ شكل من الأشكال. على العكس من ذلك، بدا أنّ المرض يتفاقم، وكان يمشي في المؤخّرة متخلّفاً عن بقية المجموعة. عاد روبير على أعْقابه وحلّ بجانبه. كان قلِقاً بشأن ما إذا كان من الممكن لصديقه إرْجاءُ رحيله إلى براغ، وتمديدُ إقامته.

«تنتهي إجازتي في العشرين من مايو، يتوسّل إليّ جميعُ أفراد العائلة بالبقاء. أمّا ستريلينجر فيُهدِّدُني باحتمال حدوث الاِنهيار التامّ إذا عُدْتُ إلى براغ. ولكنْ أنْ أطلُبَ إجازةً من الإدارة بنصف راتبٍ؟... سيكون من اليسير أن أشرح أنّ مرضي يتفاقم جرّاء وجودي في المكتب. لكن، في الحقيقة، وبخلاف ذلك، فإنّ المكتب أَرْجَأَ مرضي. يزعم ستريلينجر أنّ الدّاء الرِّئَوِيَ قد تراجع بمقدار النّصف! أمّا أنا فأقول، بالأحرى، إنّه تقدّم بمقدار الضّعف! لم يسبق لي أن كنت عُرضة لمثل هذه النّوبات من السّعال، ولم يحدث أن شعُرت بمثل هذا الاِختناق، وهذا الضّعف الكبير...».

كانا، الآن، يسيران من دون أن ينبسا بكلمة واحدة، ولمّا كان يبذُل أدنى

جهد في المشي، فإنّ صدى نَفَس الكاتب يتردّد نامّاً على زفرةِ تَعَبٍ مُقْلِقةٍ. وكان لون خدَّيْه العاجِيُ يتضَرَّجُ. كان الرجل يعوم في بدلته الرّمادية أكثر مِمّا كان عليه في اليوم الأوّل، حتى لو كان من المُفارقة أنّ هذا الجَسَدَ يُحْدِث انْطباعاً مُماثلاً مُفادُه أنّ الطّاقة ما زالت تستمرّ في الإِنْبثاق منه. رأى روبير أنّ الرجل مَيِّتٌ مع وقف التّنفيذ. ولِدَرْءِ هذه الرؤيا، أعلن الشابّ:

«في أثناء وجبة الفطور سألني جلوبر سؤالاً حملَني على الإِبتسام. سألني إذا كان لدي ثلاث أُمْنيات، فماذا ستكون؟ أجبت: ستكون الأولى أن أعيش حُبّاً مشْبوب العاطفة، والثانية أن أنشُر رواية، والثالثة أن أرحل للعيش في براغ»...

«نشْرُ روايةٍ؟!» استغرب الكاتبُ. سيكون الأمرُ متروكاً له، سيذهب ويطرق بابَ ناشرِ نصوصِه القليلة المنشورة، ويسأل السيّد كورت وولْف، ليمنحه كلَّ النّسخ التي بحوزته، سيأخذها إلى مَكَبّ النّفايات لإلْقائها في النّار. أمّا بالنسبة للعيش في براغ؛ فقد كرَّر على مسامعه إيثارَه العيش في برلين.

وتابع قائلاً:

ـ أوصيك من دون أدنى شكّ بقضاء الفصل الدّراسي الشّتوي في ألمانيا، إنّ الإِنْجذاب إلى براغ غامضٌ للغاية، وإنّ المرء ليُبالغ في مَيْله، برلين أكثر ملاءمة للعيش، بل إنّ برلين دَواءٌ لِداء بْراغ، فالشوارع القذرة في الحيّ اليهودي في برلين لَأفضل من الرِّينْغ...أمّا بالنسبة للأماني الثّلاث التي يُمكنني أنْ أُعْرِب عنها؛ فستكون في المقام الأوّل شفاءً تقريبياً، لقد وعدني الأطبّاءُ به، ولكنّي لا أرى حُدوثَ ذلك. أمّا أُمنيتي الثانية فستكون

هي الرّحيل للعيش في بَلَد من بُلدان الجنوب، وليس بالضّرورة في فلسطين. في الشهر الأوّل الذي أنْفقْتُه هُنا؛ طالعتُ الكتابَ المقدّس كثيراً، أمّا الآن فقد انتهى الأمر. وأُمنيتي الثالثة أن أحصل على وظيفة صغيرة... كما تلحظ، فأنا لا أطلب الكثير، حتّى إنّ الزوجة والأطفال ليسوا في عدادها...

ـ إنّك لا تحتاج إلى شيء كثير، لأنّ الأدب يمنحك عِلَّةً لِلْعيْش...

ـ يحملُني الأدبُ على العيش، هذا صحيح، ولكن سيكون من الصّواب جدّاً أن أقول إنّه يحملني على أن أعيش حياة غامضة في أعْلى العَدَم. يبدو لي، وأنا شديد الِاشتغال بالكتابة، أنّني لم أَعِشْ بَعْدُ، يبْدو هذا الأمر كما لو كنتُ طوال حياتي أَتَماوَتُ في أثناء الكتابة. ولعلّني الآن، سأموت حقّاً... الكتابة هي احتمالي الوحيد لكي أُوجَد. ولهذا أحتاج إلى العُزلة، ليس مثل مُتَنَسِّكٍ، بل مثل رجل مَيِّتٍ. الكتابة، بهذا المعنى، مَوْتٌ. وكما لا يستطيع المرءُ أنْ يُخرج مَيِّتاً من لَحْدِه، كذلك لا يستطيع امرُؤٌ أنْ يصْرِفَني عن طاولة عَمَلي لَيْلاً...

ـ ربّما توجد صيغةٌ إبْداعيةٌ أقلّ تدْميراً..

ـ لا أعرف سوى هذه الصّيغة، أكتبُ ليْلاً هَرَباً من الجُنون عندما يَنِدُّ النَّوْمُ عن أجْفاني جَرّاء القلقِ، ولا يعْني هذا أنّ حياتي تكون أفضلَ حينما لا أكتب. في الحقيقة إنّ الكاتب الذي لا يكتب هو مَسْخٌ، فأنا لم أتحَرَّرْ من خلال الكتابة، لقد أنْفقْتُ حياتي أموت.

تركَ روبير برهةَ صمْتٍ تسود، وكان مفْتوناً ومَرْعوباً مِمّا سمعه للتّوّ. ثمّ، لكي يتبادل الحديث بنبْرة أخفّ، سأل الكاتبَ عمّا إذا كان قد سنَح

الوقتُ له لمراجعة النصوص المكتوبة بخطّ يده، والتي عَرَضَها عليه قبل بضعة أيام، لاسيّما ترجمته من المجرية إلى الألمانية لقصص فريجيس كارينثي[1] القصيرة.

«لقد كانت قراءتها فرحة كبيرة! ترجماتك ممتازة! هل سترغب في أنْ أعْرِضها على ناشرِيَّ؟».

قَبِلَ بحماسة وعاد إلى اقتراحه بترجمة (التحوّل) و(الحكم) إلى المجرية، فأجاب الكاتب بأنّ الروائي ساندور ماري قد سبق له أنْ أَكَبَّ على هذه المهمّة. وأضاف:

«لكن يمكنني أن أطلب من ناشِرِيَّ ـ لاسيما كورت وولْف ـ مَنْحَكَ حقوق ترجمات نصوص أخرى إلى المجرية».

شكر روبير الكاتبَ مرّة أخرى. كان لديه سؤال آخر ذو طبيعة تقنية، يشغل بالَه منذ فترة طويلة. لقد كان استفهاماً من كاتب مبتدئ إلى كاتب. (الحكم)، هذه القصة التي قرأها وأعاد قراءتها، والتي وجدها مُتقَنَة تماماً من حيث تصوُّرها، كَمْ عدد الأسابيع التي استلْزَمَتْها كتابتُها؟

يتذكّر كافكا: «كتبتُ هذه القصةَ دفعة واحدة في ليلة 22 إلى 23 من أغسطس1912، من الساعة العاشرة مساء إلى السادسة صباحاً. مكثْتُ فترة طويلةً لدرجة أنّني بالكاد كنت أستطيع جَذْبَ ساقَيَّ المتصلّبتَيْن من مكتبي، كانت القصّة تحدث على مرأى منّي. كنت أتقدّم على نحو سريع، لكن في بعض الأحيان، كنت أشعر أيضاً أنّني أنوءُ بحَمْل جسدي على

(1) ـ فريجيس كارينثي (1887 ـ 1938) كاتب مسرحي وشاعر وصحافي ومترجم مجري.

ظهري. كتبتُ الجملة الأخيرة في وضح النّهار. على هذا النحو فقط، يمكن للمرء أن يكتب بانفتاح تامٍّ للرّوح والجسد.

ـ هل يصدمك إذا قلتُ إنّ جورج بندمان، بطل القصّة، هو أنت؟

ردّ كافكا بإيماءة برأسه بِـ(لا). ثمّ شرح:

ـ كلّ العلاقات المتبادلة واضحة في هذه القصّة. للبطل جورج عدد الرسائل نفسه الذي لكافكا. يحْوي اسمُ بينْدي Bende عدد الحروف نفسه الذي في اسم كافكا، وحرف العلّة e يتكرّر في مكان حرف العلّة a نفسه في Kafka. ولـ Freida عدد الحروف نفسه، والحرف الأوّل نفسه من اسم المرأة الشّابّة التي حدّثتك عنها... صاحت أختي بعد قراءتها للقصّة «لكنّها شُقّتُنا!».

أين كان يعثر على القوّة والإلْهام والإقْدام؟ البداية كانت عسيرة للغاية.

«يحتاج المرء في المقام الأوّل إلى العُزلة، إلى الكثير من العزلة. بعد ذلك؛ فأنا أمقت كلَّ شيء لا يمتّ إلى الأدب بصلة. تُزعجني الزّياراتُ، وتُضْجِرُني أفراحُ أهلي وأتْراحُهم، وتُضايقُني الأحاديثُ (حتى لو كانت أحاديث في الأدب). لو كان بمُستطاعي فلن أتحدّث مع أيّ شخص. إنّ أدْنى ملاحظة يُبْديها شخصٌ آخر، وأدْنى فُرجة أراها بالمصادفة، تَقْلِبُ كلَّ شيء في داخلي. ما زلت متردِّداً، لا أشعر إلّا بعُنْف الحياة.

انتظر روبير لحظة، ثمّ سأل سؤالاً نَدمَ عليه فوْر صياغته:

ـ هل سبق لك أن فكّرتَ في... التخلُّص... من اليأس...؟أجاب الكاتب أنّه فكّر في الأمر مراراً وتَكراراً.

لكنه أضاف أنّ الموت لا يعني شيئاً سوى التّخلّي عن تفاهة مقابل تفاهة...

استأنف روبير: الأسئلة التي أطرحها على نفسي كمبتدئ حديثِ العهد بالأدب، ستبدو لك ساذَجة، بل بلْهاء. لكن على سبيل المثال، لا أدري إذا كنتُ أحتاج إلى كثرة المطالعة من أجل الكتابة، إنّني أخشى التأثيرات، وأخاف من أنْ أتأثّر بالرّوايات التي أقرؤها.

يقول الكاتب له ألّا يخاف بعد الآن.

وتابع:

«تُعَدّ روايتي عن أميركا محاكاةً خالصةً لرواية ديفيد كوبرفيلد لديكنز! نهلْتُ منها من بين ما نهلْتُ قصّة الحقيبة، والصّبي الذي يسحر العالَم، والحبيبة في منزل ريفي، والبيوت القذرة... ولكنّني؛ على نحو خاص، نهلتُ منها الطّريقة!».

وبعد ذلك شرح أنّ كِتاباً كان يدور في خَلَده منذ وقت طويل، كتاباً ستكون نقطةُ انطلاقه هذه الرواية الرائعة، التي كان لها تأثيرٌ كبيرٌ فيه عندما كان يافعاً. وكان عُنوانها (الجدّة) للروائية التشيكية بوزينا نيمكوفا، تروي علاقات النّزاع بين أسيْاد قلْعةٍ أثْرِياء، والريفيين الذين يخدمونهم. كان قد صاغ جملتها الأولى، وكانت هذه الصياغة أهمَّ شيء. فعندما يكون المرءُ قد تمكّن من الجملة الأولى من رواية، كان الأمر، أحياناً، كما لو أنّ الرواية قد انتهت بالفعل. يتنفّس الكاتبُ الصّعداء. وبعد ذلك قال:

«مكَثَ ك مليّاً على الجسْر الخشبي، وعيْناه شاخصتان صوْب هذه المرتفعات التي كانت تبْدو فارغة».

صفّق روبير بحماسة مصطنعة إلى حدّ ما، فأبْطأ عليه قراءةَ البقيةِ. بعد ذلك أوضح الكاتب مُؤثّراته الأدبية الرئيسة، ذاكِراً هوفمانستال وموزيل، فضْلاً عن السينما. لكن عائلته الحقيقية التي تربطه بها أواصِر الدّم، كما قال، هُم ديستويفسكي، وكْلايست وفلوبير، من دون أنْ أُقارِن نفسي بهم، بالطّبع.

وأوضح أنّه في أثناء كتابة (الحُكم)، أدْرَك فجأة السِّرَّ الحقيقيَّ لإبداعه الأدبي، وكيف يمكن للقُوى اللّاواعية أن تُؤثِّر وتجعل استحالةَ الكتابةِ ممكنةً. يمكن للمرء أن يتحدّث عن مرض التّخييل إلى الحدّ الذي لا يكون فيه الجنونُ بمنأى من هذه الحالة، فقد كان فُقدان العقل أَحَدَ وساوسه. كانت عائلته من ناحية أُمِّه تشمل آلَ لوي، رَهْطاً من غريبي الأطْوار، وأخوالاً مُحَطَّمين، وجَدَّةً انتحارية. أأنقذتْه الكتابةُ من الجُنون؟ أمْ أنّها ليست إلّا عَرَضاً وثمرةً للمرض الذي سيكون مُصاباً به؟

واختتم كلامَه: «ومع ذلك؛ فلا شيء يُرْضيني سوى الكتابة. أشعُر بأنّي مُجَوَّفٌ كصَدَفَة على الشاطئ وُجِدَتْ لتُهْرَس برَفْسَة. بمعنى آخر، اللّه لا يُريدني أن أكتب، أمّا أنا فينبغي لي أن أكتب.

وبعد صمت طويل آخر، أعرب الكاتبُ بنبرة أشدّ رصانة أنْ كان عليه إخْبارُ روبير بنبأ حزين، لا يبْدو أنّ الشّابّ كان على عِلْم به. كان الخبر الرّهيب يتعلّق بجاره في الطّابق العُلْوي ـ في دارة تاترا، المجري[1] المُصاب بالتهاب الحنجرة السُّلِّي، الرجل الذي كان يُداوي نفسَه باستعمال مِرآتيْه الصّغيرتيْن في حلْقه.

(1) ـ ارتبك الأمر على الكاتب في نسبة هذه الشخصية (سالتوفسكي)، إذْ عَدَّه من قبل تشيكياً، والآن يعتبره مجَرِياً؟

ذُعِرَ روبير:

ـ السيّد سالتوفسكي؟ ماذا جرى له؟

ـ لقد غادر المؤسّسة في وقت مبكّر هذا الصباح، من دون حافظة أو أمتعة. وتابع نزهته حتى بوبراد، ثمّ استقلّ القطار الأوّل، فقفز منه... نحن جميعاً هُنا مُذْنِبون، ليس بسبب انتحاره، وإنّما بسبب يأسه. لقد كان رجلاً اجتماعيا للغاية، لقد تخلَّيْنا جميعاً عنه بأكثر الطُّرُق قسوةً، وكُنّا كَمَثَل مَن ينْجو بنفسه على حساب الآخرين وقتَ غَرَق السفينة».

اِسْتذْكَر الكاتبُ محادثَتهما الأولى في مرض هذا الرجل، غداة قُدوم روبير إلى المصحّة، والفكرة التي أعرب عنها، وحاصلها أنّ داءَ السُّلّ سوف يغزو ذات يوم حُنجرتيْهما. وماذا لو أنّ ما تبقّى لهما هو التوسّل بمرآتيْن تافهتيْن بُغية إزالةِ انْسدادِ هذا الحلْق، كيما يتمكّنان من التّنفُّس والأكْل؟ ماذا سيفعلان في هذه الحالة؟

قال الكاتب بعد لحظة تردُّد:

«لعلّ القفز من القطار يكون بديلاً جيّداً من الاِخْتناق الموْعود؟».

بعد أنْ قال هذه الكلمات لاَمَ نفسَه لأنّه أفْرَط في الحديث، واقترح ـ وقدْ عَراه طَرَبٌ كثيرٌ ـ الاِنْضمامَ إلى المجموعة.

أَلَمْ يلحظ روبير أنّ الآنسة جالجون كانت تنظر إليه بعيْن الغَرام، وهي تسْعى إلى إغْوائه؟

وبعد لحظة، كان الطّقس قد تغيّر. كانت السُّحُب السُّودُ الكبيرة تتكدّس على قمّة لومنيتز. كان عليهم العودة.

في أغسطس، غادر الكاتب المصحّة نهائياً ليعود إلى براغ. وأضحت الأيامُ في ماتلياري أشدّ حُزناً، وشعُر الشابُّ بالضّجر. كانت الرّسائل وذكرياتُ الشهور التي أنْفقها برفقة الكاتب، وأَثَرُ فِكْرِه؛ تُسعِفُه على الصُّمود والاِحْتِمال. آلَ الأمرُ بروبير إلى أن يَقَرَّ قرارُه، بعد مقامه بالمصحّة، على الاِستقرار في براغ، ليُواصل فيها دراسته الطّبّ. كان يُحسّ أحياناً أنّ حياتَه ستقوم على أساس هذه الصّداقة الجديدة.

13 ـ يوليو ـ 1923

دورا

إنّها خاتمةُ التّيه، في هذا اليوم المُبارك، يومِ الاِحتفال والتّحْرير، على شاطئ مدينةِ موريتز السّاحليةِ المُقْفِرِ، على شواطئ بحر البلطيق الألماني. يبدو البحرُ من بعيد فَسْقِيَةً كبيرة تتوهّج بالأضواء احتفاءً بهذا اليوم. سيُولَد شيءٌ ما هُنا في موريتز. وهو حدثٌ عالمي على صعيد حياةٍ. امرأةٌ ستُصبح زوجة فرانتس كافكا، يا أهل المدينة، جهِّزوا الأغاني، واجْعَلوا صدى آلات النّفخ الموسيقية يتردَّدُ، إنّه يومُ مجدِكم. موريتز؛ يا مدينة الأنْوار وعاصمة الكوْن. ثمّة شابّة خَلِيَةُ البالِ تسير لمُلاقاة مصيرها.

كانت دورا ديامانت ممثّلةً في فرقة مسرحية يديشية[1] في بيدْزين، تتَمَرَّنُ على دوْر حياتها: زوجة فرانتس كافكا. لقد مثّلتْ على خشبة المسرح مُخالفَةَ رأيَ أبيها، على المرء أن يُعارض دائماً رأيَ الآباء. لم يكُن هيرْشيل ديامانت راضياً عن ميولاتها، هو الرجل الوَرِعُ الحسيديُ، الذي يُجسِّدُ كُتلةً من الإيمان. يجب علينا أن نَدُكَّ كُلَّ أركان الإيمان، ونَنْأى عن تعاويذ الآباء، ونهْجُر بيدْزين، وأرضَ بولونيا الجليدية، وسِجْنَ العائلة. لا شيء يُمكن أن يُعرقل مسيرةَ قَدَرِ تلك التي ستكون زوجةَ فرانتس كافكا. هربتْ

(1) ـ اليديشية: لغة جرمانية يتحدّثها اليهود الأشكيناز.

دورا إلى برلين، تارِكةً بينها وبيْن أبيها بَلَداً بأكمله يمكن أن يتيه فيه عندما يجيءُ للبحث عنها. برلين في العشرينيات، هي أرضُ اليهودِ الموعودةُ، حيث لا تسيل دماءُ المذابح. أصبحتْ مُربيةً عند عائلة ثَرِية، ومتطوّعة في المأوى اليهودي الشّعبي الذي يستقبل الأطفالَ النّاجين من المذابح.

في ذلك اليوم، يومِ الِاكتشاف العظيم الذي سَيَسِمُ حياتَها، يُرافق الأطفالُ المرأة الشابّة وهم جَذالَى، المرأة التي تسير لملاقاة مصيرها. موكب احتفالي، صيْحات الأطفال وضحكاتهم، آلات أرغُن كبيرة، مسيرة زفافٍ ما قبل حفلات ليالي الزّواج، ومواكب الشّرف. هل أَهَبُك وَلَداً في وقت ما؟ يا أباً لرَجائي. يتقدّمها أو يتبعُها أولادُ المأوى الشَّعْبِي، هناك ثلاثون منهم حولها قادمون من قُرى القوقاز الروسية، التي كان البولنديون يسيرون إليها بحَمِيَةٍ وشوْقٍ لاقتراف المذابح، لاسيما في أماسي عيد الفصْح أو أُمسيات عيد الميلاد. أنْجاهم الحظُّ من المجزرة. لقد وجدوا العوْن في ألمانيا، الوطن المُبارك، والقُدْس الجرمانية، التي تُؤوي الأيتامَ لتضْميد جِراحهم، وتُكوِّنُ منهم نساءً ورجالاً أحراراً. الأيتامُ يصرخون ويضحكون ويدْعون الشابّةَ المتطوّعة لِلَّعِب معهم، أليستْ هناك لِدَرْءِ التّعاسة والشّقاء، أليس جديراً بها أنْ تُواسيهم وتُخفِّف عنهم في شمس بحر البلطيق الشّاحبة؟ لقد سالت الدّماءُ، فلْنَجْعَل الفرحَ يسيل ويتدفّق! ظلّت الشابّة غافلةً عن نداءات الأطفال الذين يطلبون منها الِانْضمامَ إليهم والِاستمتاعَ معهم. شيءٌ ما أغراها فجأة ألّا تستجيب لطلباتهم، مفتونةً تماماً بالمشهد الفخم، هذا السِّحْر البعيد، على الشاطئ المُقفر، الرجلُ جالسٌ مُستغرِقٌ في تأمّل البحر. مشهد رائعٌ لرجل بمفرده يُواجه العناصر، مُستعذباً مشهدَ الأبديةِ، بينما يستمتع الناس العاديون بسيجار فاخر. كانت

تعتقد أنّها تتأمّل في لوحة رسمها إله الحُبّ، ورسمتْها المُصادفةُ. هي أمام لوحة *المُسافر مُتأمّلاً بحْراً من الغُيوم* لكاسبار فُريدْريش، التي شاهدت نُسَخاً منها في برلين. إنّ ما يتأمّله الغريبُ على الشاطئ، في حُسبانها، هو عَظمة الحياة، وليس الموت الذي سيحين قريباً ليُدْرِك مُسافرَ فريدريش.

قطع طفلٌ حُلْمَ الشابّة، يجذبها من ذراعها، راغباً في أن يلعب معها، مُطالِباً بنصيبه. اِنْصاعتْ له على مضضٍ. فكيف سترفض أمْراً لطفلٍ رأى خنجرَ القوقازيِّ ينْغَرِزُ في بطن أُمّه؟

في فترة الظّهيرة، بعد رُؤيا الرّجل على الشاطئ، تقف الشّابّةُ المُغْتَمَّةُ والحزينة كلّ الحُزن لرؤيةِ وقْتِ لِقاءِ أعْظمِ حُبٍ وقد تأخّر، تقف عند منضدةِ مَسْمَكَةٍ برفقة صديقتها الأثيرة؛ تيل. اشترت السّمكَ لوجبة العشاء، وجبةِ يوم الجمعة المقدّسة، أمسية احتفالية للأيتام الذين اعْتادوا أن يأكُلوا بالكاد حتى الشَّبَع. جمعة عظيمة، سبْتٌ مُبارك، الحمد لِلّه الأبدي، الذي يُؤلِّف بين المُتحابّين حُبّاً أبدياً.

صاحتْ تيل:

ـ لكن أخيراً يا دورا، لقد رأيتِ السِّعْرَ، أعيدي هذه السّمكة!

ـ «إنّها وجبة يوم السّبت، يحقّ لنا أنْ نشذَّ عن القاعدة». برَّرت الشابّةُ سلوكها وهي تتناول أسْماكاً أُخرى كبيرة من نوع الشَّبّوط.

ـ معكِ أنتِ؛ كلّ شيء يمنحكِ حقَّ الشُّذوذ عن القاعدة، السبت، والأحد، والأسبوع...

ـ «أنا التي تطْهو، وأنا التي تختار!». أجابت المرأة الشّابّة وهي تتناول أضخمَ الأسماك وأغْلاها سِعْراً، ثمّ تضعها في كيسها.

قالت تيل:

ـ لقد رأيتُكِ في وقت سابق وابتسامة ساخرة ترتسم على طرف شفتيْكِ.

ـ يا تيل، أنتِ تريْنَني كلّ يوم منذ شهريْن.

ـ لقد رأيتُكِ... عندما كنتِ تنظرين إلى الدكتور كافكا، بل ينبغي أن أقول: عندما كنتِ تلْتَهِمين بنظرك الدكتور كافكا.

ـ يا تيل، أنا لا أعرف من هو الدكتور كافكا.

ـ حسناً، الآن وقد عرفتِ اسمَ الرجل الذي كنتِ تُلاحظينه بإصْرار كبير على الشاطئ، لعلّك ترغبين في معرفة المزيد عنه.. تُنْكِرُ دورا وتكذبُ ما وسِعَها الإنْكارُ والكذبُ.

ـ «حسناً»، تُتابع تيل؛ لن أُخبرَكِ أبداً أنّ السيّد كافكا، الذي لم يسبقْ لكِ أنْ رأيْتِه على الشاطئ، والذي لا ترغبين في أنْ تعرفي عنه أيَّ شيءٍ؛ يُقيمُ حالياً في موريتز، وأنّ هذا الرجلَ الوسيمَ للغاية قَدِمَ من براغ، حيث إنّه لا يُعَدُّ فيها المُحامي لمكتب تأميناتٍ مرموق فحسب، ولكن أيضاً لأنّ هذا الرجل الذي لم تتفرَّسي في ملامحه قَطْعاً، والذي أَعُدُّه شخصياً مَليحاً كالملاك جبريل؛ هو كاتب. إنّه، إذا سمحْتِ، كاتبٌ لا يكتب مثلما يستطيعُ أيُّ شخص أن يقوم بذلك فحسب، بل ينشُر كُتُباً، وله قُرّاءٌ ومُعْجَبون سلفاً. وفي حالة أن هذا الأمر لا يعْنيكِ، فإنّ هذا السيّد غيرُ مُتزوِّج على الإطلاق، وحتى لا ننتقص شيئاً من مزاياه، فإنّ هذا السيّد كافكا السّاحِر مَدْعُوٌّ من قبل مديرة مأوانا الطّيّب لتناول العشاء، الذي يجب عليك أنْ تُعِدّيه لَنا عندما تعودين إلى المأوى!

ـ أنتِ ساحرةٌ! يا تيل روسْلر.

ـ ساحرة تقرأ أحشاء سمك الشَّبّوط المحشُو، يا دورا..في نهاية فترة الظّهيرة، وفي مطبخ قاعة الطّعام؛ تشعُر الشّابّةُ التي تُنظِّف سمكَ الشّبّوط لوجبة المساء بوجود شخص خلفها. اسْتدارتْ فألْفتْ نفسَها أمام هذا الرّجل فارعِ القامة، الغريبِ على الشاطئ، رجلِ براغ، عيناه الرّماديتان النّجْلاوان تُحدّقان بإمْعانٍ في غَوْر عينيْها، والذي يقول:

ـ «أَمِثْلُ هاتيْن اليديْن الجميلتيْن تقومان بما يقوم به جَزّارٌ...».

بعد ثلاثة أشهر من هذا اللّقاء، في سبتمبر 1923، انتقل الرّجل الذي لم يكن قادراً على العيش في أيّ مكان آخر غير براغ، انتقل معها إلى برلين، فأقاما في 8 شارع ميكيلْشتراسه، في حيّ ستيجليتز، ولمّا أَعْوَزَهُما المالُ انتقلا إلى جرونوالدشتراس، ثمّ انتقلا مرّة أُخرى إلى زيهليندورفر هايديشتراس. كانت المرأة الشّابّة تشهد، عاجزةً، صحّةَ رفيقها وهي تَذْوي شيئاً فشيئاً. وكانت قسوةُ شتاءِ 1924 قد أجْهَزَتْ على صحّته الخائرة. وكان الأمر كما لو أنّ حُبَّها الهائلَ يفْنَى من الدّاخل. وحدث أيضاً أن شاهد الزّوجان في بعض الأماسي؛ صفحاتٍ من مخطوطةٍ للكاتب تحترق بعد أنْ ألْقَتْها في النّار بإيعازٍ من عشيقها.

في ربيع عام 1924 أُعيدَ إلى براغ، حيث غزا الدّاءُ الحُنجرةَ. وبعد مُرور بعض الوقت نُقِلَ إلى المَشْفى في فيينا، وهو في حالة يائسة، قبل أنْ يُنْقَلَ إلى مصحّة كيرلينغ حيث تمكّنتْ دورا، التي انضمّ إليها روبير كلوبتسوك، من السَّهَر بجانبه والاِعْتِناء به ليْلاً.

الرجل الذي لم يتمكّن أبداً من عقْد خُطوبةٍ مع أيّ امرأة، لا مع فيليس،

ولا مع ميلينا، وجّه رسالةً إلى هيرشيل ديامانت يطلب منه يدَ دورا للزّواج. رفض الأبُ تزويجَ ابنته بناءً على نصيحة حاخام طائفته، هذه اليد الجميلة التي قامت بما يقوم به جزّارٌ. ينبغي دائماً أنْ نَدُكَّ أرْكانَ الإيمان وركائزَه، ونُخالِفَ دائماً آراءَ الآباء ونَصائحَهم.

3 ـ يونيو 1924

أُوتْلا

لقد ظنّت أنّها إذا ذهبت للنّوم باكراً عن المُعتاد؛ فإنّها ستنام بيُسْر أكبر من الأماسي الأخرى. بعد وقت وجيز من تناول الوجبة، ألْقَتْ على أبويْها تحيةَ المساء. عادتْ لِتُقيم في شقّة العائلة حتّى تلْبَثَ بالقُرب منهما، وهم ينتظرون انتظاراً مشوباً بالقلق عودةَ شقيقها من مصحّة كيرلينج. ذهبت للنّوم أمَلاً في أن تكون هذه اللّيلة مختلفة عن اللّيالي الأخرى. لكنّ هذه اللّيلة شبيهة باللّيالي السّابقة، بما يكتنِفُها من المخاوف والأسئلة التي لا جواب عنها. لقد دَقَّت السّاعةُ للتَّوّ ثلاثَ مرّات، ولا تزال أُوتْلا كافكا تبحث عن النّوم.

منذ الصّباح كانت تأمل سماعَ أنْباء تأتي من كيرلينج، أو التوصّل برسالة من فرانتس، أو مُخابرة من روبير، أو من دورا، أو حتى من الدكتور هوفمان. ولكن أقبل المساء ولم يصلْها أيُّ نبأ.

في تلك اللّيلة، رأت شقيقَها في الخيال مُشرفاً على الموت، لا حراك به على سريره. هل كان حُلْماً، حُلْماً سيِّئاً، كما يتراءى لها هذه الأيام. صورةُ فرانتس هذه تستبدُّ بها. تكَوَّمَتْ على نفسها، ولَفَّتْ عُنُقَها في لِحاف الرّيش، وأخذتْ نَفَساً عميقاً، وزَفَرَتْ بعُمق، ثمّ همستْ: «فرانتس حَيٌّ وبصِحَّة جيّدة».

أجهدت نفسَها كي تتوقّف عن التّفكير، وعن الحركة، وعن سَماع دقّات السّاعة، وصَمَّتْ أُذُنيْها عن جَلَبَة الشّارع، والتوقّف عن رُؤية ظِلِّ السّتارة المُتَوَعِّد يتراقص على الحائط، وألّا تدَعَ للخوف سُلطاناً عليها. أليس الِاعتقاد بالهواجس سخيفاً مثل الِاعتقاد بالغوليم[1]؟ المساءُ يُحوِّل أدْنى توجُّس إلى ذُعْر. وفي الصباح، كما في كلّ مرّة، سيتبيّن أنّها تركتْ قلقَها النّفسيّ يأخذُها بالخديعة والإساءة. وستبدو أوْجالُها كالعادة ثمرةَ خيالها الوحيدةَ، وثمرةَ حُبِّها بوصفها أُخْتاً، وهو حُبٌّ أعظم من كلّ ضُروب الحُبّ. وما أسْرَع ما ستتبدَّد أوْجالُها في ضوْء النّهار كالسرعة التي يكْسِفُ بِها الفجرُ النُّجومَ. لكن ما أشَدّ ما تلوحُ تباشيرُ الفجْرِ بعيدةً جدّاً، إذْ يُباعِد بينها وبين النّهار عددٌ هائلٌ من الأوْهام.

ترفع رأسَها، وتترك نظرتَها تنْسابُ في الغَبَش، وتتوقّف عند اللّوحة المُثْبَتة على الحائط المقابل للسّرير، وتأخذ في تأمّل اسْتنْساخِ أُفولِ الشمس في براغ، ثمّ تُصَوِّبُ بصرها صوب الإطار المصنوع من زُجاج مورانو، الذي كانت تُنيرُه مصابيحُ الشارع من خلال النّافذة. لكن لا شيء، بل حتى الأثاثُ الكبيرُ ذو الجوارير المُتْرَعُ بالذّكريات لدرجة أنّه ما إنْ تلْمسَ خشبَ السّنْديان حتى تتصاعد روائحُ الطّفولة إلى مُحيّاك، لا شيء استطاع أن يُخلِّصها من الهاجس الرّهيب الذي يهجس في دخيلة نفسِها، وحاصله أنّ مُصيبةً ما ستُصيب فرانتس، وهو على بُعد مسافة أربعمائة كيلومتر من هُنا.

ربّما يكفي أن تنتظر حتى تنقشع السَّحابةُ، ويؤول هذا الإنْهاكُ الذي

(1) ـ الغوليم في الثقافة اليهودية، كائنٌ مصنوع من الطّين، يُشبه الإنسانَ بشكل عامّ، صُنِعَ لمساعدة خالقه أو حمايته.

يدفعُها إليه هذا الصّراعُ ضدّ نفسِها، إلى أن يُسْلِمَها إلى نوْمٍ عميق مثلما يستسْلِم مَنْ يَعْدمُ القُدرةَ الكافيةَ على المُقاومة. حتّى لو كانَ ذلك النّومُ، كما هو الحال في كلّ ليلة منذ تدهوُر صحّة فرانتس؛ نوماً لا يَرْأَبُ شيئاً، ويُبْقي حُزنَ المساء على حاله، حُزناً تبدو منه في الصّباح الباكر وهي في إرْهاق مُماثِلٍ لإرْهاق اليوم الفارط.

إنّها تستنشق وتزْفَر بإسْهاب، ومع مرور الدقائق تتضاءل طقْطقَةُ صُدْغَيْها، وينْحسِر قلقُها. لقد انقشعت السّحابةُ، وشقيقي لا يزال على قيْد الحياة، كما تأمل. تُسْبِلُ جفنيْها وتُرْخي ذراعيْها على امتداد جسدها، وتنتظرُ النّومَ ليأخُذَها.

تكتكةُ السّاعة تُسْمِعُ أصواتَ الثّواني.

قبل بضعة أشهر، وعند أوْبَتِه إلى شُقّة العائلة، بعد مُقامه الطّويل في برلين، كان فرانتس قد أوْضَح لها أنّ ضجيج السّاعة كان يمنعه من النّوم.

أشارت عليه قائلة: «حاول ألّا تسمعه».

انطلق مُقَهْقِهاً قبل أنْ ترُجَّه نوبةُ سُعال لم تكن قد سمعت بمثلها من قبل، وبعد بضع ثوانٍ طويلة توقّف السُّعال. ثمّ وقَع نظرُهما معاً على بُقعة الدّم في أسفل منديله. تمتم فرانتس بصوت هادئ ومتأسّف، وبنبرة اعتذار، أنّ الأمر لم يكن خطيراً، لا شيء على الإطلاق، وليس هناك ما يدعو إلى القلق. إنّ الإقامة في ألمانيا في ظلّ برْدِ شتاءِ برلين الرّهيبِ، والبؤس الذي اكتنف عام 1923، قد فاقما المرضَ. كانت حتى اليوم تشعُرُ بالذّنب لأنّها حثَّتْه على الرّحيل. كان ينبغي لها أن تقول لا، هذا ليس معقولاً. اِبْقَ هُنا معنا، من أجل صحّتك، ومن أجلك أنت، وإذا

لم يكن من أجلك أنت، فابْقَ من أجلي. كان عليه أنْ يُصْغي إليها، كان دائماً يُصغي إليها، لقد كانت الوحيدةَ التي كان يأخذ بنصائحها. لكنّها كالعادة آثَرَتْ أنْ تُدافع عنه، وتُوَطِّد عَزمَه على مُبارحة براغ. فمنذ أن أعرب فرانتس عن عزْمه على الرّحيل؛ اعترضتْ على أبيها مرّة أُخرى، وعلى نحو خاطئ هذه المرّة، عندما عَدَّ الأبُ هذه الرّحلةَ جنوناً صِرْفاً؛ «أن يذهب هذا الفَتى للعيْش في برلين، في حين أنّه بالكاد يستطيع عُبورَ جسر تشارلز!». لقد كان والدُها على حقّ، وكان عليها أنْ تُقِرَّ بذلك. لقد هَزَمَتْ برلينُ قُوى الفتى، كان وزنه في نهاية مُقامه بها خمسين كيلوغراماً. ها هو مرّة أخرى على عتبة الباب، عند أوْبته إلى براغ في أبريل، مهْزوماً، مَهْزولَ الملامح، نحافته مُرعبة، وشُحوبُه شديدٌ، جُثَّةٌ تمشي. كان والده قد تعمّد إلْقاءَ التّحية من بُعْد، لكنّها لم تُفْلِح إلّا بشكل ناقص في إبْقاء مدى ذُعْرِه. أمّا الأمُّ فقد ضمَّتْ ابنَها بين ذراعيْها طويلاً، ولم تتوقّف الدّموع عن الاِنْحدار على خدّيْها. لقد حان دورُها لتُعانق شُجَيْرَةَ العظام الهشّة، التي كانت تخشى أن تتهشّم إذا ضَمَّتْها بشدّة. تلك الشُّجيرةُ الهشَّةُ من العظام متدثِّرةٌ بمعطفها الصوفي على الرغم من اعتدال النّهار، والذي كان قد أوْحى عندئذ كما لو أنّه قد أدْرك للتّو فقط ما يُمكن أن يكون باعثاً على القلق في شأن حالته:

ـ لا تتوهّموا صورةً مُخيفةً عن صحّتي، هذا الصباح، مثلاً، لن تتجاوز حرارتي ثماني وثلاثين درجة.

أردف الأبُ:

ـ بماذا يوصيك هؤلاء الأطبّاءُ السَّيِّئون للحدّ من الحُمّى؟

ـ في الوقت الحالي، وصفوا لي فقط العلاج بالاِسْتنْشاق، لكنّي أُواصل رفْضَ حُقَنِ الزّرنيخ.

ـ إذا أوصاك الأطّبّاءُ بذلك، فلماذا ترفضه بحقّ الجحيم!كان الفتى يبتسم ابتسامة تشي بالحرج الذي بدا وكأنّه ينْشُدُ الرّأفةَ. وما هي إلّا أيام قليلة حتى نُقِل إلى المشفى على نحو عاجل في قسم البروفسور هاجيك بفيينّا، المتخصّص في الحالات اليائسة.

لقد انقلبت حياةُ الأسرة بأكملها رأساً على عقب، قبل سبْع سنوات، في تلك اللّيلة المشؤومة من أغسطس عام 1917، عندما صحا الفتى وهو يبصق دماً. لقد وقعت الواقعةُ بينما كانت الحياة تبدو أنّها تبتسم له أخيراً. في سنّ السادسة والثلاثين استطاع أن يُغادر شقّة العائلة. كان قد وُفِّق، لِقاء مُماطلات لا تنتهي، إلى استئجار الشّقّة الصغيرة التي وجدتْها له في صرْح شونبورن. وفي الوقت ذاته تقريباً كان قد عقد خطبته على فيليس، وكانت تتضرّع أن تكون هذه المرّة الثانيةُ مُوَفَّقَةً، حتى لو لم تكن قد آمنتْ بصِدْق هذا الاِقْتران. كان الفتى يمُرُّ بانتقاله المتأخّر إلى طوْرِ رجُلٍ. لقد أَرْضى كلَّ الإِرْضاء مكتبَ التّأمينات، وغَمَرَتْه بالرِّضا إقامتُه في هذه الشُّقّة الصغيرة المُؤلَّفة من غُرفتيْن، وهي أوّل بيْتٍ حقيقيٍ له. كان يبْدو أكثر سعادة مِمّا كان عليه في شقّة لا نْجيجاسي، التي كان يمقتها دائماً، أو حتى من بيت الدُّمية في ألكيميستينجاسي. كان يقول إنّه يعشق التنزُّه مساءً في الزّقاق الهادئ، وسَماعِ وقْعِ خُطاه في الثّلْج، ومواصلة السّيْر صوْب القلعة.

ولكن بعد ستّة أشهر من هذه السّعادة البسيطة، في هذه الشّقّة المتواضعة في قصْر شونبرون، نزل بمنزلها ذات صباح، شاحِباً وغيرَ قادرٍ على النُّطق بكلمة واحدة.

سألتْه:

ـ أثمّة شيءٌ ليس على ما يُرام؟ أهي فيليس؟... أم لعلّه مكتب التّأمينات؟ لكنّ الأمر لم يكن يتعلّق لا بمكتب التّأمينات، ولا بفيليس.

ـ وبِمَ يتعلّق إذن؟ تستطيع إخْطاري به، يا فرانتس، يُمكنُني سماعُ كلِّ شيء..عندئذ، وكما لو كان يشعُر بالخجل قليلاً، اعترف لأُخته أنّه بصَق دَماً.

أمّا الآن فقد أمْسى فرانتس في كيرلينج منذ بضعة أيام. كيرلينج بعد فيينّا والقِسْم الرّهيب الذي يُديره البروفسور هاجيك. إلى أيْن سيقودنا كلُّ هذا؟ أنْفقت الصّبيحةَ تترصّد من خلال النّافذة قُدومَ ساعي البريد. يعود تاريخ الرسالة الأخيرة إلى الأسبوع الماضي. عند استلامها، رقصتْ هي وشقيقاتُها، ناتي وإيلي على مرأى من أُمّها الجَذْلى جَذَلاً تعروه حماسة كبيرة كما لو كُنّ قد أُبْلِغْن بعودة الابن الضّالّ. ثم تشاركْن في القراءة، كما لو كانت كلُّ كلمة تعْويذَةً تُتْلَى لِدَرْءِ مكْروه. تكاد تحفظ هذه الرسالة عن ظهر قلب بعد أن قرأتها وأعادت قراءتَها. لكن الأمَل، في هذه اللحظة، يحدوها في أن تعثُر بين السُّطور على نبأ سيكون قد فاتها في قراءتها السابقة، شيئاً مُطَمْئِناً، يُخَفِّف من قلقها. تُوقِد النّورَ وتفتح درجَ الخزانة التي تُحْفَظُ فيها رسائلُ كيرلينج، تسْحَبُ تلك الموجودةَ أعلى الحُزْمَة. وتبدأ في القراءة. تهمس بكلّ جملة مثلما يُقيم المرءُ صلواته.

كيرلينج

إلى والديّ الغاليْين

أفكّر كلّ يوم في شأن الزيارة المرتقبة التي تتحدّثان عنها أحياناً، لأنّها

مهمّة جدّاً بالنسبة إلي، سيكون ذلك حدثاً جميلاً للغاية. لقد مضى وقتٌ طويل لم نكن فيه معاً. أنْ نكون بسلام مرّة أخرى لبضعة أيام معاً في قُطْر بمفردنا، ثمّ نحتسي كأساً جيّدةً من البيرة معاً. في الواقع، أُفكّر الآن في الأمر كثيراً، في أثناء الطّقس الحارّ كُنّا نحتسي البيرة بانتظام منذ أعوام عديدة عندما أخذني أبي إلى مدرسة السّباحة المدنية. كلُّ هذا وأُمورٌ أخرى كثيرةٌ تنطق لصالح زيارتكما، بيْد أنّ هناك أسباباً كثيرة تقف ضدّها. أوّلُها أنّ الأب ربّما لن يتمكّن من الحُضور بسبب صُعوبة الحُصول على جواز السّفر، لا سيّما أُمّي، فمنظري ليس بالحَسَن بعد، والأمر لا يستحقّ تجشُّمَ عَناء رُؤيتي إطلاقاً. فأنتما تعرفان الصّعابَ التي جابهْتُها في أيّامي الأولى هُنا وفي فيينّا. لقد حطّمتْني إلى حدّ ما، ومنعت الإِنْخفاضَ السّريعَ في الحُمّى، مِمّا ساهم في إضْعافي أكثر. كما أنّ داء الحُنجرة السُّلّي قد أوْهَنَني أكثر مِمّا ينبغي أن يفعله على نحو موضوعيّ.

الآن، فقط بمساعدة دورا وروبير، بدأتُ أُشْفى من كلّ هذا الوَهَن، فماذا سأكون من دونهما؟ إنها مساعدة يتعذّر تماماً تخيُّلُها من بعيد. لكنّي ما زلت أُعاني الآن بعضَ الاِضطرابات، وعلى الرغم من الطّعام الجيّد الذي نتناوله هُنا، والعلاج في الهواء الطّلق الذي أقوم به كلّ يوم تقريباً؛ إلّا أنّني لم أَتعافَ حقّاً بعد. ولستُ حتى في حالة جيّدة كما كنت عليه مؤخراً في براغ، وإذا أضفْتُما إلى ذلك أنّني لا أستطيع التحدُّثَ إلّا هَمْساً، ولكن ليس في الكثير من الأحيان؛ فسوف ترغبان في إرْجاء زيارتكما.

بَيْدَ أنّ كلّ شيء يَعِدُ بالأفْضل. لاحظَ البروفسور تحسُّناً ملْحوظاً في الحُنجرة. لذا؛ أيّها الأبوان العزيزان، ألا يجْدُر بكما أن تَعْدِلا عن الزيارة في الوقت الرّاهن؟ وفضلاً عن زيارة الأطبّاء المتخصّصين بين الفينة

والأخرى؛ فإنّ روبير لا يُفارقُني لحظة واحدة، ويهتّم بي بكلّ ما أوتي من قُوّة بدلاً من أن يهتّم بامتحاناته.

مع مودّتي

ف.

تردّد لنفسها: «كلُّ شيء يَعِدُ بالأفضل»، فتشعُر بالاِرتياح. كانت مُتوجِّسَة بلا سبب، إنّها تُمسك بين يديْها الدّليلَ على أنّ فرانتس يتحسّن. طَبَعَتْ قُبْلةً على الورقة، كما فعلت من قبل عندما كانت تُقبِّل جبينَ شقيقها لمّا كان يُعاني الحُمّى. وضعت الرسالةَ على الحُزمة، ستستطيع النّوم، وغَداً لن تكون هواجسُها أكثرَ من مجرّد ذِكْرى سيِّئةٍ ويسيرة.

روبير

قالت الرّاهبة حَنَّة وهي قلقة:

ـ يا دكتور كلوبتسوك، إنّها بالفعل الجرعةُ الثانية من المورفين، والأولى أُخِذَتْ عند الساعة التاسعة صباحاً.

قال بأهْدَأ نبْرةٍ صوْتٍ مُمكنة:

ـ أعرف ذلك. ألْقى نظرة آليةً على ساعته، التي تُشير إلى الساعة الحادية عشرة، ودفع مرّة أُخرى المِحْقَنَةَ بحركة بطيئة، وعيناه تُحدِّقان في الوريد الذي يبرُز تحت الضّغط، من ظاهِر الذّراع شديدِة النُّحول قبل أن تختفي وسط شبكةٍ من الأوْعِية المُزْرَقَّة.

يحرص على انْسياب مُحتوى محْلول الحَقْن انْسياباً كامِلاً، ويتفرَّسُ في وجه صديقه المُمَدَّد أمامه، مذْعوراً من شُحوبه، ومن شفتيْه اللّتيْن ترتجفان من الحُمّى، ومحْجِريْه الغائريْن، وبشَرَته المُمْتَقِعَة الشّبيهة بتلك الجُثث التي شَرَّح لحْمَها قبل بضعة أسابيع فقط في مشْفى بودابست المركزي.

ببُطْءٍ تتبَدَّدُ تكْشيرةُ الألم، وتسْترْخي قسماتُ وجْهِ الكاتب، وينْفتحُ جفْناه، ويفْعَلُ المورفين فعلَه، ويخال أنّه يرى في وُضوح النّظرة المُفاجئة بصيصاً من الاِمْتِنان. لكنّ البريقَ يتوارى، والجفْنَيْن ينْسَدِلان.

قالت الرّاهبة حَنّة مُطَمْئِنَةً: «الدَّواء يعملَ عملَه».

منذ قُدومه إلى كيرلينج تُصِرُّ على مُناداته بالدكتور، على الرغم من توضيحاته المتكرّرة، فهو لم يتخرّج بعد، ولم يقُم إلّا بتعليق دراسته الطّبّية ليظلّ إلى جانب صديقه في محنة المرض، ويسْعى ـ حتى لو كان ذلك على أساس خِبْرةٍ محدودة ـ إلى التّخفيف من وطْأة زَحْفِ الدّاء.

ـ هل تودّون، يا دكتور أنْ أقيس الحرارة؟ ـ وما نفْعُ ذلك؟

ثمّ أَوْمَأ برأسه أنْ لا.

الوجه شاحِبٌ على نحو فظيع، لكنّ الشَّعَر احتفظ بِبَهائِه. منذ ساعة مَضَتْ، كانت دورا لا تزال تمْشطُ الشَّعَر الكَثَّ البُنِّيَ، بالطّاقة نفسها، كما لو كانت تمشط شَعَر طفْل قبل أن يذهب إلى المدرسة. وبعد ذلك اقتنعت الشّابّةُ أخيراً بمغادرة المكان، وارْتَضَتْ بَعْثَ رِسالةٍ من قرية كْلوستيرنوبورج.

قالت الرّاهبة حنّة بصوتها العذْب والواضح:

ـ ينبغي لك أن ترتاح، فأنت تكْلَؤه برعايتك منذ الأمس، لا بُدّ أن تكون مُنْهَكاً. قبِل بالجلوس. إنّه يعلم أنّها النّهايةُ، نِهايةُ هذا الرّجل، صديقِه، وأخيه، ومُعَلِّمِه، ونهاية مُغامرةٍ لن يخوض غِمارَها مرّة أخرى، مُغامرةٍ قادتْه نحو كائنٍ لن يلتقي به مرّة أُخرى، كائنٍ نادِرٍ، يتمتّع بإنسانية وذكاءٍ لا مثيل لهما، والذي كانت حياتُه قد عَثَرَتْ على مَعْنى لها بفضل مُلاقاته، منذ ثلاث سنوات وسط جبال تاتْرا العالية.

بعد عودته من ماتلياري، استأنف دراستَه الطّبَّ في بودابست، غير أنّ علاقتهما استمرّت من خلال مُراسلات طويلة وغنِيّة. كان قد لَقِي الكاتبَ ثانية في برلين، في أثناء الشّتاء الأخير، لقد أمْضَيا بضعةَ أيّام معاً، بجانب

دورا التي كان يعيش معها، وبَدا سعيداً في هذه المدينة بصُحبتها، وسط هذا البُؤس المُدْقِع، وصقيع الشّتاء. لقد رآه مرّة أخرى في براغ، في منزله، خلال فصل الرّبيع، منذ بضعة أسابيع فقط، وقد تغّيرتْ هيْئتُه، وأمْسى عاجزاً عن القيام من سريره، صوته مخنوق، لا يقْتاتُ إلّا بالفاكهة، وهي طعامه الوحيد الذي يسمح حلقُه المُلتهِبُ بابتلاعه. وعندما عاد إلى بودابست، تلّقى بطاقةً بريدية يتذكّر عباراتها السَّديدة:

عزيزي روبير

نُقِلْتُ إلى المصحّة الجامعية للبروفسور الدكتور السّيد هاجيك بفيينّا 9، 14 لازاريتغاس. في الواقع، إنّ حُنجرتي منتفخة جدّاً لدرجة أنّني لا أستطيع تناول الطّعام. ومن الضروري (كما يقولون) أخذ حُقَنِ الكُحول في العصب، وربّما أيضا إجْراء عملية بَتْرٍ. ولذلك، سأبقى بضعة أيام في فيينّا.

مع أطيب التّحيات.

ف.

أنا خائف من كودايينِك، فاليوم لم أُنْهِ القارورةَ الصّغيرةَ فحسب، بل إنّني لا أتناول إلّا الكودايين من عيار0,03. لقد سألتُ الممرّضةَ للتّوّ: «كيف يبدو شكْلُ حلْقي؟»، فأجابتْ بصراحة: «مثل مِرْجَلِ السّاحرة».

لقد استقلّ أوّل قطار ذاهب إلى فيينّا للاِنْضمام إلى دورا وبرود للسَّهَر على صديقه والعناية به. كانت القاعةُ التي نُقِلَ إليها فرانتس في المشْفى عبارة عن مأوى للمُحْتَضَرين، حيث يُعْثَرُ فيها كلَّ صباح على سريرٍ فارغٍ من شاغِلِه عشيةَ اليوم السّابق. وبما أنّ الدكتور بريك، وهو قُطْبٌ من أقطاب

العِلْم في فيينّا، قد خَلُص بعد فحْص شاملٍ إلى خُلاصات نهائيةٍ في شأن فُرَصِ التّحسُّن، فقد اتّخذ هو بنفسه قراراً بإخراج الكاتب من المشْفى. وبَّخه البروفسور هاجيك قائلاً: «إنّكم تقترفون خطأً جسيماً! ألَمْ يُعَلِّمْك أساتذتُك ماذا يعْني غَزْوُ الدّاءِ للحلْق؟»، لم يكن يُبالي إذا اقترف خطأً، كان يدْري جيّداً أنّ انتشار داء السُّلّ في الحنجرة يعْني الموتَ اختناقاً. لكن كان لا بُدّ له أنْ ينتَشِل صديقَه من يَدَيْ هذا الإختصاصي، ومن ممرّضته الرّئيسة. برَّرَ صنيعَه قائلاً: «نُفضّل أن نذهب به إلى مكان أكثر هدوءاً». ولمّا شعر البروفسور بأنّ كبرياءَه قد خُدِش؛ أوضح بأنّه لا يسْتَبْقي أحداً، وليس في حاجة إلى أنْ يتباهى أمام أيِّ أحَدٍ بمزايا قِسْمِه. كانت مصحّته تستقبل الحالات الحرجةَ، والحالات بالغة الخطورة، التي يُحيلُها إليه جميعُ زُملائه أطبّاء الرّئة من النّمسا ومن أماكن أخرى. وما إن يجتاز المريضُ بابَ هذا القسم حتى يُجابه نهايةً فظيعةً، في أقْصر الآجال الممكنة، من دون مساعدة طبّية حقيقية. واخْتتم هاجيك كلامَه: «لكنّك تعرف كُلَّ ذلك أيُّها الشّابُّ. هَيّا، الزّيارة الكُبرى للقسم تنتظرُني. إذا بَلَغْتَ كيرلينج، فَبَلِّغْ سلامي إلى الدكتور هوفمان، وتحياتي إلى السّيّد كافكا الذي يبدو من الواضح أنّه لن تُتاح لي فُرصة مُلاقاته مرّة أخرى».

لقد غادروا المكان الملْعون لمَراجِل السّاحرات، مُتّجهين صوب مصحّة كيرلينج السّاكنة والهادئة، على بعد بضع عشرات كيلومترات من فيينّا.

يتأمّل الجسدَ المُمَدَّدَ أمامه، والوجهَ حيث ترسُمُ الظِّلالُ ما يُشبه الصُّدوعَ الكبيرة. سوف تُفارقُ روحُ كافكا هذا الجسدَ قريباً، وإلّا فليس هناك روحٌ تظلّ لابِثَةً، لا شيء من قبل، ولا شيء من بعد، الحياةُ

محَطَّةٌ هائلةٌ وموحِشَةٌ يلْتقي فيها أشخاصٌ تحدوهم آمالٌ سخيفةٌ، ولا ينتظرون إلّا قطارات لن تأتيَ أبداً. لا شيء يصْحَبُ أو يتقدّمُ أو يتْبَعُ تذَمُّرَ نُفوسِنا المُعَذَّبةِ، وحُبِّنا وآلامِنا. لن يُنير أحدٌ ألْغازَ حيواتنا، ورغبتَنا السّفيهةَ، وذاكرتَنا المسْكونَة بالأرواح، لن يستجيب أحدٌ لصلواتنا، ولن يستطيع أحدٌ أنْ يُكَفِّر عن خطايانا. أنت خُلِقْتَ من تُرابٍ، وإلى التُّراب ستعود.

لاحظَ أنّ الرّاهبة حنّة مُنشغِلةٌ بالرّجل المُحْتَضَر، تُبَلِّلُ شفتيْه، وتُضَمِّدُ جبينَه الشّاحبَ بكمادات عديمة النّفْع، وتُرتِّل كلمات المُواساة. تشَنُّجٌ يَرُجُّ الكتفيْن الواهِيَيْن، والجِذْعَ النَّحيلَ بالحركة المُرْعِبَة نفسِها، يبدو أنّ المُحَيّا البَهِيَّ يُصارعُ الموتَ.

أشاح بنظره فوقع بصرُه على قُصاصاتٍ من الصّفحات المكتوبة بخطّ اليد، الموضوعة على طاولة السّرير، وهي الأوراق التي نصحوا الكاتبَ، كيْلا يُرْهِق حلقَه، أنْ يكتب عليها عندما يحتاج إلى التّعبير عن غَرَض ما. أمسك ورقةً فقرأ:

«حتّى لو شُفِيَ الحلقُ في نهاية المطاف، فإنّ الأمر سيستغرق سنوات وسيحتاج إلى وقْت أطول كيما أتمكّن من تناول الطّعام من دون آلامٍ، وسامحْني على هذه العادة المستهجنَة المُقْرفة في طرْح السُّؤال، لكنّك طبيبي، أليس كذلك؟».

واصل قراءتَه، والتقط بعض الأوراق مصادفة:

«القليل من الماء من فضلكم، فهذه الحُبوبُ تبقى عالِقَةً في الغشاء المخاطي مثل شظايا الزُّجاج».

«ولن أستطيع حتّى الحفاظَ على نمطي الغذائي الحالي لفترة طويلة من جرّاء الآلام والسُّعال».

«زهْرُ اللّيْلَك رائعٌ، أليس كذلك؟ يرْتوي وهو يموت فيسكر مرّة أخرى».

«مَن الذي هاتف؟ ألَمْ يكُنْ هو ماكس؟».

أمّا الصفحة التالية فتُذَكِّرُ بالإقامة في مصحّة البروفسور هاجيك:

«إنّهم قتلوا الرّجلَ الذي كان بجانبي، أيّاً يكُن المساعد الذي يذهب لرؤيته، فما إنْ يدخل حتى يخرج، من دون أن يسأل عن أيِّ شيءٍ. تركوه يتجوّل وهو مُصاب بالتهابٍ رِئوِي وبحرارةٍ تبلغ درجتَها 41».

ثمّ يُواصل:

«أيّما ضَرَر أُلْحِقه بك، فهذا من قبيل الجنون

الأمر الأسوأ هو أنّني لا أستطيع حتى الحُصول على كوب من الماء، والمرءُ أيضاً يقْتاتُ قليلاً بأُمنيته.

لهذا السّبب نحن نُحِبّ اليعاسيب.

أين الرّبيعُ الخالِدُ؟».

قرأ الكلمة الأخيرة المُوجَّهَةَ في اليوم السّابق إلى دورا:

«ضَعي يدَكِ على جبيني لوهْلَة كيْ تُقوّي عزيمَتي».

فجأة صاحت الرّاهبة حنّة وهي تستدبر نحوه: «أعتقد أنّه يودُّ التحدُّث معكم!».

قام روبير ودنا من السّرير، وأرهف السّمْعَ إلى صديقه: ـ لماذا تُطيلُ نهايتي؟أحسّ بضغط يده تُمْسِك بكمّه..

ـ لقد وعدْتَني بها دائماً مدّة أربع سنوات، أنت تُعذِّبُني، لقد عذّبْتَني دائماً، لن أتحدّث إليك بعد الآن، سأموت على أيّ حال.

لم يعد يستطيع العُثورَ على كلماته، قلبه يضرب بشدّة، وحلْقُه ينْعَقِد: ـ أنت تغشُّ، لقد أعطيْتني ترياقاً! يُتابع كافكا مُتوسِّلاً بنظره حَقْنَ جُرعةٍ جديدةٍ من المورفين، قبل أنْ يرْمِيَ بكلماته الأخيرة، وقد بدا أنّه اسْتجْمع قُواه: ـ اقْتُلْني يا روبير، وإلّا فأنتَ قاتلٌ!

دورا

يا حبيبي، ويا حَناني، سامِحْني إذا تركتُكَ لحظةً، فخلال ساعة على الأكثر سأكون بجانبك. لقد أَبْدَت الرّاهبةُ حنّة إصْراراً، وانتهى بي الأمرُ إلى قَبول اقتراحها بإرْسال الرّسالة المكتوبة بالأمس إلى والديْك. قالت: «فكِّري في عائلته التي تذوب شوقاً إليه، ماذا تنتظرين؟ هَيّا، اذْهَبي!». إنّ الراهبة حنّة على حقّ، فالكتابات التي كتبتَها بيدك كُتِبَتْ لِتُقرأ.

سامحْني يا حبيبي! خُطاي تنْحو نحو مكتب البريد، لكنّ روحي تظلّ ثاوِيَة بجانبك دائماً، وإذا رضيتُ بهذه الفكرة الخرْقاء المتمثّلة في الإضْطرار إلى تَرْك يدكَ لوهلة واحدة؛ فذلك لأنّي خِلْتُ أنّك كنتَ مُوافِقاً. هل كنتُ مخطئة في تأويل إشارة بطَرف العيْن على أنّها مُوافقة؟ يا حبيبي، ويا ملك الملوك، أليس لك أيضا الحقُّ في الطّمأنينة؟

كان روبير أيضاً يُناشدُني بمُبارحة الغرفة، فالرسالة لا بُدّ لها أنْ تُرسَل. كلّ شيء كان على ما يُرام، المورفين يفعل فعله، ومعاناتك تزول، وحلقُك لم يعُد يلتهب، وعليّ أن أتركك. «ولكن ماذا تنتظرين إذا كان مكتب البريد سيُغلَق!»، صرخت الرّاهبة حنّة التي لم أسمعْها أبداً ترفع صوتَها حتى ذلك الحين.

يا حبيبي، ويا وجعي، أنا مذعورة بلا سبب، فما العلّة التي تحملُني على

الإِبتعاد عنك؟ كلوسترنوبورغ جميلة جداً في هذا الصباح الرّبيعي، كلّ شيء هادئ وساكن، وكلّ شيء مُتْرَعُ بالنّور.

لو لم تكن مُمَدَّداً، مُسْبَلَ الجفنيْن، شاحِباً كالكَفَن، مُكابِداً آلاماً كبيرة؛ لكنتُ أمشي جَذْلى وسط الأزقّة ورسالتك في يدي أنحو بها نحو مكتب البريد. ومن ثَمَّ أليست الراهبة حنّة وروبير على حقّ؟ فوالداك قد ينتابهما القلقُ عندما لا تصلهما أخبارُك، فمن يدْري ما قد يتخيّله والداك القلقان عليك؟ عندما أكون أُمّاً لطفلك؛ سأموت من القلق عند كلّ خُطوة يخطوها، حتى لو مشى مشية مستقيمة، سأموت من القلق، يا حبيبي، ويا أَلَمي الكبير. أُريد أن أموت قلقاً في كل يوم يحُلّ حتى يأتي الإِبْن، إنّها أُمنيتي الغالية، أن أموت من القلق.

أمشي على مضض في شوارع كلوسترنوبورغ، ولكن في يوم ما قريبٍ، سنسير معاً في شوارع براغ، وسنذهب في ذلك اليوم لمُلاقاة والديْك، وأخالُ أنّهما مستعدّان لذلك، وستكون أُمُّك مبتهجة، وأنا موقِنَةٌ من أنّ أباك ليس طاغيةً مثلما تزعم، لعلّه في كبريائه الهائل، وعُنفه المجنون، مجرّد ملاكي الذي يرْعاني. هل ندْري فقط ما يستطيع الآباءُ فعلَه؟ لقد فتّش عنّي أبي في جميع أنحاء بولندا عندما هربتُ من منزله.

ذات يوم، سنمشي في براغ يداً بيَدٍ، سأرتدي الفستانَ الذي اشتريناه في برلين من هذا الخيّاط، ماذا كان اسمه؟ فريدمان أم إيرلبمان؟ ما عُدْتُ أدْري، لا أُميّز بين الأسماء عندما يضيع رُشْدي.

ستصل الرّسالةُ بعد غد، بلا شكّ. لا أعرف لماذا حدث مثل هذا الاِستعْجال لمُفارقتك. عندما تكون هناك حالة طارئة؛ نبعث برقيةً. أَكْرَه كلوسترنوبورغ بقدْر ما أكْرَه فيينّا، وأكْرَه الرّاهبةَ حنّة التي تُبْعِدُني عنك.

سأسير في براغ يوماً ما، متأبّطة ذراعك. أميرةُ براغ وأميرُها العَشير. سنعبرُ المدينة، وهذا اليوم قريبٌ، نجتاز جسرَ تشارلز وشارع كارلوفا. سنسلك الطريق المؤدي إلى الكنيس، حيث سينتظرني أبوك ليصحبني تحت المظلّة. وعلى مسمع من صيْحات الإبتهاج و (*مازل توف*[1])، وصرخات الهتاف والحماسة، سنكْسِر الزُّجاجَ تحت أقدامنا، رمْزِ المُصيبة الألفية، لأنّ كلّ المصائب لها نهاية، مصيبة النّزوح ومُصيبتُك أنتَ.

لقد قلتَ لي: «يمكنُني أن أنال السّعادةَ، إذا أفلحْتُ في تقويم العالَم لحمْلِه على الإنتماء إلى الحَقّ، والصَّفاء، والثّبات». لقد عزمتُ يا حبيبي على أن أبحث لك عن طبيب آخر ليجعل لك مَخْرَجاً من هذا الوضع السّيّء. روبير شابٌّ في مقتبل العُمر، وهذا الدكتور هوفمان لا يُنْبِئُني بشيءٍ ذي قيمةٍ، وأولئك الذين في فيينّا عديمو القُدرة. إنّهم يركنون إلى نحافتك، وهُزال خدَّيْك، والحُمّى التي تُصيبك، وعجزك عن الأكل أو الشُّرب، وأنّ حلقَك يَلْذَعُك ويخنقُك. يقولون: «اثنان وأربعون كيلوغراماً لطولٍ يبلُغ متْراً وثمانين، أين تُريدون أنْ يستعيد قُواه؟». كلّهم يُفكّرون بالطريقة نفسها، لقد اعترفوا بإخفاقهم. يقول الواحد منهم شيئاً، فيقوم الآخرُ بترديده. يقول أحدُهم إنّ الدّاء غَزا الحُنجرة، فيُردِّد الآخرُ في عِيٍّ: «إنّ الدّاء غَزا الحُنجرة». ما نفْعُ الشّهادات، والسنوات العديدة التي تُنْفَقُ في الدّراسات، إذا كان الأمر يعْني أنّه لم يعُد ثمّة شيءٌ للقيام به؟ وما الفائدة إذن من كونك خَيرَ مُتخصِّصٍ إذا كنتَ لا تعرف كيف تَشْفي خيرَ رَجُلٍ؟ لقد اسْتنْفدْنا مُدَّخراتنا حتى يتكرَّم الدكتور المَهيبُ بيك بوضْع سمّاعته عليك. ماذا وجد ليقول: «هناك عمليةُ

(1) ـ مازل توف: عبارة تُستخدَم عند اليهود اليديش للتعبير عن التهاني في مناسبة سعيدة أو حدث كبير.

تفكُّكٍ دَرَنِي تُضِرُّ جُزئياً باللّهاة». فيمَ يُفيدُنا هذا، يا حبيبي، أنْ نعرف أنّ عملية تفكّك دَرَنِي تُضِرّ جُزئيا باللّهاة! أخبرناه أنّ «غزو الدّاء للحنجرة يعني نهايةَ الحياة». هذا ليس طبيباً، بل ببّغاء، وملعونٌ أيضاً البروفسور هاجيك لعنة مُضاعَفة. آه يا حبيبي، يا لَجَمال وادي كلوسترنوبورغ، وغابة الصّنوبر يضوع أريجُها، والنّهر يجري في المنحدر جذْلانَ. يا لَلْمَشْهَد الأَخّاذ حقّاً! عمّا كُنّا نتحدّث؟ آه، نعم، الأطبّاءُ ملاعينُ! هذا الدكتور هوفمان وبيك شبيهان في النّقائص. يُوصي بزيادة جُرعات البانتوبان! هذا البانتوبان يجعلك مريضاً! هذا العملُ المُخْزي الذي يُحرمُك من الكتابة! أَلَمْ يَرَك بالأمس ما فتئتَ تُصحِّح مُسوّدات قصّتك القصيرة الأخيرة *(فنّانُ الجوع)*؟ ما أجمل العُنوان! وما أروع القصّة! شخصٌ يَعُدُّ الصّيامَ ذروةَ الفنّ، شخصٌ يؤول به الأمر إلى أن يكون عاجزاً عن ابتلاع أيِّ شيء، نحيف جداً، وضئيل جدّاً، وطفيف جداً لدرجة أنّ مُوظّفاً جَرَف جسدَه الهزيل من دون أن يشعُر بذلك. هذا الكتابُ تُحْفَةٌ!

لماذا تفرض عليّ، يا حبيبي، محنةً كهذه؟ بالأمس كنتَ تُصحّحُ نصَّك على نحو حثيث، وهذا الصباح لا حَراك لك في سرير مُعاناتك. يوشك مكتبُ البريد على الإغلاق، وينبغي لي أن أحُثَّ الخُطى.

يا حبيبي، ويا قَدَري، لا تقْلقْ، فأنا لن أستسلم. ما زلتُ لا أُريد تصديقَ الأطبّاء! أعرف أنّ بإمكان المرء أن يظلّ من دون شُربٍ أو أكْلٍ أيّاماً كاملة، بل أسابيع كاملة. أَلَمْ تكتبْ هذا في قصّتك القصيرة؟ والألم الرّهيبُ الذي يُحْرِق حلْقَك، أليس سريعَ التّأثُّر بالمورفين الذي يُجَرِّعُه إيّاك روبير؟ مِمَّ ينبغي أن نخاف؟ لقد انتصرْنا من قبل انتصاراً أقوى من الموت منذ أن اجْتَرَأْتَ على نصيحة أبيك، فأتيْتَ لتعيش معي في برلين. لم تكن تستطيع

أبداً أن تعيش مع امرأة من قبل، ولم تكن تستطيع أبداً أن تعيش بمنْأى عن براغ سابقاً. أمّا معي، فقد حقَّقْتَ المستحيل. لم تُمْض إلّا بضعةَ أيّامٍ في فييّنا مع ميلينا، وهجرتَ فيليس عندما كانت الخُطوبةُ على وشْك الحُدوث. أمّا برفقتي، فقد أنْفَقْتَ، يا حبيبي، نحْو عامٍ ملؤه السّعادةُ الخالصة في صقيع برلين وبُؤْسِها. بصحبتي، نتنزّه في ميدان ألكسندر، ونُطَوف بضفاف نهْر وانسي. أمّا مع الأُخريات فتشْهَد رُعْبَ الحياة والتَّوْقَ إلى المَمات. بجانبي تحْيا سعادةً صِرْفاً، خالية من الهُموم. وهذا ما يُريد الدكتور بيك والبروفسور هاجيك الإجْهازَ عليه؟

يا حبيبي، و يا حُزْني، عندما يلْذَعُك حلقُك، أُحسُّ في أعماقي ما يُشبه سَعيرَ النّار الذي لا قرار له يُخرّب جسدي. لهذا السّبب أبكي يا حبيبي، ويا حُزني، لِتُسْفَحَ دُموعي غِزاراً حتّى تُخمِدَ النّار في حلقك الملتهب، ولِأَغْمُرَ جبينَك، وأُبَلِّلَ شفتيْك حتى تستطيع أخيراً إلى الشُّرْب سبيلاً. أنت الذي لم تشربْ أيَّ شيءٍ منذ يوميْن. يا حبيبي، ابْذُلْ مجهوداً، أَعْلَمُ أنّ الأمر رهيبٌ، وأنّ شُرْبَ قطْرةِ ماءٍ واحدةٍ يخنُقُك ويُعذّبك، ويُضْرِمُ النّار في داخلك. وبما أنّ شُرب كوب من الماء هو أمر يتعذّر عليك، فتناولْ إذن ثمرةً من ثمار الفراولة التي أحضرَتْها لك الرّاهبةُ حنّة، ثمرة واحدة، وأعلمُ أنّ ذلك عسيرٌ عليك، عندما يصبح حلقُك سعيرَ نارٍ عند تناول نزْرٍ من الطّعام. لكن لا يُمكنك البقاءُ على قيْد الحياة من دون أيّ شيءٍ تأكله وتشربه. وها قد مضى يوْمان، والحُمّى تمحقُك، والماءُ أنت في حاجة إليه. لا تعتقدْ بسداد رأي كُلّ هؤلاء المشعوذين الذين يَعِدون بالأسوأ. لقد قاومتَ مُقاومةً جيّدة، وكافحْتَ كفاحاً كبيراً. أُصْرُخْ في وجوههم، من أعماق حلقك الملتهب، أنّ فرانتس كافكا عَثَر على الحُبّ، وأنّ فرانتس كافكا لا يُريد أنْ يموت.

أوتلا

ربّما لن يأتي ساعي البريد هذا الصباح. تُغادر مكان المراقبة الخاص بها، وتعبُر الممَرَّ، وتفتح بابَ المطبخ. يجلس والدُها إلى الطّاولة منهمكاً في قراءة صفحات *Prager Tagblatt*، نظر إليها وسألها إذا كانت تُريد أن تأكل شيئاً ما، فأجابت بلا، وشكرته. لقد جاءت بالضبط لتشرب كأساً من الماء.

«يبدو أنّكِ مُتعبة»، قال الأب.

أوْمَأَتْ برأسها أنْ لا! وملأت كأسَها.

«نِعْم الأمرُ»، أجاب الأبُ قبل أن يلتهم شطيرةَ الخُبز المطلية بالزّبدة، التي سبق أن غمسها في قهوته.

أشار بأنّ الأخبار ليست جيّدةً، وهو غارق في قراءة صحيفته مرّة أخرى. هذه الحكاية حول اتفاقية المساعدة مع فرنسا! وزير خارجيتنا يستفزّ الطائفةَ الألمانية في براغ، مِمَّ يخاف إدوراد بينيس حتى يطلب الدّعم من فرنسا ضدّ ألمانيا؟ نحن في 1924، لقد أضعفت الحربُ ألمانيا لمدّة عشرين عاماً. دعيني أُخبِرْك بما سيحدث: سوف يُندِّد ألمانُ السُّوديت وبراغ بالإِتّفاق، ويهاجمون ماسارْكي وغيره من التشيك الذين سيُعاملونهم بالمِثْل، ستزداد الكراهيةُ في البلاد، وعلى مَن ستقعُ؟

توقّف، وشخص ببصره نحوها منتظراً الرَّدَّ، ثمّ تابع:

ـ ألا تدرين على مَن سيقع هذا؟.

تمْتَمَتْ:

ـ لا يا أبي.

ـ على اليهود، طبعاً، كالعادة!.

ترك الصّمتَ يتخلّل حديثَه قبل أن ينطلق:

ـ أَلا تعتقدين أنّ كلَّ هذا لا يُبشّر بخير؟

غمْغَمَت قائلة:

ـ أنتَ على حقّ، هذا لا يُبشّر بخير.

عاد إلى قراءته بمظهر يَشِي بالإحباط كما لو كان يأْمَل في حُدوث اعتراضٍ على كلامه، الأمر الذي كان سيُتيح له الشّروعَ في الجَدَل حول اتّفاقية المساعدة المتبادلة بين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا. لكنّها كانت تسخر من اتّفاقية المساعدة المتبادلة الفرنسية ـ التشيكية، تسخر من الوزير بينيس، وتسخر من الحكومة الفرنسية، ومن الألمان والسّوديت والتشيك، بل تسخر حتّى من مصير اليهود. لا تأْبَه للسّلام إذا عَمَّ، أو للحرب إذا حلَّت، وتستخفّ برأي أبيها في العالَم، وكذلك بكُلّ الكوارث التي ستُنْبِئُ بها صفحات *Prager Tagblatt* اليومَ. في الواقع، هناك خبرٌ واحد فقط تودّ قراءَتَه، خبرٌ معروضٌ في الصفحة الأولى من الصّحيفة بأحرف بارزة:

(فرانتس كافكا على قَيْد الحياة).

«أَلا تودّين الجُلوسَ حتّى نتحدّث قليلاً؟»، أَلَحّ بنبرة لطيفة قد تُوحي بأنّه يتوسّل لحظةً من البَوْح والحميمية بين أَبٍ وابنته.

أجابت بأنّها تُريد الذّهاب لترتاح في الغُرفة.

وافق قائلاً: «كما تودّين».

ولكن قبل أن تجتاز عتبةَ المطبخ تسمع صُراخاً خلفها:

ـ هذا بسببك...!استدارت مذعورة وهي تتساءل متلعثمة عن الخطأ الذي ارتكبته..

ـ ما حدث لفرانتس! ـ مرضه؟

ـ تفاقُم مرضِه، حالته الصّحية اليوم! أنتِ مَن شجَّعْتِه على الذّهاب إلى برلين! أمّا أنا فلقد منعتُه من القيام بذلك، كنتُ أعلم أنّه كان سقيماً للغاية، تَوَلَّيْتِ الدّفاعَ عنه كالعادة، لقد تدخَّلْت ضدّي كدَأْبِك.

ـ كنتُ أسعى فقط...

ـ إلى ماذا كنت تَسْعين فقط؟ ـ إلى سعادته...

ـ آه، نعم، إلى سعادته! وهل تجدينه الآن سعيداً حيث هو؟

ـ كان مُتعلِّقاً بهذا السَّفر...

ـ آه، نعم، بالطّبع، يجب ألاّ تُناوئي أخاك السَّقيمَ. لقد جعلتُنّ، أنتِ وأُمُّك وأُخْتَاك، هذا الفَتى ضعيفاً جدّاً. لم تجرُؤْن أبداً على مُناوأَتِه. أضْحى لجِسْمِه الآن شَكْلُ غُصَيْنٍ يابِسٍ، إنّه يلتقط أدْنى مَرَضٍ يحوم حوله.

ـ داءُ السُّلّ، يا أبي!

ـ كان ينبغي أن يكون الأمرُ مَنوطاً بي...

ـ كان الأمرُ متروكاً لك! ـ. .كنتُ سأجعل منه جُلمود صخْر...

ـ مع محنة داء السُّلّ؟

ـ سأجعل منه فتىً صَلْداً، إنْساناً! مُكافِحاً، ومُحارباً!

ـ أيُّ شخصٍ استطاع احْتِمالَك هو صخرة يا أبي!

ـ أَيستطيع هو احْتِمالي؟ أوه، كنتُ أُفضّل ذلك!

كلاّ، إنّه لا يُحاول حتى احْتمالي! لقد جعلتم منه فتىً ضعيفاً ذا مزاجٍ حسّاس ومريض. طفلاً عمره خمس سنوات في إهاب شخصٍ راشدٍ!

ـ جسدٌ مريضٌ، يا أبي...

ـ لأنّكُنّ لم تُعَوِّدْنَه على الخشونة والشِّدَّة، هذا هو السّبب!

ـ لا بُدّ أن تبحث عن شخصٍ ما لتلومَه على كلّ شيء، أليس كذلك؟

ـ أسْعَى إلى إيجاد حَلٍّ!

ـ تبحث عن مُذْنِب، وليس عن حَلٍّ! لا بُدّ لك دائماً من مُذنب...

ـ أعرف هذه اللاّزمةَ المبتذَلَةَ، أنا وَحْشٌ، أعرف ذلك! لأنّي أقول الحقيقة؟

ـ أنت لا تقول الحقيقة، بل تتّهم، يا أبي..

ـ الآن سأتّهم! أوه، هذا الفتى يُشبهُكِ تماماً، إنّه عاطفي، وهذا ما صنعْتُما منه، أنتِ وأُمُّك... حسناً، مهما كان رأيك، فأنا على النّقيض من الشخص العاطفي، فنفسي تأْبى الهزيمةَ...

ـ ربّما لأنّ أحداً لم يَسْعَ إلى هزيمتك...

ترك لحظةَ صمْتٍ تسود، ثمّ أَرْدَف بعدها بلهجة حازمة:

ـ سأعود للبحث عنه!

ـ في كيرلينغ؟

ـ في كيرلينغ! سأنتشلُه من براثن هؤلاء الأطبّاء، من كلّ هؤلاء الأطبّاء غير الأكْفاء، ومن روبير كلوبتسوك أيضاً، هذه العَلَقة التي تتعلّق بأذْيال فرانتس! سأُعيد شقيقك هُنا، سيَشْفيه الدكتور مولهشتاين من مرضه.

ـ أَتدْري عَمَّ نتحدّث، يا أبي!

ـ وعندما يَبلُّ من مرضه في آخر المطاف، سأجعل منه رجُلاً! يُقالُ إنّ الأوان لم يُفُتْ بعد. سأُنشِئُ منه رجُلاً مكافحاً، قادراً على احْتمال صُروف الحياة! إنّ الأمر بسيط يتعلّق بالإرادة، ولكن من الواضح أنّ هذه الإرادة غريبةٌ عنكنّ. يبْدو أنّكنّ لا تمتلكْن حتّى مُوَرِّثة (جينَة) الإرادة...

ـ كان عليك أن تأخذ نصيبَنا منها...

ـ سأقوم... بإعْطائه دروساً في الملاكمة.

ـ لم يعد يستطيع الوقوف بعد الآن، يا أبي...

ـ سيكون قادراً! إذا اقتضى الأمر ذلك، سأجعله قادراً! سنذهب إلى نادي يواكيم كيرشير. وصدّقيني أنّه سيُصبح متيناً مثل ابن عمّه برونو في غضون ثلاثة أشهر.

ـ لم يعُد قادِراً على ابْتلاع أيِّ شيء بعد الآن، يا أبي...

ـ ووداعاً لهذه الأوقات التي يُنفِقُها مُسترْخِياً في غُرفته!

ـ يُنفِقُها في الكتابة.

ـ لن يكتب بعد اليوم سطْراً واحداً.

يُقال إنّ على المرء أنْ يبلُغ الدَّرَكَ الأسفلَ ليصْعَد مرّة أخرى. عندما يرْتَقي... سيتسلّم مسؤوليةَ المتجر، أقول لكِ، إنّه سيُصبح سَيِّد الصّناعة!

ـ فرانتس يُحْتَضَر، يا أبي...

ـ سأذهب للبحث عنه... غداً، لا، غداً يتعذّر الأمر عليّ، الخميس، نعم، الخميس صباحاً سأذهب، سيُرافقُني الدكتور مولهشتاين، وسنُعيد فرانتس. أنتِ تعرفينني، أنا لستُ من النّوع الذي يُقدّم وُعوداً فارغة! الجمعة، سينام في سريره! والأسبوع المقبل...

ـ ستبكي يا أبي.

ـ إنّ الرّجل من آل كافكا لا يبْكي!

ـ «خُذْ»، قالت وهي تُناولُه منديلَها.

شكرها وكَفْكَف دمْعَ جفنيْه المُبلّلَيْن، ثمّ غادر الغرفة وهو يُتمْتِم لنفسه: «سَيِّدُ الصّناعة...».

تابعتْ بنظرتها الرجلَ العجوز، وقد فَقَد طيْفُه المُتصَلِّبُ رونَقَه الجَبّارَ، الذي كان يُثيرُ إعجاباً كبيراً عندما كانوا أطفالاً. لقد حَفَرَتْ صُروفُ الدّهْر أخاديدَ في وجهه وأَضْوَتْ قلْبَه. أمْسى طاغيةُ البيْت الآن رجلاً عجوزاً في السّبعين من عُمره، مُنْهَكاً ومريضاً. يعيش حالياً أحْلَك أوْقات حياته، خشيةً من أنْ يبْقى على قَيْد الحياة بعد الِابْن الذي أحَبَّه وجابهَه مدّة أربعين عاماً.

ولكن ما نَفْعُ أنْ يستشيطَ المرءُ غضباً ويستأنفَ المناقشات حول عالَم الماضي المُتضارب؟ لقد خرجتْ من هذه المواجهات مهزومةً وأشدّ إحْباطاً مِمّا لو كانت قد جابهت أَلَدَّ أعْدائِها. كان يحدث أحياناً أنّها تنتصر فتُغادر الغُرفة مبتهجةً، كأنّ انتصارها الصّغير يُضارِع انتصاراً امبراطورياً يجعل منها امرأةً راشدةً، امرأة شجاعة وجدت القُوّة لِهَزْم أبيها. إنّ صَيْحات اليوم ليس لها سوى صَدى خافتٍ لمُشاجرات الأمس. إنّ الغطرسة الأبوية التي طالما أثارت غضبَ فرانتس وغضبَها هي، والتي كانت تلوح كخرقة حمراء على مرأى منهما كُلّما فتح الرّجل فمَه، والبأْس المطلق الذي لم يَكِلّا أبداً من مقارنة نفْسَيْهِما به؛ أفْسَحَ المجالَ لحالة من الضَّعْف الشّديد. على كلّ حال، لعلّ أباها على صواب في رغبته في الذّهاب إلى كيرلينغ؟ ربّما سيكون من الخيْر الاِنْضمام إلى فرانتس بَدَلاً من مكابدة اليأس والمَلالة في انتظار أخباره؟

تُغادر القاعة وتعود إلى الغرفة لتجلس أمام صِوان السُّفرة، وتُعيد فتحَ حُزمة الأوراق المنسوخة بخطّ اليد، المُرَتَّبَة في الخلف على اليمين، حُزمة من عشرات الصّفحات، تحْوي نصَّ الرّسالة الطّويلة التي نسخها ثانية شقيقُها بخطّ يده، وكتبها إلى أبيه، والتي تُحِبّ أن تقرأ منها مقطعاً بين الحين والآخر، لأنّ هذه القراءة تجعل روحَ شقيقها الهَشَّةَ، وصوتَه الحبيبَ يتردَّدُ صداه في دخيلة نفسها. وهي بمثابة لِقاء مع فرانتس، تُشبه إلى حدّ ما تلك الفترة التي كانا يتناولان فيها العشاءَ معاً في مقهى أرْكو. غالباً ما تبكي في أثناء قراءة هذه الرّسالة، كما يبْكي المرءُ في الكَنيس وهو يُنْصِتُ إلى صلاة الكاديش. تبدو هذه الرّسالةُ الطّويلةُ إلى الأب وكأنّها صلاةٌ كاديش طويلة ومُؤثّرة، إنّها الرّسالة الأطول والأجمل والأكثر إثارة للمشاعر.

تتغنّى بالعلاقة التي انْصَرَمَ حَبْلُها بين ابْنٍ وأَبيه. إنّها مكانٌ للتّفكُّر، مكانٌ للتَّذَكُّر. كلُّ جُملة فيها تُشبه صلاةً، أُنْشودة للمُعجزة التي لم تحْدُث، كما كان يُتَوَقَّعُ أو يُتَمَنّى أن يكون، وإذْ فتحت الدُّرجَ، في الخلف على اليمين، وجدتْ كنْزَ الحياة هذا، كنْزاً ينْبض بالحياة أكثر مِمّا تنبض بها كلُّ ذكريات طفولتها. كُلَّما عَكَفَت على قراءتها سال الدّمعُ من عينيْها بسبب نبْرة هذه الكتابة. الحِبْر الذي كُتِبَت به هذه الكلماتُ مُشْبَعٌ بروح شقيقها، ومُفْعَمٌ بمعاناته، ومُتْرَعٌ بآلامه. لا يوجد أَلَمٌ في الدُّنيا يُؤَثِّر فيها أكثر من هذا الألم، ولا شيء يُدْنيها من شقيقها أكثر من حُزمة الأوراق هذه.

كُتِبَت الرّسالةُ منذ ما يقرب من خمس سنوات. كانت الرّسالةُ مُوَجَّهَة إلى الأب، على الرّغم من أنّها لم تُسَلَّم أبداً إليه. كانت قد نسخَتْ منها صفحاتٍ طويلةً خلال ساعات كاملة، وما كادت تقرأ السُّطور الأولى حتى كانت تسمع صوْتَ شقيقِها بوضوح كما لو كان يجلس معها. كانت تسمعه عندما كان يافِعاً، أمام أخواته الثّلاث المُجتمعات في غُرفته، يدْعوهُنّ إلى الإصْغاء إليه. يقرأ القصصَ التي ابتكرها للتّوّ. كان كُلُّ مشهد تستحضره هذه الرسالةُ يجعل حياتَهم تَتتالى، ويبعث الأيّامَ التي مَضَت، ويُغريها مرّة أخرى بمشاهدة فصل من قصّة آل كافكا، لكنّ كلّ مشهد كان يجْري أيضاً من منظور مُشَوَّهٍ لضغينة الأبناء التي كانت تُغيّر الأحداث، مسرح خيال الظّلّ الكبير، وسلسلة من المُبارزات التي يخرج منها الأبُ منتصراً دائماً، والاِبن مهزوماً بصورة نهائية.

أخذت حزمةَ الأوراق برفْقٍ، وجلست على السّرير، وأنشأت تقرأ.

أبي الغالي:لقد سألتَني مؤخّراً لماذا أتظاهر بالخوف منك. كالعادة لم أعرف كيف أُجيبك، ويعود ذلك، جزئياً، على وجه التّحديد؛ إلى الخوف

الذي توحي لي به، جزئياً لأنّ الحافز على هذا الخوف يقتضي العديد من التفاصيل التي لا يُمكن عرضُها شفهياً بترابُط منطقي مُعَيَّن. وإذا حاولتُ الآن أنْ أَرُدَّ عليك عن طريق الكتابة؛ فسيكون ذلك ناقصاً للغاية، لأنّ الخوف وعواقبه، حتى عن طريق الكتابة، يُرْبِك علاقتي بك، ولِأنّ عِظَمَ الموضوع يُجاوِزُ بكثير ذاكرتي وفهْمي.

كانت الأمورُ بالنّسبة إليك تُعْرَضُ دائماً على نحْو شديد البساطة، على الأقلّ كما قلْتَ في حضْرَتي، ومن دون تمييز في حضْرَة العديد من الأشخاص الآخرين. لقد رأيتَ الأمرَ تقريباً على النّحو التالي: لقد كَدَدْتَ طَوال حياتك، وضَحَّيْتَ بكلّ شيءٍ في سبيل أبنائك، لا سيّما في سبيلي أنا، وعليه؛ فإنّي عِشْتُ في عَيْشٍ رَغْدٍ، وكنتُ حُرّاً حُريةً كاملة في تعلّم ما أُريد. لقد كنت بِمَنْأى عن الهُموم المادّية. لذلك لم يشْغَلْ بالي أيُّ شاغلٍ على الإطْلاق، ولم تطلب لقاء ذلك أيَّ امْتِنانٍ، وأنت تدْري العِرْفانَ بالجميلِ عند الأطفال. بَيْدَ أنّك كنتَ تنتظر، على الأقلّ، شيئاً من المُجاملة واللُّطْف، كنتَ تتوقَّع إشارةَ تعاطُف وَوِدادٍ، وعِوضاً عن ذلك كنتُ أهربُ منك دائماً لأِلوذَ بغُرفتي، بالقُرب من كُتُبي، وبصحبة أصدقاء مجانين، أو أفكار غريبة وشاذّة. ولم أتحدّث معك أبداً حديثَ صراحةٍ وحُرّية، أو أُظْهِر لك مَكْنونَ نفْسي. وعند اختلافنا إلى الكنيس، لم أذهب أبداً للجلوس بجانبك، لم أذهب أبداً لرُؤيتك في فرانزينباد، وفي الجملة، كانت روحُ العائلة تُعْوِزُني دائماً. لم تُساوِرْني أبداً هُموم تجارتك، أو الأمور الأخرى التي تهُمُّك. لقد آزرْتُ أوتْلا في عِنادها، بينما لم أُحَرِّكْ ساكِناً من أجلك...

توقّفتْ عن القراءة، لأنّها لا تُريد البُكاء، فالبكاء يجلُبُ لها الشَّقاءَ.

تتساءل عَمّا إذا كانت رسائلُ شقيقها التي لا تُعَدّ ولا تُحصى قد وُجِّهَت إلى شخص آخر غيره هو. أَلَمْ تكن تلك مجرّد مونولوجات كان بوُسعه أيضاً ألاّ يُرسلها أبداً؟ لقد كانت تحبّ الرّسائل التي كان يبعثها إليها بقدر ما أحبّت القصص التي كتبها، وكان كثيراً ما يقرؤها لها. كانت القصص تبتكر شخصيات واقعية، وبعض هذه القصص تتّخذ من الأب شخصيةً لها فتستهزئ به، وكانت جميعها تُشير إلى هزيمة الشخص الضّعيف، وهزيمة الأبناء المُحَطَّمين، وتُفصِح عن طريقته في الوجود رُغماً عن إرادة الأب. أمّا هي فكانت تملك وسائل أخرى للمُقاومة، وسائل أخرى للبقاء. أفلحت في المُعارضة لأنّها حازت من القُوّة والشّراسة ما كان يُعوِز شقيقَها. هذه القُوّة، وهذه الشّراسة التي ورثَتْها بلا شكّ من أبيها، والتي تُتيح لها أن تُعارض الشّراسةَ والقُوّةَ. ولا يعني ذلك أنّ هيرمان كافكا كان شرّيراً. كان أبوها مثل الآباء كافّة، شيْطانياً مثل الجميع، ينزعُ إلى الهيمنة ككُلّ الرّجال، جميعهم ما عَدا شقيقها الذي لن يكون أباً أبداً. لم يكن هيرمان وَحْشاً، ولا مِراء أنّه كان يُحقّق في بيته أحلامَ الكفاح، والحرب، والقُوّة فقط، التي يحلُم بها الرّجال كافّة. كان في البيت سَيِّداً، يسوسُ حياةَ زوجته وبناته الثّلاث، ويُسيطر على ابنه في كلّ المجالات. أليس جميع الآباء يُسيطرون على أبنائهم قبل إرسالهم إلى الحرب، أليس هذا هو السّبب الأوّل للحرب كيما يتمكّن الآباءُ من ترسيخ حُلمهم في السيطرة على أبنائهم، في الوقت الذي يرون فيه أبناءَهم يجترئون ويتطاولون أخيراً، ويُعارضونهم، ويستعيدون منهم مشعَلَ الهيمنة؟ يذهب الأبناءُ إلى الحرب في صَخَب وجَلَبَة، ويذهبون في سبيل التّضحية واثقين كُلَّ الثّقة من الظَّفَر، مُحَقِّقين أحلامَ القُوّة التي يحلُم بها الآباءُ، آباءُ الأُسَرِ وآباءُ الوطن مُجْمِعين

على التضحية بأبناء الوطن وبأبناء الأُسَر. ويُمكن للأبناء الذين نَجوا من المذبحة أنْ يُصبحوا آباءً بأنفسهم، ويصطنعوا حُلمَهم في الهيمنة.

لم يكن هيرمان كافكا أسْوَأَ من أيِّ أبٍ آخر، لعلّه كان أباً عادياً تماماً. كان فرانتس يراه أكثر قَسوةً مِمّا هو عليه في العادة، يراه أعظمَ مِمّا هو عليه في المُعتاد، لأنّه كان ينظر إليه بعينَيْ طفلٍ، وهي النّظرة التي يُقال إنّ الفنّانين يتأمّلون بها العالَم. أَلَمْ يُجبِرْ والِدُ ميلينا جيسينْسكا، وهو جَرّاح بارِز ومُوَقَّر للغاية، وعُضو في المجتمع الرّاقي في براغ؛ أَلَمْ يجبر ابنتَه قَسْراً على الاِحْتجاز في مَشْفى للأمراض العقلية عندما عزمت على الزّواج من يهودي؟ أَلَمْ يُخْضِعْها لعدد من العلاجات أمَلاً في شفائها من جُنون الحُبّ المُفْتَرَض؟ أمّا هيرمان كافكا فلم يكن قادراً على اقتراف مثل هذه الجريمة. ولكن عندما عزمت أوتلا على أن تسلك سبيلَ التّمرّد نفسه الذي سلكته ميلينا، بانتهاك المحظور والتّحالف مع الغريب، والرغبة في العيش مع رجل من غير اليهود بينما هي سليلة بني إسرائيل؛ استخدم هيرمان سُبُلاً أُخرى أكثر إنسانية بالطّبع من الاِحتجاز لبُلوغ الغاية نفسها، وهي إرجاع ابنته إلى طريق القانون القويم، قانون البشر العريق الذي يحظر على المسيحية الصّرْف ميلينا جيسينسكا أنْ تُضاجع يهودياً، ويَحْجُر على أوتلا كافكا، اليهودية الأبِيَة، أن تتّخذ من غير اليهودي زوجاً لها. لم يكن هيرمان يتّصف بقسوة البروفسور جيسينسكا، ولم يحتجز ابنتَه عندما اصْطَفَتْ جوزيف دافيد زوجاً لها، وهو ليس من اليهود، بل حملها على أن تثوب إلى الرُّشْد، إلى ألفيْ عام من التُّراث والتاريخ الذي كان من المحتمل أن تخونه، جريمة الطَّعْن في الذّات اليهودية وانْتهاك حُرمتها.

«ولكن كيف يمكنك أن تتزوّجي من غوييم[1]، أنتِ التي نُعلّق عليكِ آمالَنا؟ أنتِ تخونيننا يا أوتلا، أنتِ تخونين أسلافَنا، أنتِ تخونين موسى وإبراهيم! وتخونين جَدَّكِ، والدي، يعقوب كافكا جزّار الكاشير الصّغير في أوسيك. لا بُدّ أنّه يتقلَّب في قبره. إنّك تفْصِمين العُرْوَةَ التّليدَةَ التي نستمْسِك بها ونَعْتَصِم، عُروةَ تَنْشِئَتِنا وتاريخنا، وبِاسْمِ ماذا؟ بِاسْمِ الحُبّ! تتحدّثين عن الحُبّ يا أوتلا، فماذا تعرفين عن الحُبّ؟ قصّة حُبِّك الأوّل العابر، حُبّ زائل مع شخص غيرِ يهودي، أَتُسَمّين هذا حُبّاً؟ وعلاوة على ذلك، هل الحُبّ يكون سبباً للزّواج؟ هذا هو السّبب الوحيد، يا أوتلا! إنّ ما كان يجعل من هرمان منيعاً وحَصيناً هو أنّه كان يتصرّف كضحية، كان يتصرّف باسم التّنْكيد والمُضايقة. باسم التاريخ، وباسم الإيمان، وباسم الخير، وباسم الِاضطهادات القديمة. كان يتحدّث باسم الضّحايا، ضحايا الغيتوهات، وضحايا البوغروم (المذابح). وهذا ما كان يجعل منه أباً فظيعاً، أباً رائعاً، أباً لا مناص منه، ينتصب في طريقك، مهما كان الطّريق الذي تسلكه لِاجْتِناب حُضوره. كان ينتصب على الجانب الآخر من الطّريق مُمْتشِقاً سيفَ تاريخه، يَنوءُ بِحِمْلِ كلّ مصائب عشيرته، وهي ليست عشيرة من المنتصرين، أَيْ من القوط أو الفايكينغ، كلّا، كان من الممكن أن يكون هذا الِانتصار باعثاً على البغض. كان سيُسَوِّغُ لنا كُرْهَ هيرمان كافكا ببراءة. إلّا أنّ عشيرتَه من المهزومين والمحرومين، عشيرته اليهودية المنفية والمُذَبَّحَة، التي يعود تاريخُها إلى أَلْفَيْ عامٍ، يتحدّث باسم هذه العشيرة وليس باسم المُجرمين، بل باسم المنفيين. لقد تحدّث إلينا باسم المصائب، تحدّث إلينا نحن الذين نَعِمْنا برفاهية العيش، لأنّنا لم نُعانِ مرّة

(1) ـ غوييم: اسم يطلقه اليهودُ على الشّعوب غيرِ اليهودية، لاسيما على المسيحيين.

أخرى في هذا القرن من الاِضطهاد باسم عِرْقِنا، لأنّ مسألة الذّهاب لِقَتْل اليهود لن تحدث أبداً مرة أخرى. كانت الصالة التي يحتفل فيها هيرمان بالقُدّاس بمثابة بَهْوٍ للتّاريخ. هناك كان يجلس إلى مائدة العشاء موسى وإبراهيمُ وسُليمانُ وجميعُ الملوك الذين أصْدَروا الأمْرَ بحَرْق اليهود أو كُتُبهم، واحتجازهم إلى الأبد في الحيّ اليهودي (الغيتو). كلّ أشباحِ هذا التاريخ من النَّفْي والتَّنْكيد والرُّعْب والموت كانوا هناك، جالسين إلى المائدة أمامنا. وكان إلى جانبهم طَيْفُ يعقوب كافكا، والد هيرمان، الذي كان يتحدّث باسمه! وكان يُعارضكم إكْراماً له. هذا الجَدُّ الذي نُغِّصَ عيْشُه من جرّاء كلّ ضُروب المراسيم التي كانت تحْرِمُ اليهودَ كلَّ شيء، وتحكُم عليهم بالنّفْي، والمذابح، والمجاعة، وتتّهمهم بنشْر الطّاعون الأسود. كان هيرمان يستدْعي شُهودَ الماضي، القَتَلَة والضّحايا. كان هناك الكثير من البشر حول طاولة هيرمان كافكا، حيث كان يسوسُ العالَم لدرجة أنّ المرءَ لا يجْرُؤُ على فتْح فمه مخافةَ أنْ يوقِظ الموْتى. كان فرانتس يُحبّ أن يقول: (يمكن لكلّ أعمالي الأدبية المكتوبة أن تحمل عُنوان «محاولة الهُروب من الأب»). كان فرانتس يَتَحامَى الصّراعَ، ماعدا في الكتابة. لقد حطّم عُنْفُ الأبِ أَيَّ عَزيمة على التّمرُّد. وبعد كلّ جِدالٍ كان الابنُ يطلُب الصَّفْحَ من أبيه، يعتذر عن إثارة غضبِه وَسَوْرَتِه. الضّحية تشكُر جَلاّدَها. ولمعرفة سبب هذا، فإنّ أباه كان يمنعه في طفولته من أيّ روح ثَأْرِيَة، يُشبه الأمر إلى حدّ ما قَطْعَ مخالبِ حيوان محْبوس في قفص وبَرْدِ أَنْيابِه.

تستأنف مصادفة قراءتَها لورقة أخرى:

«لقد اتّخذْتَ في نظري هذه الهيئة الغامضةَ التي تُميِّز الطُّغاة... وإذا رُمْتُ الهُروبَ منك؛ كان عليَّ أيضاً أن أهرب من العائلة، وحتّى من أُمّي.

بالطّبع، يمكننا دائماً اللَّوْذُ بها، لكن هذا يعني البقاءَ على تَماسٍّ معك. لقد أَحَبَّتْك حُبّاً جَمّاً، وكانت وَفِيَّة لك كُلّ الوفاء، لدرجة أنّها لم تستطع على المدى الطّويل من تجسيد قُوَّة روحية مستقلّة في المعركة التي يقودُها الفَتى... بالكاد أسمح لنفسي بالحديث عن أوتلا، فأنا أعلم أنّني بذلك أُخاطِر بالمَساس بالتأثير الذي أتوقّعه من هذه الرّسالة. في الظّروف المُعتادة، أيْ عندما لا تُجابِه عُسْراً على الخصوص، أو تُواجِه خطراً، فإنّك لا تشعُر نحوها إلّا بالكراهية».

تتذكّر اللّحظةَ التي حدّثها فيها شقيقُها عن هذه الرّسالة في أثناء الإقامة في شيلسن. وأوضح أنّ هذه الصفحات كانت، بلا شكّ، أهَمَّ ما كتبه. لا شيء مِمّا كان قد كتبه سابقاً يُدْرِك هذه الدّرجةَ من الحقيقة. لم تكن كلُّ كتاباته السّابقة، وكلّ قصصه القصيرة، ومشاريع رواياته؛ سوى مُسَوَّداتٍ، وتمهيدٍ بسيطٍ. لعلّه كان يكتب دائماً لمجرّد كتابة هذه الرّسالة إلى أبيه، لكنّه لم يَأْنَسْ في نفسه القُدرةَ على تسليمها له. وكان يوَدّ أن يلتمس من أُمّه تقديمَها له. وكان يحتاج إلى شقيقته لهذا المَسْعى. ولم تكن هي تُعاني هذه اللّجْلَجَة التي يُكابِدُها كُلّما كان يتحدّث عن أبيه. أراد منها أن تقرأ وتخبره برأيها فيه. كانت أوتلا قد قرأت النّصَّ في ذلك المساء بالذّات. وكان حاصل انطباعها أنّها تَسْبُرُ مياهَ مُحيطٍ من المعاناة، من دون أنْ تدْري ما إذا كان الشيءُ الأشدّ إيلاماً يكمُن في محنة فرانتس الغائرة، أو في عُنْف نصّه، أو في حقيقة أنّها لم تكن قادرة على أن تحْزرَ حجْمَ هذا الألم المُبَرّح الذي خَبرَه الشخصُ الذي يفوق حُبُّها له أيَّ كائن آخر في العالَم، الشخص الذي تُشاطره المسرّات والمآسي منذ أمد طويل. إنّه شُعور بالخجل، وبالغضب، وبالعَجْز.

لم تعثُر على الكلمات لِتُنْبِئَه بأنّ السَّعْيَ الدّؤوبَ لِنَيْل رضا الأب هو جهد ضائع. لم تكن تريد إحْباطَ آماله. لقد أسَرّ لها بأنّه يُدرِك الخطرَ، ويتهيّأ لتحمّل المُخاطرة مقتنعاً بأن هيرمان كافكا أفضلُ من الكائن الفظّ غليظ القلب الذي يُوحي به، وأنّ الأب لا يُمكنه إلّا أن ينْحَنِيَ أمام لَفْتَة الحُبّ البَنَوِيَة هذه. كان عليها أن تُخبره، أنتَ مخطئٌ يا فرانتس. لأنّ أبانا عاجز عن أن يكون له موطئُ قَدَمٍ في عالَمك، وأن يسْتشْعِر جمالَه، ويُدْرِك شُكوكَه. أبونا هو في عِداد هؤلاء الرّجال الذين يفتقرون إلى نصيب من الإنسانية، من هؤلاء الأفراد إذْ يَتَقَوّون بشعورهم بالقدرة المطلقة، فيظنّون أنّهم يتَسَيَّدون العالَم. يجرُؤ أبونا على قَوْل كلّ ما يحملُه من رأي عنك، والإعراب عن أقلّ فظاعة تخطر في باله، ويعُدُّ إخلاصَه فضيلةً سامية. كانت تودّ أن تقول له: يا فرانتس، إنّ إخلاصَه ليس إلّا مظهراً من مظاهر وحْشيتِه وجمود عاطفته إزاء الكائنات والأشياء. إنّ إخلاصه المزعوم ليس سوى اسْمٍ آخر لرغبته في الإشباع والهيمنة والتّدْمير. أبونا يصرخ ويصيح أمامك، لأنّ الصورة التي تُقدّمها له عنك لا تُطاقُ بالنسبة إليه. كُتلة من اللّحْم عاجزةٌ، قَزَمٌ يُعوِزُه الإحساسُ في مواجهتك أنت الذي تُجسِّد الإنسانيةَ تجسيداً سامِقاً. لا تضَعْ نفسَك، يا فرانتس، في موقف تتعرّض فيه لمخاطر كبيرة! لا تُسَلِّمْ هذه الرّسالةَ لأبينا، ولا تضَعْ مصيرَك بين يديْه مرّة أُخرى.

لم تخرج الكلمات من فمها، لقد تركت شقيقَها يمشي نحو هزيمته. بعد ظهيرة ذلك اليوم بالذّات، كانت في شُقّة العائلة تنتظر مجيءَ شقيقها وقد شَلَّها القلقُ. ولم تكن أُمُّها الجالسة قبالتها تدْري شيئاً عن المَسْعى الذي سيوكَلُ إليها. كانتا تتحدّثان عن الطّقس، وتأْمَلان قُدومَ شتاءٍ أكثر اعْتدالاً.

كانت الأُمّ تأمل باستمرار، تَأْمَلُ إيجاباً أو سَلْباً. كانت أُمّها تجسيداً للأَمَل. طُرِق البابُ وذهبتْ أوتلا لفتْحِه، كان شقيقها في الطّابق يتأبّط حقيبته، يرتدي سترة يرتجف فيها من البرد. أوضح بنبرة هادئة على نحو غريب أنّ لديه شيئاً مُهِمّا ليقوله «ألا يمكن الانتظار حتى هذا المساء؟». لا يا أُمّي، هذا المساء لن يكونوا وحدهم. «آمُل ألّا يكون هناك شيء خطير»، لا شيء على الإطلاق يا أُمّي، بالعكس. نَمَّتْ إيماءَتُه عن ضرْب من السَّطوة غير المألوفة، فقاد أُمَّه من خصْرِها، وطلب منها الجلوسَ، ثمّ أخرج من حقيبته ظرْفاً أخذ منه بعناية حُزمةً ضخمةً من الأوراق المكتوبة بخطّ اليد، والتي بَدَتْ وكأنّها كانت تنْساب من خلال أصابعه مثل رزمة أوراق نقدية. وعلى نحو رصين للغاية؛ أوضح بكلّ فخر أنّه كتب رسالةً إلى والده. همستْ أُمّه «يا لَها من فكرة طريفة!». توقّف برهة، ثمّ استأنف شرحَه: هذه الصفحات تختزل ثلاثين عاماً من الحياة معاً، تستمدُّ عِبَراً من صراع لا ينتهي، ترسُم أُفُقَ حياةٍ ـ نعم، كان هذا هو الطّموح النّبيل للرّسالة، أيْ بناء جسْرٍ بين حياتيْن لا سبيل إلى التّوفيق بينهما. كان على الجسْر أن يكون صلْباً، وكان على الرسالة أن تكون طويلة. ولَمّا فَرَغَ من الكلام أكّدت الأُمُّ أنّها فهمتْ، كرَّرَتْ «أفهم... أفهم». كانت نظرتها تَشي بالشّفقة أكثر من الفهم. وكان من الواضح أنّها لم تكن قد فهمت شيئاً. ويلحظُ المرءُ أنّها تائهة. كانت جولي كافكا تبْدو دائماً ضائعة في الصُّوَر النّادرة لها بجانب زوجها الجبّار. شجَّع الابنُ أُمَّه على قراءة الرّسالة قبل تسليمها، ذلك أنّ رأيها كان مُهمّاً عنده. في تلك اللّحظة لاحَ أَثَرٌ من العبوس المرتبك عليها، وهو ما كان يدُلّ على الأرجح أنّها كانت تُؤثر عدمَ القراءة، وخُيِّل لها أنّ وساطتَها كانت كافيةً، وربّما كانت بالفعل عَمَلاً لا طاقة لها به. وأضاف الابن أنّ

بإمكانها أن تُبْدِيَ تحفُّظات من حيث الجوهرُ وكذلك من حيث الشّكل، ولكن لديه مَطْلَبٌ يقدّمه إليها.

قالت الأُمّ وهي تائهة: «مطلبٌ؟ أيُّ مطْلَبٍ؟». ولا ينبغي لها، في اللحظة التي تُسلّم فيها الرّسالةَ إلى الأب، أن تكشِفَ عن الموضوع، لأنّه كان يُعَوِّلُ على الأثَر الذي تُحدِثُه المفاجأة. قالت: «أعتقد أنّ أباكَ لا يُحبُّ المفاجآت»، فأجابها إنّ أباه لا يُحبّ المفاجآت *السّيّئة*. «هل أنت واثق من نفسك حقّاً؟»، تلعثمت الأمُّ المُحْتارة وقد انتابها الرُّعبُ مِمّا يُطْلَبُ منها، هذه الفكرة الغريبة المتمثّلة في حَمْلِ زوجها على أن يقرأ رسالةً من مئة صفحة تقريباً، فضْلاً عن البيانات المالية مساءً. وضعت يدَها على ساعدها بحركة لطيفة ومُهَدِّئَة، ثمّ أكّدت له بأنّها واثقةٌ من أنّ أباه سيكون مُكترثاً لأمْر هذا النّص، وبأنّه سيُدرِكُ مغْزاه، ولا بُدّ لها أن تقول جملةً واحدة: «كتب إليك ابنُك». وإذا أبْدى الأبُ انزعاجَه، وتنهّد، وشخص ببصره إلى السّماء كما هو مُتوقَّع ـ فهو أدْرى بأبيه ـ فستعرف كيف تستعمل قُوَّتها في الإقناع. وبمجرّد أن يستعرضَ السُّطور الأولى؛ لن يتمكّن الأبُ من التّوقُّف. وسيجعل الابنُ من هذا الأمر شأنَه الخاصّ. قالت الأمّ على مضض: «ما دُمتَ مُتشبّثاً بالأمر...». عانقها عناقاً يبدو أنّه يحمل كلَّ آمالِه، ثمّ أوضح بأنّ عليه أن يعود إلى مكتب التأمين فوْراً. ودّعَها وانصرف، وهيئتُه تَشي بالاِنتصار.

ما إنْ أُغْلِقَ البابُ حتّى ران صمْتٌ جديدٌ. فقالت الأُمّ: «أرأيْتِ أنّ الثّلجَ قد توقّف عن التّساقط». وبالفعل، كان الثّلجُ قد توقّف. «حسناً»... قالت الأُمّ وهي تنهض عن كُرسيّها؛ «ليس هذا فحسب، ولكن لا يوجَد شيءٌ جاهزٌ لتناول العشاء». كانت قد سارت نحو المطبخ بخُطاً مُرْهَقَة. كانت

هناك أصواتُ تكْديس الأطباق، وسَحْبِ الطّناجر، وما هي إلّا دقائق حتى قالت الأمّ:

«يا أوتلا، ستُعيدين الحُزمة إلى أخيك، ينبغي ألّا يتأخّر هذا الأمر، فقد يَقَعُ أبوك عليها».

كانت شمسُ يونيو السّاطعةُ التي تُبْهِرُ الغُرفةَ قد أرغمتْها على إسْدال السّتائر. تعود بقلْبٍ مُضْنىً لتتصفّح بسُرعة صفحات الرّسالة، يتعاورُها الخوفُ والأسى:

(أخشى ألّا أُفْلِح في أنْ أشرح لك تجاربَ زواجي أيضاً. ومع ذلك، فإنّ نجاح هذه الرّسالة برُمّتها يتوقّف عليها. لأنّ كلّ ما أملك في الحقيقة من قُوى إيجابية؛ يوجَد مجتمعاً في هذه التّجارب. هذا من ناحية، أمّا من ناحية أخرى، فإنّ كلَّ القُوى السَّلبية التي وصفتُها باعتبارها حصيلةَ تنشئتك، عَنيتُ الضَّعْفَ وانعدامَ الثّقة في نفسي، والشّعور بالإثْم، فإنّها تجتمع فيها مُثيرةً الغضبَ، ومُقيمَةً حاجزاً حقيقياً بين الزّواج وبيْني... الآن، يَسوغُ لك أنْ تُجيبني عن أُمور كثيرة تتعلّق بتجارب الزّواج. في الواقع، هذا ما فعلتَه، إذْ نادراً مـ كان بوُسعك احترامُ قراري، عندما فسخْتُ خطوبتي من ف. وخطبْتُ من جديد مرّتيْن، بينما استصحبتكما أنتَ وأُمّي ـ من دون داعٍ ـ إلى برلين لحُضور الخُطوبة، وهلمّ جرّاً. كلّ هذا صحيح، ولكن كيف وصلتُ إلى هناك؟).

(برلين لحُضور الخطوبة)...

تستعيد صورةَ الحفل في الشُقّة الفاخرة لعائلة باور في برلين، حيث كان على فرانتس أن يضع الخاتَم في إصبع فيليس بحضور العائلتيْن. كان لا

بُدّ للخطوبة أن تضع خاتمةً لمُراسلات مُضْطَرِمَة دامت سنين عديدة، وأن تضع حَدّاً للتَّنائي بيْن العاشقيْن من خلال زواجهما مدى الحياة. في الضّوء الباهر للثُّريّات البلّورية كان فرانتس يذْرَعُ أروقةَ وصالات هذا المكان المُتْرَع بالأُبَّهَة، زائِغاً، فاقِداً الحِسّ، ذاهلاً. بدا كأنّه شخص محكوم عليه بالإعدام. شاهد المشاركون المشهدَ المُدهِشَ مصدومين. تحوّل الحدثُ الذي كان من المفروض أن يحتفيَ بأسعد يومٍ في حياة شخصٍ إلى مأساة. فُسِخَت الخطوبة نهائياً، وأُلْقِيَ اللَّوْمُ كما ينبغي على الجاني الذي وَصَمَ عائلةَ باور بالعار في 14 من يوليوز 1914، بفندق أسكانيش هوف.

لم يُساور أوتلا أدنى شكّ بخصوص هشاشة هذا الاقتران بفيليس. كان الزّواج، مثل امتثال الأبناء والتبعية الاجتماعية؛ يشكّل عند شقيقها عَقَبَةً أمام موهبته الأدبية. وأثبتتْ «محكمة أسكانيش هوف»، كما وصفتها ساخرة، أغْلى أُمنياتها وأكثرها سِرِّيَةً في القطيعة. وكانت مقتنعة بأنّ شقيقها لم يكن الضحية التكفيرية[1] لهذه المحاكمة العائلية، بل كان هو المُحَرِّض عليها. لم تُخْفِ مئاتُ الرّسائل المُرسَلَةُ إلى فيليس خلال خمس سنوات طِوال سوى رُعبِه القاتلِ من الزّواج، وتُرْجِئُ اليومَ المُقَدَّرَ. ولكن كان لا بُدّ ذات يوم من الِانتقال أخيراً من كلمات الحُبّ إلى أفعالِه، واستبْدال الخواتم بالمُراسلات المحمومة، والخضوع لقوانين الزّواج، وتجسيد الرّغبات على أرض الواقع، ووضْع حدٍّ لزمن العُزْلات لقاءَ العيش في الِاختلاط. سيتعيّن عليه ذات يوم أن يختار بين فيليس والعُزلة، بين الحياة والكتابة. وسيُؤْثِرُ الكتابةَ على الحياة.

---

(1) ـ الضحية التكفيرية هي الشخص الذي يُضَحَّى به للتّكفير عن خطأ جماعي.

إنّ الرّسائل الموجَّهَةَ سواء إلى فيليس أو ميلينا، على كلّ حال، تلك التي حملَها على قراءتها، كانت تجعل منه سَيِّدَ لُعْبَة الحُبّ، وأذِنَتْ له بالتّهرُّب، والكذب، والإخْفاء، والتّلاعُب، والحَنثِ باليمين. ومهما كانت مؤثّرة، كانت هذه الرّسائل موجَّهَةً إلى امرأتيْن غير معروفتيْن تقريباً. أكانت تتطلّب جواباً؟ أمْ يمكن قراءتُها باعتبارها حوارات داخلية بسيطة ورفيعة؟ لا رَيْب في أنّ الفتيات المخطوبات في ذلك الوقت كُنّ مُخطِئات إذْ يَعتَبِرْن هذه الخطبة وَعْداً بجَناح كبير في فندق لقضاء شهر العسل، بينما لم يكُن إلّا غُرفة انتظار غامضة لضمير مُؤَثِّر، ربّما لم تكُن سَوْرَةُ الغضب التي جَأَر بها ظَمَؤُه للحُبّ سوى وسيلةٍ لإشْفاء غَليل رغبته المُلِحَّة في الكتابة.

لم تكن أوتلا ترى أيَّ فرْقٍ بين المُراسلات واليوميات والقصص. لم تكن تُقيم تمييزاً بين فرانتس المُتَرَسِّل، وفرانتس الرّوائي، وفرانتس كاتب اليوميات. تغْدو المرأة في الرّسائل كائناً من وَرَقٍ. كان الأمر عكس ذلك في العملية الرّوائية. عندما ينبض كائنٌ مُتَخَيَّلٌ بالحياة بوساطة الكتابة، ويبدو الخيالُ وكأنّه واقِعٌ. كان فرانتس في الرّسائل يُحَوِّل الواقعَ إلى خيال. لقد أخطأتْ فيليس، مثلما أخطأت ميلينا، عندما تخَيَّلَتا أنّ فرانتس كان يُخاطبُهما. قبل أن يتعرَّف إلى دورا، ويصْحو كلَّ صباح بجانب كائنٍ من لحْم وعظم، ظلَّ الحُبُّ عند فرانتس صفحةً يكتبُها. كانت الرّسائل المُوجَّهَةُ إلى فيليس وإلى ميلينا تُشكِّل روايةَ الحُبّ الأشدّ تأثيراً. باعتبار فرانتس مُؤلِّفاً ومُمثِّلاً في مسرح الظّلّ هذا، أدّى دائماً الدَّوْرَ الجميلَ، أكان صِهْراً مِثالياً أمْ كاتباً ملْعوناً.

لا شكّ في أنّ غياب الحَدّ الفاصل بين الواقع والخيال، حتى لو مُورِس باسم قداسَة الكتابة؛ فإنّه كان يُمثّل أَحَدَ أعْراض الجُنون اللَّطيف، جُنونٍ

رائعٍ وخِصْبٍ، ولكنّه مُعَذِّبٌ لدرجة أنّ عُنفَه المُدَمِّرَ كاد يُحطِّم فيليس وميلينا. كانت الرّسائلُ تُشَيِّئُ المُرْسَلَ إليه بمُباركته المُبْهِرَة. كانت الرّسائل تُديمُ لفرانتس وَهْمَ الاِنْتماء إلى مجتمع البشر. وكان العالَم عنده عبارة عن صندوق بريدٍ كبير يستمتع فيه بتغيير الأسْماء واحِداً بعد الآخر.

عادت من جديد إلى قراءتها، ويدُها ترتجف وهي تُمسك بالصّفحة الأخيرة من رسالة إلى الأب:

(أتخيَّل أحياناً خريطةَ الأرض وهي مبسوطة، فأراك مُتَمَدِّداً بالعَرْض على أديمِها بالكامل. ويَعْروني إحْساسٌ بأنّ المناطق التي لم تُطْبِقْ عليها، أو تلك التي ليست في متناول يَدِك هي وحدها التي يُناسبُني العيْشُ فيها...

ولكن، والحالة هذه، فإنّ الخوف الذي أشعُر به إزاء نفْسي لَأَهَمُّ من ذلك بكثير، ويحْسُنُ فهْمُ هذا الخوف على النّحو التالي: لقد سَلَف أنْ أشرتُ إلى أنّني؛ في نتاجي الأدبي، وفي كلّ ما يُمتُّ إليّ بصلة، قُمتُ، من دون أنْ أُحقِّق سوى نجاحٍ محدود للغاية؛ بمُحاولات صغيرة للاِستقلال والهُروب، مُحاولاتٍ تُثْبِتُ لي أشياءَ كثيرة، يكاد لا يكون لها أيُّ امتدادٍ...

الحياةُ تتعدّى مجرّد كونها لُعْبَةَ صَبْرٍ، ولكن مع ما يُقدّمه هذا الاِعْتراضُ من تصويبٍ ـ وهو التّصويب الذي لا أستطيع ولا أُريد أن أشرحه شرحاً مُفصَّلاً ـ يبْدو لي أنّنا بَلَغْنا نتيجةً تدْنو تماماً من الحقيقة لِتُهَدِّئنا قليلاً، وتُيَسِّرَ لنا الحياةَ والمَمات).

ترفع رأسَها كأنّها مذهولة. إنّ نفْسها تتوقُ إلى العودة بالزّمن إلى الوراء، والعودة إلى صباح أحَدِ أيام نوفمبر، وبدلاً من أن تنتظر برقيةً كانتظارها هذا الصّباح، فإنّها تهْفو إلى قُدوم شقيقِها. تَوَدُّ أن يتساقط الثّلجُ في يونيو، وأنْ

يُفْتَحَ البابُ، وأنْ يخْطو الفَتى نحو الأمام، وأن يكون خَدُّه ناعِماً، وأنْ تُقَبِّل وجهَه، وتغمره بالقُبلات، وتضُمّ كتفيْه وجسدَه ضَمّاً شديداً إلى صدرِها. ولكن لا يُمكننا أن نستعيد الزّمن، ولا التّعويض عن أخطاء الماضي. إنّه الفَراغ الذي يحْدِقُ بنا في سُكون النّهار. توقّف ثلْجُ نوفمبر عن التّساقط منذ فترة طويلة، ولا تزال الرّيحُ القارسةُ تعْصِف في روحها الجامدة. وكانت تخْشى ألّا شيء سيُعيد الفَتى إلى الباب أبداً.

ينبغي لها أن تخرج الآن، ستُمْسي مجنونةً وهي تدور حول نفسها في الشّقّة العائلية. تسمع صدى رنينِ الهاتفِ من الصّالون، تحُثُّ الخُطى خارج الغُرفة، وتجتاز البهْوَ، وعندما تبلُغُ البابَ يكون أبوها قد رَفَعَ السَّمّاعةَ من قبل.

«نعم، يا روبير»، قال هيرمان قبل أن يترك صمتاً طويلاً يمُرُّ، مُرْهِفاً السَّمْعَ إلى النَّبَأ الذي أُلْقِيَ إليه.

ومع توالي الثّواني يتشنّجُ وجْهُ الأبِ، وينتهي قائلاً بصوت مُرتعش:

عَفْواً، يا روبير، لم أفْهَمْ ماذا تقصد... ماذا تعْني بـ(لقد قُمْنا بكُلّ ما كُنّا نستطيع إليه سبيلاً).

telegram @yasmeenbook

4 ـ يونيو ـ 1924

روبير

المطر يَقْرَعُ الطّريقَ. وطوفانُ الماءِ في شهر يونيو يغمُر شوارعَ القُرى التي تمَّ عُبورُها، ويضرب سقْفَ المَركبة باستمرار. لم يتبادلْ كلمةً واحدة مع التي تركب بجانبه منذ مغادرة المصحّة، إنّه يخْشى أن تُؤَدّي أدْنى كلمة ينطق بها إلى تبْديد صورة الشّخص الذي أخذه الموتُ في اليوم السابق. هذا الطَّيْفُ العظيمُ بينهما، الذي يجمعهما ويفصل بينهما. هذا الذي يُعِزّانِه، يعُدُّه هو أخاً، أمّا هي فتحسب نفسَها أكثرَ عشيقاته كَلَفاً به. لا يجرُؤُ على إدارة رأسه خشيةَ عدمِ القُدرة على مواصلة النَّظَر في عَيْني دورا.

لقد حدث شيءٌ أساسٌ ولكنّه لا يزال مُحَيِّراً، حدثٌ لا يستطيع تقْديرَ حجْمِه، لكنّه يسْتشْعِر أنّه سيطْوي شبابَه، ويطْوي شبابَهما معاً. لا يستطيع في هذه اللّحظة أن يضَعَ اسْماً لهذا الشيء، الذي سينعتُه لاحِقاً بكلمة بُرودة الموت. في الوقت الحالي يبدو الأمر كما لو أنّ فرانتس لا يزال على قيْد الحياة، والحُمّى تَضْطَرِمُ في جسدِه، كما في اليوم السابق في مثل هذا الوقت. لقد توقّفت الحياةُ بالنّسبة إليهما في اللّحظة التي توقّف فيها قَلْبُ فرانتس.

أسْبَلَتْ دورا جفْنيْها ولم تفتحْهما منذ غادرا. فُستانُها البيج مُوَحَّدُ اللّون

يترك كتفيْها عاريَيْن، ترتدي وِشاحاً أحمر حول عُنقها. على الرغم من محنة اليوم السّابق فإنّ مُحيّاها يحتفظ بضرْب من البراءة التي عرفها فيها دائماً، والتي وقَعَ في سحْرها في أوّل لِقاءٍ بينهما، في برلين، عندما قدّم إليه فرانتس تلك التي كان يُشاركُها حياتَه من الآن فصاعداً. نوعٌ من الفَرح الجامِح، وهذه الهيئة التي تَشِي بالانْتصار على مُحَيّا المرأة الشّابّة كانت قد ملكتْ عليه قلْبَه فَوْراً. لم تَمْضِ إلّا ستّة أشهُر، ويبدو أنّ هذا المساء وسط أدْخِنَة مقهى جوسْتي يعود إلى قرْن ولّى. أَلَمْ يحلُم بكُلّ تلك الأيّام الخالية من الهُموم، وتلك السّعادة المثالية، عندما كانوا ثلاثتهم يسيرون في ميْدان ألكسندر، دورا وفرانتس وهو.

توقّف المطرُ عن الهُطول. ضبابٌ كثيفٌ يبسُط سِجافاً طويلاً من الصَّدَف فوق الإسفلت. صَريرُ إطاراتِ الفوكسهول تُثير الخوفَ من انْحراف السّيّارة. أعطاه الدكتور هوفمان مفاتيحَ السّيّارة المركونة وسط ثلاث سيّارات أخرى في ساحة المصحّة، مؤكِّداً أنّ قُوّة مُحرّكها هي الأقْدَر على إيصالهم إلى وجهتهم في أقْصَر وقتٍ.

وماذا لو ذهبْنا إلى البندقية بَدَلاً من براغ؟ يتخيّل نفسَه على متْن كَوْثَلِ قاربٍ من تلك القوارب السّريعة، التي تأخذ وَرَثَة الأغْنياء في نُزهة حول البُحيرة. تتراءى له نفسُه يُخاصِرُ دورا، ويُعْجَبُ بالمدينة من بعيد، مُنْتَشِياً بروائح نسيم البحْر اللاّذِعَة. يُشيرُ بإشارةٍ من إصبعه السّبّابة إلى قصْر دوجي، وساحَة القدّيس مرقس. نوْبَةُ النَّحيب التي ترُجُّ حَلْقَ المرأة الشّابّة وكتفيْها من دون أنْ توقِظَها تُعيدُه إلى الواقع.

ينُوءُ كتفاه بشُعورٍ بالإرْهاق لم يشْهَدْ مثلَه منذ شُهور. المعركة التي خاضها لإنْقاذ صديقه كانت حتى ذلك الحين تشغَل أفكارَه، وتُلْهِمُ كُلَّ

أفْعالِه. كانت المُهمّة التي أخذها على عاتقه لا تحْتَمِل أدْنى عارِضٍ ضَعْفٍ، وتسْتلْزِمُ حَشْدَ كُلّ القُوى، وتتجَرَّد من الألَم والحُزن والنَّدَم. «أنتَ تُصارِع شيئاً أقْوى منك»، ذُعِرَ هوفمان بعد أنْ قدَّم جَرْداً للأعضاء التي غَزاها الدّاءُ. كان يسْعى بلا تبصُّرٍ أوْ رَوِيَةٍ ضدّ جميع المبادئ التي تعلَّمها في الكُلّية، وحتى باسم هذه المبادئ. «إنّها قضيةٌ خاسِرة! واصلَ هوفمان، دَعْه يَرْحلْ بسلام، انْصَرِفا، دورا وأنت! كلُّ هذا سيؤول بك في النّهاية إلى الجُنون».

رُبّما يحين وقْتٌ يُؤدّي فيه تفكيرُ الطّبيب المتدرّب، الخاضع للقُدرة المطلقة للمعرفة والقُوّة التي لا تُقْهَر لِمُثُلِ عصْرِه؛ إلى الاِعْتقاد بأنّه تحَرَّر من قوانين الطّبيعة، وهل يمكن ذلك إلّا بعد سنوات من الممارسة، يعترف فيها رجُلُ العِلْم بتفوُّق القضاء والقَدَر. ويعْزو إلى التّجربة ما ليس سوى ضَعْفِ التّنازُل والتّخَلّي؟

استسْلَم أخيراً للرَّجاء. وحَقَن على مَضَضٍ جُرعةً أخيرة من المورفين، وبينما كان يدفع المحقنَةَ بِبُطْءٍ، تَمْتَمَ كافكا:

«هذا جيّدٌ. ولكن أكْثَر فأكْثَر، بمقدورك أن ترى أنّ هذا ليس له أيُّ تأثير».

لقد أذْعَن.

ناشَد صديقَه:

ـ لا تذْهَبْ...

حاولَ أنْ يُطَمْئِنَه:

ـ لنْ أذهبَ

ـ «لكنّني أنا الذي سأرحل عنك»، هَمَس كافكا، وأطْبَق جَفْنَيْه.

وبعد دقائق قليلة فُتِح بابُ الغُرفة، ودخلت دورا تحمِل في يدها باقةً من الزّهور جلبتْها من القرية. أسرعَتْ، وبحركة تلقائية، وضعت الباقةَ تحت أنْفِ حبيبها، وبَدَتْ مقتنعة بأن أريج الزّهور سيُعيد إليه قُوَّتَه. وحدث ما لم يكن عادياً، رأى روبير بأُمّ عينه حُدوثَ المعجزة، انْفَرَجَ الجفْنان عند مُلامسة الزُّهور، ووقَعَت نظْرَةُ كافكا للمرّة الأخيرة على دورا.

هكذا انْطَفَأت شُعْلَةُ فرانتس كافكا.

«اقْتُلْني، وإلّا فأنتَ قاتِلٌ!»، هل يستطيع يوماً ما أن يتملّص مُكْرَهاً من هذه الرُّؤية عن نفسه وهو يدفع المحقنةَ التي من المفروض أن تُخَلِّص صديقَه من معاناته، بجعْلِه ينتقل من الحياة إلى المَمات! تتلاشى تكْشيرةُ المُقاساة ببُطْء لتُفْسِح المجالَ لِقِناع النَّشْوَة الذي يَشِعُّ بالسّلام، وكلُّ أنْفاس الحياة كانت تستسلم في أناةٍ.

يُردّد في دخيلة نفسه: «قاتِلٌ». تلك التي تركب بجانبك ستبصق في وجهك إذا كانت تعْلَم. وبعد ذلك تفتح البابَ وتقفِز من السيّارة المتحرّكة، إلّا إذا قامتْ بحركة مُباغتة فأدارتْ مقودَ القيادة لإلْقاء السّيّارةِ في الخندق.

في براغ، كان سيحرص على إخبار العائلة بظروف موْت فرانتس. لقد تعلّم الكثير من الأشياء في الجامعة، بَيْد أنّ النَّعْيَ لم يكن مُدْرَجاً في المُقرّر. ما الكلمات في المُعجَم العادي التي يمكن أن تُعرِب عن الفاجعة؟ يستعرض على مَمَرّ الأمْيال قائمةَ عباراتِ التّعْزية التي يمكنه إبداؤها. وما مِن عبارة تُعبّر بما يكْفي من القُوّة والصِّدْق عن المأساة التي يُجسِّدُها فُقدانُ مِثْلِ هذا الرّجل، في نظره هو، وفي نظر الأب، والأُمّ، والأُخت، وهو مقتنع بذلك، وفي نظر البشرية جمعاء.

في أحد الأيام، وفي أثناء عملِه مُناوباً في مشفى بودابست المركزي، توفي أحدُ المرضى في منتصف اللّيل، ونظراً لأنّه لم يكن من المُناسب إيقاظُ الطّبيب المساعِد من النّوم، فقد أَوْكَل لنفسه أَمْرَ إخْطارِ الأُسرة. وألْفى ذاتَه في مَمَرّ لا ينتهي، كان في نهايته شخصٌ في عُمْرِه يدْنو منه ـ لقد خَمَّن أنّه ابنُ المريض لأنّه رآه في مناسبات عديدة في الجناح. كان الشّابُّ يَلِحُّ في طَلَبِ معلومات من المستخدَمين، ويستفسر عن جدول زيارات الأطبّاء، ويُطالِب بإبريق ماءٍ، وبطّانية، وتغيير الضّمادَة على نحو عاجل. تقدّم كلٌّ منهما نحو الآخر تحت ضوْء المصابيح السّاطِع، الابن بخُطُوات حازمة، بينما كان هو منحني الرّأس، يُعِدُّ خطاباً كان يُريدُه مُفْعَماً بالكرامة، والإنسانية، والحقيقة.

«لقد مات». كانت هذه هي الجملة الوحيدة التي فتح بها فمَه.

في الغداة، عندما اعترف لرئيس الجناح والقلقُ ينْتابه، بأنّه وجد نفسَه عاجِزاً تماماً في مجابهة المأساة، سمِع الأستاذَ يرُدّ «سوف تعْتادُ ذلك يا ولَدي!». كان يخشى من ألّا يعْتاد ذلك أبداً.

كان يُجْهِدُ نفسَه، بالقُرب من الأُمّ وأوتْلا، في بَعْث أَشَدِّ كلمات الرّاحلِ تأثيراً، ويرْوي لُطْفَه الذي سبق احتضارَه. حتّى إنّه في اليوم السّابق، كما تعلمان، كان يضحك معنا، وكان لا يزال يعمل، ويُصحِّح مُسَوّدات عَمَلِه الأدبيِّ الأخير.

ـ هل كان يتحدّث عنّا؟

ـ باستمرارٍ، كان يرْوي باستمرار، ما انْفَكّ يرْوي الضّحكات، ووجبات أيّام الأحد. ـ وهل كان يتحدّث عن أبيه؟ ـ بالطّبع، كان يتحدّث عن ألْعاب الورق مع أبيه. ـ هل عانى؟ ـ لا، لم يُعانِ. ـ من المُهمّ أنّه لم يُعانِ.

لقد خُنْتَ صديقَك، ومُعلِّمَك، ومُرشدَك. وخُنْتَ المُثُلَ العُلْيا لمهنتك، وذهبتَ تلتمسُ إصْغاءً مُتْرَعاً بامْتِنانِ أُمٍّ، وتَجْتَني الأمجادَ والعِزَّ.

قبل سبعة أشهُر، في منتصف نوفمبر 1923 قَصَدَ شُقَّةَ العائلةِ، والتقى بأبِ الكاتبِ وأُمّه. كان ينْوي الِاستقرارَ في براغ لمُتابعة دراسته، مُعارضاً في ذلك رأيَ صديقِه الذي ما انفكّ أبداً يَثْنيه، وكان يُنذرُه بـ«ظهيرة أيّام الأحد الكئيبة التي لا تنتهي، وباليأس الذي تَشي به الشّوارعُ الفارغةُ». لكنّ براغ كانت تُخاطِبُ روبير. لقد اصطنع منها عالَماً. كان يحلُم بجِسْر تشارلز، وبالدُّروب الضّيقة، وبالمقاهي المُكتظّة. كانت براغ عامِرَةً. غوليم يقع خلف كلّ تمثال، وكلّ ساحة يسكنُها طيْفُ رِوائيٍّ أو شاعِرٍ. أراد مُغادرةَ بودابست، والعيش في براغ عندما كان صديقُه قد وُفِّق أخيراً إلى الهُروب من براغ للاِنتقال إلى برلين الغارقة في الِاضطراب والتّضخُّم. كان الزّوجان يفتقران فيها إلى كلّ شيء، ولم يكن لديهما ما يكْفي من الطّعام. وكان المالُ يُعْوِزُهما، وكما هو الشّأن في ذلك الوقت، كان عَزْمُ روبير الوحيدُ المُعْلَنُ هو إنقاذ فرانتس. لقد عرض عليه جَلْبَ الطّعام والمال من براغ. ولقد توسَّل للحصول على هذا المَنِّ[1] الغِذائيّ والماليّ في منزل العائلة على أمَل أن تقوم جولي كافك بإعْداد صندوق مليءٍ بالطّعام، وأن يضعَ هرمان يَدَه في جيبه.

في ذلك اليوم من شهر نوفمبر 1923، كان يمشي خَلِيَّ البالِ في ساحة البلدة القديمة وهو يشعُر بالفخر والسّعادة عندما استقبله والدُ مُرشدِه.

---

(1) ـ المَنّ manne: الغِذاء الإلهي والمُعْجِز الذي انتفع منه بنو إسرائيل عند عُبورهم صحراء سيناء بعد خروجهم من مصر. وقد ذكره القرآنُ في سورة البقرة (وأنزلْنا عليكم المَنَّ والسّلْوى...). ولا تخفى الدّلالةُ الدّينية التي يقصدها الكاتب...

وكما لو كان قد أثاره فُضولٌ كان على علْم بطبيعته الضّارّة، بدا مُضيفوه له مألوفين بالفعل. كان رأيه في الأب حاسماً، وكان يُحبّ الأُمَّ حيث كان حديث صديقه يقصد أنّ هذا هو الشّعور العامّ. أمّا بالنّسبة للأخوات فكان يُؤثِر أوتلا من دون أن يراها. كان يدري أن كلّ واحد من شُخوص العَشاء قد سمِع عنه بشكل إيجابي. طفق يحلُم بأنّ هذه العائلة ستتبنّاه، وأنّه سيكون في منزلة الثّاني من ابْنَيْ كافكا.

في أثناء سيْره صوب شُقّة العائلة، كان يخطو كعالِم إناسَة، وهو يُلاقي أولئك الذين اعتقد أنّهم مصدر إلهام للنّصوص التي حمله صديقُه على قراءتها. فعاد إلى نَبْعِ الخَلْق، واقتفى آثارَ العبقرية. لقد كان ساذَجاً بما يكفي ليُصدّق بأنّ العناصر التي تُدير قُوى الخَلْق يُجسّدها الأعضاءُ المُحيطون بالمرء، كما كان يأمل في أن يتّخذَه صديقُه يوماً ما نموذجاً. وكان يحلم بأن يغدُو بطلَ رواية.

ظلّ صامتاً لفترة طويلة، وكان يُراقب المُتعَشّين حول المائدة، كما لو كان يلحظ من خلال عينيْ شخصٍ آخر، ويُعيد تفسيرَ كلِّ إيماءةٍ، وكلِّ حوارٍ في ضوء ما سمعه من فَم صديقه. لكن سرعان ما تلاشت ذكرى الكلمات والكتابات خلف الأحاديث، فَثاب إلى الواقع. كلّما كان الأب يتحدّث كان يفقد صفات الرّعْب والجبروت التي اتّصف بها، كما لو كان شيءٌ من التّغيُّر يطرأ عليه. أمّا الأُمُّ، فمَهْما بَدَتْ لطيفةً وحَفِيَةً، ألَم تكن تُجسّد صورةَ القداسة التي وُصِفَتْ له. كانت الأقنعة تسقط، والواقعُ يُزيحُ الخيالَ ويحُلّ محلَّه. كان روبير يشهد أُعجوبةً في هذا المسرحِ الحميم للحياة الأُسرية الذي عُرِض أمامه، مسرحٍ مأساوي كان البطل فيه هو الغائبَ الأكبرَ، رأى الممثّلون أنفسهم لا يُظهرون بَهْرَجَةً تُزيِّف واقعَهم، وقد تحوّلوا على مرأى

منه إلى أفراد عائلةٍ خَبرَت الحظَّ، وعانت الحَظَّ العاثِر بسبب إنجابها لابنٍ مثلِ فرانتس.

شأنها شأن عائلة كلوبتسوك، ولكن في براغ بدلاً من بودابست، انتقلت عائلةُ كافكا في أقلّ من جيلٍ، من حياة يهودية بائسة عرفت الإِستعبادَ تحت نيْر الكراهية، إلى الحياة اليومية المُنظّمة جيّداً للبورجوازية الثّريَة في المدينة، والمختلفة عن البورجوازية الأصلية. لأنّ ظِلَّ وذكرى الأزمنة الرّهيبة في الماضي، وتهديد الكراهية الذي لا يزال قائماً، كانت تَرينُ عليها دائماً.

كلّما كان المساء يمْضي؛ كان هيرمان كافكا يبْدو مُتَّسِماً بِسِمات بعيدة كلَّ البُعْد عن صفات الطّاغِية العائلي. اتّخذت استبداديتُه المألوفةُ طابَعاً وُدِّياً وبشوشاً. لقد أنشأ يحكي مفتخِراً ـ كما كان بيّن فرانتس ـ يحكي باهْتمام ونَهَمٍ الرّوايةَ العائليةَ، شارحاً كيف استقرّ في براغ قبل عُقود. كان يبدو كأنّه يستمتع بسَرْد مصائب طفولته، واصِفاً تَكالُبَ الآفات عليه التي جعلت منه الرّجلَ الذي كان عليه.

وبنبْرة فيها شيْءٌ من التّصنُّع لأُستاذ التّاريخ الذي كان سيشهد كلَّ الحقائق التي يرويها في مُقرَّرِه، حكى بإسْهاب كبير العالَمَ الذي وُلِدَ فيه، وكان فترةً قاسيةً وعنيفةً يسوسُها العُنْفُ وتُهدِّدُها المذابحُ، لا يُشبه بأيّ حال من الأحوال العالَمَ الذي كان من حظّ أطفاله أنّهم عاشوا فيه. لكنّنا عملْنا بكَدٍّ، وسعيْنا إلى التّحرُّر والاِنْعتاق، وكُنّا قد تركْنا قريتَنا الأصليةَ، وقصدْنا العاصمةَ. كان العملُ هو القيمةَ الأساسيةَ للحياة، ومَعْنى الجهْد، ونتيجتَه الطبيعية. كان قيمةً عند جميع الطّوائف الرّئيسة الثّلاث في مدينة براغ، التشيك، والألمان، واليهود. «ستقول لي أيُّها الشّابُّ إنّ اليهودية ليست

جنسية، حسناً، أنتَ مُخطئٌ، فاليهود مُصَنَّفون على هذا النّحو من قبل الجمهورية الفَتِيَة، التي يرأسُها ماساريك الرّجل الوطنيّ، وقوانينُها تُشجّع أفراد هذه الطائفة على خَتْم جنسيتهم *اليهودية* على جواز سفرهِم باعتبارها حقّاً جديداً سيُمنَح لهم. عندما ادَّعى اليهود سابقاً أنّهم من التشيك، كان التشيك يُحبّون تذكيرَهم بأنّ الامبراطورة ماري تيريزا أصدرتْ في عهدها مرسوماً يهدف إلى طرْدهم من براغ. اسْمعْني أيّها الشّابّ، إنّه مرسوم صدر عام 1744، مشابهٌ للمرسوم الذي أصدره سلفُها الامبراطور فرديناند الأوّل، حاكم هابسبورغ، قبل قرنيْن من الزمن، وهو أقلّ شناعةً منها، والذي فرض على اليهودي حَمْلَ شارةٍ مُمَيَّزَة عند مغادرته الحيَّ اليهودي في براغ. لكن ينبغي أن تعلم أنّ أكثر الإهانات تواتُراً؛ والتي وُجِّهَت اليوم إلى اليهود عام 1923، هي: (فاسدون وخونة يعملون لحساب الألمان)، وهو ما يُمثّل سُخرية الوضْع، لأنّ الألمان يُغَذُّون تجاه اليهود مشاعرَ كراهيةٍ أشدّ عِناداً وإصْراراً من كراهية التشيك، وهذا بلا شكّ هو الشيء الوحيد المشترك بين الألمان والتشيك، الذين لا يعْدمون كراهيةَ بعضهم بالقدْر نفسه».

وتابع هيرمان كافكا: «سأُخبرك أيضاً، حتى تُقَدِّر من أين أتيْنا، والطّريق الذي عبرناه خلال نصف قرن؛ بأنّ أبي يعقوب، جدّ صديقك فرانتس، كان جزّارَ كاشير بسيطاً من قريتي أوسيك مسقطِ رأسي. ويعقوب مدينٌ بإنْشاء عائلته فقط لإلْغاء قانون عام 1849». وأشار هيرمان بأنّ القانون الأثيمَ، الذي أُلْغِيَ قبل عاميْن فقط من ولادته؛ كان لا يسمح بالزّواج وإنجاب الأطفال إلّا للطّفل البكر، أمّا بقية الأشقّاء فكان يحظُر عليهم الزّواجَ. وكان الهدف الصّريح هو الحدّ بشكل كبير من السّكّان اليهود في الإمبراطورية النّمساوية المجرية. لم يكن لليهود الحقُّ في أن يولَدوا.

قال هيرمان ساخراً: «ومع ذلك، هل يمكننا أن نقول إنّ لهم الحقَّ في الحياة؟». كانت زراعة الأرض محرَّمةً عليهم، مثلما حُرِموا ـ ويا لَلمفارقة الكبرى ـ حقَّ العيش في المدن الكبرى، ومزاولةَ معظم المهن، وبالطّبع حُرموا الالتحاق بالجامعات. لكنّهم شُجِّعوا بقوّة على الانْضمام إلى الجيش، من دون أن يكون بمستطاعهم المطالبة برُتبة ضابط. «ولذلك كان الموت في جبهة القتال أحد أكبر الآفاق في حياتهم، إذا جاز لي التعبير على هذا النّحو من دون أن أصدمك بوصفك طالبَ طِبٍّ».

أصغى روبير شارد الذّهن إلى الخطاب. لقد كانت الحكاية المتحذلقة نفسها التي سُمِعَت مرّات عديدة من فم عمّه أو جدّه. إنّها اللّازمة المُضجِرَةُ عن المعاناة اليهودية. لقد سَئِم روبير المعاناة اليهودية، وباتت هذه المعاناة جزءاً من الماضي. تخلّصت روسيا في هذا العام 1923؛ من القيصرية والمذابح، وفتحت الثورةُ السوفياتية آفاقَ عالَمٍ جديد. وفُكِّكَت الإمبراطورية النّمساوية المجرية والامبراطورية البروسية، وسارت هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا على درْب الديموقراطية. يعتقد روبير أنّ اليهود اليوم لم يعودوا يُمثّلون حالةً خاصّة ومنعزلة. كان القرن العشرون بالنسبة إليهم كما بالنّسبة إلى العالَم أجمع؛ بمثابة مستقبل ساطع. فالشمس التي كانت أشرقت على أنقاض الحرب؛ ستُنير البشرية جمعاء عمّا قريب. وتابع هيرمان: «ينزع فرانتس إلى نسيان أُصوله، وذلك لأنّني، يا عزيزي روبير، لم أترعرع في أحياء براغ الجميلة! وعندما كنتُ طفلاً لم أنْشَأْ في الغرابن[1]!».

---

(1) ـ غرابن: أحد أشهر الشوارع التجارية في براغ، ومن أشهر المناطق والوجهات السياحية فيها.

وهو يُصْغي إلى هيرمان كافكا يهْذي، فكّر روبير في ما أَسَرَّ به إليه فرانتس: «منذ عهد قريب، تخيّلتُ أنّ أبي كان هزمني عندما كنت فتى صغيراً، وبأنّ الطُّموح منعني من مُبارحَة ساحة المعركة طوال هذه السّنوات كُلِّها، على الرغم من أنّني هُزِمْتُ باستمرار».

تدخّلت جولي كافكا:

ـ يا عزيزي، لا تُعِد الكَرَّةَ، لِذا، اترُكْ هذا الشّابَّ وشأنه!

ـ أُعيد الكَرَّةَ؟ ما أنا إلّا في البداية! ينبغي له أن يعرف من أين جِئْنا، والدَّرْبَ الذي عبرْنا. هذا أمرٌ مُهمّ. وأنا متيقّنٌ من أنّ فرانتس لم يُنْبِئْه بأيّ شيء. هل حدّثك فرانتس عن هذا الموضوع؟

ـ تحدّث عمّاذا؟

ـ عن طفولة أبيه.

ـ ليس إلى ذلك الحدّ.

ـ ليس إلى ذلك الحدّ؟ لكن ما الذي تتحدّث عنه مع فرانتس؟

ـ يا عزيزي! وروى هيرمان كافكا طفولتَه من دون أن يستحِثَّه أحدٌ على ذلك، طفولتَه الرّهيبة في قرية أوسيك، في بوهيميا، بالقرب من ستراكونيتز، في 35، شارع اليهود، حيث وُلِد ونشأ في هذا المنزل المُكوَّن من بهْوٍ وغُرفتَيْ نومٍ، يشغل إحداها أطفالُ فرانسيسكا ويعقوب السّتّة، وهو جزّار بحسب المهنة، وجزّار كاشير بعبارة أخرى. وماذا كان يفعل عندما كان في العاشرة من عمره، لمّا كان فرانتس، الذي يتذمَّر طوال الوقت من طفولته، يلعب على ضفاف نهر فلتافا؟ كان هيرمان، في سنّ العاشرة، يدفع

عربةً من قرية إلى أخرى، حتّى في الشّتاء وفي الصّباح الباكر، وكان الصّقيع يَهْرِس ساقيْه. كان يحمل الذّبائحَ التي ذبحها أبوه يعقوب كافكا، الجزّار البسيط من أوسيك، جدّ الكاتب الكبير الموظّف في مكتب التّأمين!

ـ كَفى، يا هيرمان!

ـ أوه! من الواضح أنّ الأمر يُثير الغيظ كلّما تعلّق بفترة شبابي! وينبغي القول إنّي لم أشهد في فترتي هذه ما شهدْتِه أنتِ في شبابك من أيّامٍ سعيدة، وإنّي لم أُولَد في بودبرادي! ولم يكُن أبي تاجرَ أقمشة مثل يعقوب لويْ، ولم أعِشْ في السّاحة الكُبرى بالمدينة مثلما عاشت فيها أُمُّكِ إيستر بورخيس!

ـ أنت، أنت، أنتَ!

ـ ولم نكن نُقيم في منزل ذي طابَقٍ، في 17، ساحة السّوق!

ـ هل تريد منّي أن أُذكِّرَك، يا هيرمان، بأنّ أُمّي ماتت بسبب التيفوس في عامها الثامن والعشرين، عندما كنتُ في الثالثة من عُمري؟ وأنّ جدّتي، من جرّاء اليأس، انتحرتْ بإلقاء نفسها في نهر الإلب، بعد عام من ذلك.

ـ إنّما أردتُ أن أشرح لهذا الشّابّ أنّ فرانتس إذا كان ينْعَم بحياة مُريحة اليوم، فذلك بفضل تضحيات عائلته... ولا يمكننا القولُ إنّ الاِمْتنان ميزةٌ أساسٌ عند ابني.

ـ كلّ الشّباب على هذه الشّاكلة، يا هيرمان.

ـ حسناً، كنتُ أتمنّى أن يكون فرانتس مختلفاً عن الآخرين. أهذا طَلَبٌ مُبالَغٌ فيه؟

ـ من رجل في سنّ الأربعين؟ تدخّلت أوتْلا.

ـ أهي مسألة عُمْرٍ؟

وتابعت أوتلا:

ـ يا روبير، حَدّثْنا بالأحرى عن نفسك، أنت قادم من بودابست، أليس كذلك؟ وأنت طالِبُ طِبٍّ.

ـ آه، لو كان فرانتس يستطيع متابعةَ مثلِ هذه الدّراسة؟

ـ لكنّ فرانتس درس دراساتٍ رائعةً!

ـ ولو كان الأمر قد انتهى به في مكتب التّأمين، لكان بمستطاعه الاِستغناءُ عنه. بما له من مؤهلات، وذكاء...، لو كان قد عَمِل، لكان بإمكان فرانتس... أن يُصبح محامياً، أو من الأفضل أن يتولّى شؤونَ متجرنا في قصر كينْسْكي، أو...

ـ وماذا أيضاً؟

ـ أن يغدو قائدَ صناعةٍ، هذا كلّ شيءٍ، وعندها...

ـ ما معنى وعندها؟

ـ أَلا تعتقدين أنّ مكتب التّأمين هو مضيعةٌ للجهد وإهْدارٌ للوقت؟

ـ طالَما أنّه سعيد.

ـ لكنه ليس سعيداً! أعتقد أنّني لم أَرَ هذا الفَتى سعيداً قَطّ! ومع كلّ ما قُمتُ به من أجله... هل رأيتَه سعيداً يا روبير؟ هل هو سعيد في برلين؟

ـ إنه سعيد أكثر من أيّ وقت مضى، على ما أعتقد.

ـ ماذا تقصد بسعيد أكثر من أيّ وقت مضى؟

ـ هذا ما يوحي به، وما يُظهِرُه.

ـ في برلين! في هذا البرد القارس، ومع هذا البؤس!

ـ يبدو لي.

ـ ولكن، إذا كان سعيداً إلى هذا الحدّ، فربّما لم تكن تحتاج إلى جَلْب الطّعام والمالِ له...

ـ هرمان!

ـ أَأنا أكذب؟ أوه! من الواضح أنّه ما إنْ ينْأى عنّا حتّى يغدُو السّيّدُ سعيداً! لكنّه لا يزال في حاجة إليّ لأدْفَع له ثَمَنَ سعادته، أليس كذلك؟ فهو لا يستطيع تحمُّلَ تكلفة سعادتِه بنفسه!

ـ هرمان!

ـ علاوة على ذلك، أتساءل إذا لم تكن سعادتُه تكمن فقط في أن ينْتَئي عنّا، وينْتَئِي عن أبيه!

ـ ربّما... همستْ أوتلا.

ـ ماذا تعنين بربّما؟

ـ ربّما أنتَ على حقّ يا أبي.

ـ آه! تُثبتين الآن أنّي على حقّ! أسمعتِ هذا يا جولي، ابنتُك تُثبت أنّي على حقّ. لقد سمعتُ كلَّ شيءٍ في حياتي!

بَتَّت الأُمُّ في الأمر قائلة: ـ يا هيرمان توقَّفْ عن سرْد قصصك، ودَعْنا

نأكُل في طمأنينة. وأخبرْنا يا روبير، اِحْكِ لنا بدلاً من ذلك كيف التقيْتَ بفرانتس، وكيف غدوتَ صديقَه.

لقد كان الصّديقَ والخليلَ النَّجِيّ، والطّبيبَ لرجلٍ ستسِم حساسيتُه وذكاؤُه تفكيرَه بشكل نهائي. كان لهذه الصّداقة طَعْمٌ مختلفٌ تماماً عن تلك التي جمعت بين كافكا وبرود. لم تكن هذه الصّداقة قد عُمِّدَتْ على مقاعد الدراسة في الكُلّية، وإنّما في ضوء المرض والموت، بعيداً مِمّا يُميِّز الحُبَّ في فترة الشّباب من لامُبالاةٍ وعدم اكتراث، والخلافات الفلسفية والأيديولوجية، وحدائق جامعة براغ حيث التقى ماكس وفرانتس. غاصت صداقتُهما في العُزلة المريرة لِغُرَف المصحّة، وفي الأيّام التي تبدو وكأنّ لا نهاية لها على الإطلاق. وفي تناوله طعام الغداء والعشاء مع كافكا، واجْتِنائه من معرفته ونصائحه، وتنقيبه عن الذّهب والتقاطه لِشُذورِه، كان روبير يُشاركه معاناته، وكان هو نفسه يُعاني. كان يستنشق بذات النَّهَمِ الهواءَ النَّقِيَ الذي من المفروض أن يُنقِذَه، ويتناول اللّتْرات نفسها من القشدة الطّازجة، ومئات اللّترات من الحليب الذي من المفروض أن يخلِّصَه من المرض. كانا يسيران جنْباً إلى جنْب في المسالك الجبلية، يُشجِّعُ الواحدُ منهما الآخرَ على عدم الِاستسلام، لأنّ كلّ خُطوة كانت تَنْشُدُ إطالةَ العُمْر، في ثُلوج مرتفعات تاترا، لضمان صحّةٍ أفضل. كلاهما يشتهي الشّابّات المريضات بالرّغبة المكتومة نفسها، ويرغبان في الِاستمتاع بطاقة شبابهما الحيوية، ويأْبيان الِاستسلامَ والتّنازُلَ مثلهنّ، ويخشيان الإصابةَ بالعدْوى أو الموت مثلهنّ، ويُراقبان بعضهما بعين الرّيبة، وهما يُضمِران البسْمَةَ، وينظران نظرات مضطرمة، وبعيْنيْن محمومتيْن. كلاهما تعاطف بالحماسة نفسها مع الجار الذي مات في اليوم السابق، وهو يُعاني معاناة بغيضة بعد

أن سمِعا صرخاته الرّهيبة تملأ اللّيلَ، ومع الرجل العجوز الذي قضى نحبَه البارحة هادئاً وأَبِيّاً حتّى في تكَتُّمِه عند رحيله، تأْبى عليه حصافتُه، كرجل عجوز، أن يُزعِج موتُه الحياةَ اليوميةَ القائمةَ للشّباب المحيطين به. كان روبير قد تقاسمَ الخوْفَ من الموت طوال أشهُر، مع صديقه ومُرشده وأخيه، والخوفَ من الحُمّى، والخوفَ من ضيق النَّفَس، والخوفَ من السُّعال، والخوفَ من فُقدان الوزن، وكان يخْطو معه على شَفا الهاوية جنْباً إلى جنْب، يرقُص في كوابيسه على رَماد المُحتضَرين، ويرقص مع الملائكة السُّود الذين يحومون في سَماءِ مصحّة ماتلياري الزّرقاء الصّافية، يرقص مع الموت، ومع فرانتس كافكا.

إنّه يقود سيّارتَه في هذا الطّريقِ الذي يمتدّ من فيينّا إلى براغ، طريقٍ يخْتِم الغَدْوَ والرَّواحَ المُتواصل في هذه السّنوات الأخيرة بين بودابست وبراغ، وبراغ وبرلين، وبرلين وفيينّا. كانت أوربا بمثابة مِشْوارٍ كبير لترويض الخُيول، حيث كان يمْتطي خيلَه واحداً تلو الآخر. اِنتهى المِشْوارُ، وانتهى الاحتفالُ الشّعبي، ويتعيّن عليه أن يترجّل عن صهوة جواده، وأن يرحلَ عن وسط أوربا المنهوكة. ليست براغ إلّا مدينة أشباح من دون كافكا، ليست أفضلَ من بودابست. وليست سوى فيينّا الواهنة، ومقاطعة برلين الحكيمة. اذهبْ للعيْش في باريس، ولِمَ لا في نيويورك. اذهبْ لتكتشف قارَّةً جديدة بعد أن عبرْتَ قارَّةَ كافكا.

طفق المطر يهطِل من جديد. يُصيبُه الإنهاكُ، وتخْذلُه قُواه، ويُعوِزُه النّومُ، ويفتقِد صديقَه.

كتب إليه فرانتس:

«عزيزي روبير، أرجوك لا تغضبْ، أو ما يجْري مجراه، لا تقلقْ، فالأمر واضحٌ، الآلهة تستهتر بنا، لكنّنا لسنا سِيان في استهتارِها بنا، لذا ينبغي لنا أن نسعى لنُعوِّض عن ذلك عن طريق بَذْلِ جهْدٍ خارق».

متفائل ويائس، الأمر سيان كما يعتقد. الخيال هو الذي يتصرّف، ويتصرّف على نحو مُفرط كدأبه معنا دائماً. كان صديقه يقول «نحن»، وهو يضُمُّه إلى شخصه الجليل، وكانت هذه الوحدة التي يُشكّلانها كافيةً لإسْعاده. أنتمي إلى تشكيل يتألّف من إنسانيْن، كلوبستوك وكافكا، اتّساق حرفيْ الكاف. كان صديقه ومعلّمه يوصيه بقراءة كيركجارد، هو الغارق دائماً في قراءة كُتُبِ هذا الفيلسوف. قال إنّه وجد فيه مِرآةً ومَنارةً، حتى إنّه عَهَد إلى روبير بنسخته من *رسالة في اليأس*، مع مقطع شرحه بخطّ يده في الكتاب الثاني (عمومية اليأس):

«فبما أنّه لا يوجَد ـ بحسب رأي الأطّباء ـ أَحَدٌ يتمتّع بكمال الصّحّة، يجوز لنا أيضاً أن نقول ـ اسْتناداً إلى معرفة جيّدة بالإنسان ـ إنّه لا يوجَد شخصٌ واحدٌ معصومٌ من اليأس».

وهذه الجملة مشروحة بخطّ اليد أيضاً، وهي الأثيرة عنده:

«اليأسُ الذي يضيع في اللّانهائيّ تخيُّليٌّ».

نعم، هذا ما في الأمر ببساطة. لقد عانى ـ *نُعاني* ـ فَيْضاً من التّخيُّل. وكان المُذنب الأكبر هو خياله، كان يتخيّل دائماً الأفضل، أو يتخيّل أيضاً الأسوأ في كثير من الأحيان. كان هذا هو المرض الذي كان يُعانيانه، مرض التّخَيُّل.

وأوضح كيركجارد أم كان كافكا هو الذي أوضح، *أنّ التخيُّل هو الذي ينقل الإنسانَ إلى اللانهائيّ*، كلّ شيء يختلط في ذهنه المُتْعَب من هذا

الطّريق. كلاهُما عانى، يُعاني تضخُّمَ الخيال. بعض النّاس يُعاني تضخّمَ الغُدّة الدّرقية، والبعض الآخر يعاني تضخّمَ الأنا، أمّا نحن، فرانتس وهو فيُعانيان التّخيُّلَ، تَخيُّلاً مُفرِطَ النُّمُوّ كان قد غزا جزءاً من فَصِّهِما، الفصّ الصُّدْغِيِّ، فصِّ العواطف، هذا هو، إنّه وَرَمٌ حقيقيٌّ للتخيُّل. هذا التّخيُّل الدَّنيءُ الذي يقودنا إلى اليأس عن طريق اللّانهائي. كان من الواجب مُقاومةُ هذا التضخّم، والإسْتِجارةُ بالحدود الداخلية، وإراحةُ الدّماغ، والإنْصِياعُ لضرورة الواقع، والكفُّ ببساطة عن التّخيُّل. لم يكن من المفروض أن يكون الأمرُ مُعَقَّداً إلى هذا الحدّ، وكان الأمر حَقيقا بكلّ هذا العَناء. بأن يضعَ المرءُ حدّاً لِيَأْسِه، ويستنْكف عن إلْقاء نفسِه في الهاوية، وعليه أن يغدُوَ شخصاً حُرّاً، وأنْ يكْبَح جِماح تخيُّلِه كيما يُقَلِّص مجالَ الِاحتمالات، مُعْلِناً: *كُلُّ شيءٍ ممكنٌ مع اللّه*! لكنّه لا يُؤمِن باللّه، لأنّ روبير كلوبتسوك يهودي مُلْحِدٌ، حتّى لو كان الِاعتقاد بعدم وُجود اللّه، فربّما يكون، بالفعل، اعتقاداً بالله. كتب كيركجارد: « *أنْ يفقد المرءُ عقلَه في سبيل الاِهتداء إلى الله؛ هو فعلُ الاِعتقاد ذاته* ». لكن أن تفقد عقلَك من دون أن تهتدِيَ إلى أيِّ شيءٍ هو بمثابة فِعْلِ امرئٍ مجنونٍ، وعلى الرّغم مِمّا رَدَّدَه ماكس برود لمن أراد أن يسمع منه، فإنّ روبير كلوبتسوك لم يكن مجنوناً، بل كان ببساطة يتمتّع بخيال واسِع، نال منه التّعبُ، وجعله الإرهاقُ يهْذي في أثناء القيادة، وهَيَّجَ خيالَه. كانت أُمُّه تُعاتِبُه من قبل عندما كان طفلاً، «لديك خيالٌ واسِعٌ»، وكان أساتذتُه في كُلّية الطّبّ يخاطبونه حينما يُشَكِّك في تشخيصهم: «لديك خيالٌ واسِعٌ»، طُوبى للأشخاص الذين لا يُشَكِّكون أبداً، وللأغبياء المُمتلئين ثِقَةً، الخلاصُ في المستحيل الإنسانيّ. كان ينبغي له أن يضعَ حدّاً لتخيُّلِه اللاّنهائي كيما يصْرِم يأْسَه اللّانهائيّ.

لقد أهْدَرَ شبابَه على مقاعد قاعات المحاضرات بكُلّية بودابست، ولقد أضاع الكثير من الوقت. أراد منذ الآن أن يَرى العالَم. كان يستخِفُّ بِنَيْل شهادته، ولا يأْبه للإِعتراف الرّسميِّ. وكان يعرف أكثر من العديد من الأطبّاء. كان لديه كتابٌ يكتبُه، ويحلُم بحياة على شاكلة تشيخوف. الهيجان المُعَذِّبُ للعُزلة المُبدِعَة، والرّصانة المُثابرة التي تَكْلَأُ بُؤساءَ سيبيريا وتعتني بهم. كان كافكا يقول: «الله لا يُريدُني أن أكتب، ولكن ينبغي لي أن أكتب، والله ـ في آخر الأمر ـ هو الأقوى دائماً».

«اللّه هو الأقوى دائماً»، هذا ما رَدَّدَه روبير لنفسِه، وهو يقود سيّارةَ الفوكسهول في الطّريق الرّابط بين فييننّا وبراغ.

دورا

يحسبُني روبير نائمة. أنَّى لي بالنّوم والحبيبُ مفقود؟ بجفْنَيْن مُسْبَلَيْن يتراءى لي الشَّقاءُ يُضيءُ طريقي على نحو أفضل، أَوَدُّ رُؤيةَ الشّقاء ينتصبُ كلَّ يوم، يُدَفِّئُني عند الفجر ويثْوي في روحي حتّى أسحق عُهود التّاريخ. لا أُريد أن أُؤَدّي أيَّ مهمّة أخرى على وجه الأرض سوى أن أدور ببُطْءٍ حول الذّكْرى، وأَفْني أيّامي بالقُرب من رمْسِك.

لا تلُمْني يا حبيبي لأنّي ما زلتُ حَيَّةً. أقسمتُ على سرير مُعاناتك ألّا أبْقى على قيْد الحياة بعْد موتك. عندما قلتُ لك وداعاً؛ كنت أُخَمِّن في (إلى اللّقاء) وفي (نلتقي بعد حين)، يا محبوبي، ألقاكَ غَداً، ابتداءً من جسر تشارلز كيْ أنضمّ إليك في قرارة البحر. انتظرْني، يا حبيبي الغالي. وروبير هو الجاني المسؤول عن تأخُّري الدّنيء. فبينما كنتُ أتخطّى الحاجزَ للاِنضمام إليك، ظنّ صديقُك أنّه كان يفعل خيراً إذْ يُمسك بذراعي. لقد أوسَعَني كلاماً نابياً يرومُ منْعي. ملعونٌ روبير كلوبتسوك الذي ينْكُثُ عَهْدَ الأبدية، ويُؤَخِّر ساعةَ التّلاقي.

أأبقى بعد غيابك؟ أتظنُّني قادِرةً على ذلك؟ هل جعلتُك تحمل رأياً سيّئاً عنّي خلال الأشهر القليلة التي أنفقْناها معاً؟ أعدِك يا حبيبي، أنّنا سوف نسبح في النّهر نفسه. ولن يكون روبير موجوداً هناك ليُمسِك بذراعي. عندما تقْرَع كنيسةُ القدّيس نقولا أجْراسَها الاثْنيْ عشر؛ سأَثِبُ

يا حبيبي عن الجسْر الحجَريّ العظيم، لأنضمّ إليك أخيراً. عُشّاقُ نهر اللّاعوْدةِ سُعَداءُ.

ما جدوى أن تكون إذا لم يعُد حبيبُك موجوداً؟ العالَم أرضٌ يبابٌ إذا لم تعُد هُنا لتقول ذلك. العالَم بيْداءُ؛ روحي فيها ظَمْأى.

أنا لا أومِن بالحُبّ، بل أومِن بأنّنا مُختارون. سأذهب هذا المساء إلى براغ، أمْشي في الأماكن التي كنتَ تسير فيها، سيصْدَحُ الهواءُ باسْمِك إذْ أطرقُ على البلاطِ. وأنا متيقّنة من أنّ روحَك تُحلّق فوق السُّطوح.

يا حبيبي، و يا حُزني، أودّ قبل الخلاص أن أذهبَ للصّلاة من أجل الشّوارع التي شهدتْ حياتَك، وأُؤَدِّيَ حجّاً كبيراً، وأُبَشِّرَ بإيمانك، وأجوبَ أطراف كلّ الجادّات، وأُخبرَ كلَّ عابرٍ بالرجل الذي أفتقد، رجلٍ عبقريٍّ وشاعرٍ ونصفِ إلهٍ ونصفِ إنسانٍ، ونبيٍّ معاصرٍ، أقول له يا لَه من رجل رائع لم يعرف أحَدٌ كيف يُرحّب به، ولم يعرف أحدٌ كيف يستبقيه، ولم يعرف أحدٌ كيف يَشْفيه. لم يعرف أحدٌ كيف يسمع منه حقيقة العالَم، وعظمةَ الإنسان، وبُؤسَه الأبدي.

سأُخبر أُمَّك كَمَ كان ابنُها محبوباً، وكَم كان مُحِبّاً، ولمُواساتها في هذا المصاب الجَلَلِ سأكتُم محنتَك، وأكتم جوعَك وعطشَك، وآهاتك واسْتغاثاتك، وتباريحَ ألمِك التي ألْهَبَتْ حلْقَك. سأقول إنّك رحلْتَ مُطمئِنّ النَّفْس، من دون إحساس بأيّ ألَمٍ. أودّ رؤيةَ وجهها ليُذكّرني بوجهك، وأضُمُّ إلى جسدي هذا الجسدَ الذي أرْضعك، وأمزج دموعي بدموعها.

سأذهب لرؤية أبيك، لأنّني يجب أن أخبره بأنّك صَفَحْتَ عنه، وأنّه لا

يوجَد أيُّ خطأ، وأنّه لم يقترف أيَّ ذنبٍ. كلُّ هذا؛ وقضية الآباء والأبناء هذه ما هي إلّا سوءُ فهْم بسيط وفظيع. وعلى أيّ حال، أليس الآباءُ أبْناءً مثل سائر النّاس؟

لو كان لديّ مُتّسَعٌ من الوقت، ولكنّ وقتي محدود، لذهبتُ أُلاقي أولئك الذين عرفوك، وأتنسَّم حضورَك في أعماق ذاكرتهم، أحْشُدهم في ساحة البلدية، يأتون لتقديم شهادتهم، أمام المدينة برمّتها، والنّاس كافّة يُصْغون إلى قصصهم تُذَكِّر بالمغامرة الهوميرية لعوليس براغ.

لو كان لديّ فَضْلٌ من الوقت، ولكنّ وقتي معْدودٌ، كنتُ سأستقلّ القطارَ، وأذهب إلى مدريد لرؤية هذا الخال، الذي كنتَ فخوراً به للغاية، وكان يُدْعى لُوي، ألفريد لُوي، وكنتَ تُحبّ نُطْقَ صفتِه: المدير العامّ للسّكك الحديدية الإسبانية. وشقيق أُمِّك الآخر، المُغامر الكبير، المُؤسّس الشّهير لشركة كونغولية. عندما كنتَ تذكُر قصَّتَه، كُنّا في المعرض العالَمي، وكنتُ أُحِبُّ قضاء بعض الوقت أمام مَشْرَب جِعة كوسير، الذي كان عمُّك رودولف يعمل فيه، وكان أبوك يُلقِّبُه بالمُفْلِس، لأنّه دخل المسيحية.

ولكن ليس لديّ وَقْتٌ، ما الوقت الذي أملك إلّا لكَ، ولِتَدانينا من جديد.

أمس، وفي الوقت نفسه، كنتَ على قيْد الحياة، والآن صِرْتَ إلى العَدَم. كيف نتخيّل أنّك ما عُدْتَ موجوداً اليوم، وأمس كنتَ حيّاً، فكيف يمكن أن يكون العالَمُ مُشرِقاً، وفجأة يغْدو مُعْتِماً؟ أنفقنا في العيْش أحدَ عَشَرَ شهْراً من الغَرام المُضْطَرِم، ومن الحُبّ المطلَق، الذي لم تَخْبَرْ مثلَه من قبل، ولقد أَنْبَأْتَني بنفسك بهذا. أمّا مع ميلينا فتلك قصّة أخرى، وأمّا مع فيليس فليس الأمر ذا شأْن، أمّا بالنسبة للأُخريات... كان حُبّاً جليلاً لم يُعْرَف مِثْلُه

من قبل قَطّ، في صقيع وسَغَبِ هذا الشّتاء القارس، وحياة البُؤس هذه التي أجاعَتْنا، ولكنّك قلتَ إنّ الحياة لم تَهَبْ لك شيئاً كهذا من قبل.

كيف أجرُؤُ على أنْ أوجد هُنا وأنت رحلتَ عن العالَم؟ لقد تركتني في صراع مع هذه الأرض المُعادية والمقيتة، حيث ما عاد فيها شيء يُشْتَهى ويُتَمَنّى عندما عَدِمَتْ وَقْعَ خُطاك عليها. قال لي بْرود في كيرلينج: «سيظلّ فرانتس حَيّاً من خلال كتاباته». وكأنّ كتاباتك تُضاهيك. سأهَبُ كُلّ كتاباتك لِقاءَ لحظة واحدة من حُضورك.

أتتذكَّر يا حبيبي؟ كُنّا نقود السّيّارةَ في طريق فيينّا، وقد مضى على ذلك أقلّ من شهْر، وكان سفرُنا في العاشر من أبريل. غادرْنا فينرفالد ومصحّتها، وكُنّا نقصد فيينّا لإنقاذ حياتك. كانوا قد أكّدوا لي أنّ البروفسور هاجيك هو الوحيد القادر على علاج حالتك، التي كانت تسوء باستمرار. في الطريق إلى فيينّا كان أَلَمُك يُوَحِّدُنا، لكنّنا نتزوّد بشيءٍ من الأمل، أنتَ وأنا جنْباً إلى جنْب في سبيل الرّحلة الأخيرة، مَعاً يا حبيبي، ويا وَجَعي، ويا هَمّي الكبير. كان بْرود يقود السّيّارة، وكان المطر يهطل سلفاً، يهطل منذ أربعة أسابيع، ولم يستطع ماكس أن يعثُر على عَجَلٍ سوى على سيّارة مكشوفة، وكيما أحميك يا حبيبي من المطر الذي كان يتساقط، لم أكُن أملك إلّا بطّانيةً من الصّوف، كُنّا نقود السّيّارةَ بسرُعة كبيرة. كُنّا نقود بسرعة، يا حبيبي، ويا وَجَعي، يهطل المطرُ علينا، وينهمر من السّماء، وينساب من دُموعي. كُنّا نقود السّيّارة بأسرع ما يُمكن لنوصِلَك من غير أن تتبَلَّل بماء المطر، فَنَقيك من الألمِ وسيُولِ المطرِ، نحو جناح البروفسور هاجيك. كنتُ أهمِس باسمه مثلَ اسْمِ مُنْقِذٍ، وحَجَبَ اسمُه المُوَقَّعُ وَقْعَ المطرِ، ووَقَعَت الواقِعةُ، كانت السّماء تُمطرُنا، وكنّا نحسب أنّنا سنشفيك، يا حبيبي، ويا وجعي،

كنتَ صامتاً في الخلف، وكان ماكس يقود بنا السّيّارة، رِئتاك مُدَمَّرتان، وحلقُك مُصابٌ، غير أنّ الأمل أفْعَمَهُما.

والآن، من دونك، بعد أربعة أسابيع، في عربة الموتى الكبيرة هذه، وكلوبستوك خلف المقود، في الطّريق نحو براغ.

نتظاهر بتجاهله، أنت وأنا جنْباً إلى جنْب، نُخادع نفسيْنا واثقيْن أنّك ستصرِف النّظرَ عنه هذه المرّة أيضاً، أَلَمْ تنتصر من قبل على الحُمّى الإسبانية؟ أنت، كنتَ تعرف سلفاً في الطّريق إلى فيينّا، كنت تعلم منذ برلين، أنتَ أوّل من يعلم بلدغات الموت، كان الموت ينهش حنجرتك، بعد أن ضَرَّسَ رِئتيْك، كنت تعلم في برلين، في اللّحظة التي قُلْتَ لي فيها، في شُقّة سبرينجاس، «يُؤلِمُني حلْقي منذ عدّة أسابيع».

بأقصى سرعة، ومن دون تَوَخّي الحَذَر، في الطّريق إلى فيينّا، كان ماكس يقود بسرعة كبيرة تحت المطر الذي كان يتساقط، لَفَفْتُ بطّانيةَ الصّوفِ حولك لحمايتك، حماية سخيفة، لحماية رئتيْك وحماية قلبك، يا حبيبي، و يا وجعي الجَلَلِ.

كان المطرُ يهبط مِدْراراً، بيْد أنّ الأمل كان يحْدونا. ستنتهي المخاوِفُ في فيينّا، لقد وعدونا بأنّ البروفسور هاجيك يصنع المعجزات، يا حبيبي، ويا روحي. ولم نكن ندْري حينها أنّ البروفسور هاجيك خَدّاعٌ. تعدّى البروفسور هاجيك على لقبِه، ولم يُنقِذ أحداً. البروفسور هاجيك أميرُ المُحتالين، مَنْ أَذِنَ له بالمُمارسة؟ ومَنْ يَأْذَنُ للأطِبّاء إذن، بالزَّعْم أنّهم قادرون على إنقاذ حيواتنا بينما كُلّ ما يفعلونه هو تدمير آمالِنا؟

يا سَيّد حُبّي، وعَبْد إيماني، قَدِمْتُ لِأَحُجَّ إلى المكان الذي عِشْتَ فيه.

أودُّ أنْ أَطأَ كلَّ أَثَرٍ من آثار عُبورك في هذه المدينة، وأتدَبَّرَ في المكان الذي شهدتْك الحياةُ فيه، وأَذْرعَ الأرصفةَ التي وَطِئتَها حتى أنتشي بالهواء الذي يُنْعَشُ في شفتيْك. أودّ أن أَلْمَس الجُدرانَ التي مَرَّ فيها طيفُك، قبل أن ألحق بك في الحياة الآخرة.

بِتُّ البارحةَ أرعاك في المُصَلَّى، يا حبيبي، ويا أميري اليهودي، رافقتُك إلى اللّيل الأبدي. أخذتُ يدَك الباردةَ بين أصابعي المتجمّدةَ، وداعبْتُ شفتيْك، وقبّلْتُ جبينَك. كَرَّمْتُ ومجَّدْتُ حياتَك وروحَك. وما إنْ فَرَغْتُ من كلّ مَقام الشُّكْر حتّى أنْشدْتُ لك صلاةَ الموتى، ورَتَّلْتُ مديحَك والثّناءَ عليك في ترنيمة كاديش طويلة للغاية. يقضي الشّرعُ اليهوديُ أن تُحلّق روحُ الموتى بين السّماء والأرض قبل الاِنضمام إلى الحياة الآخرة الأبدية، أبصرْتُ روحك الطّاهرةَ تطفو في الهواء، ودفَّأَتْني أنفاسُك في ريح المساء الباردة. ولِتَبْقى روحُك دانِيَةً منّي دائماً، دَنْدَنْتُ مقاطعَ من نشيد *الإنشاد*، التي كنتَ تُحِبّ أن تسمعني أُنْشِدُها في ذلك الوقت الذي كُنّا نُغنّي فيه.

دُلَّني، حبيبي، إلى أين تقود نعاجك، أين مراعيك، لِئَلّا أبدُو شارِدةً بين قُطعان أصحابك.

كنتُ أمشي في براغ مُتَغَنِّيَةً بمديحِك، يا أميري، ويا سيّدي، لأجلنا نحن كتبَ سُليمانُ نشيدَه. أسمَعُ صوتَ الجوقات يُردِّد:

أين ذهب حبيبُك، يا أجمل النّساء، أين اتّجه حبيبُك فنطلُبه معك؟

سأرُدُّ على كلّ هذه الجوقات:

حبيبي نزل إلى روضته ليَجْني السّوسنَ. إنّه هُنا، إنّه آتٍ. حبيبي يَثِب

فوق الجبال، يركض على التلال. ها هو يقف خلف جُدراننا، ينظر إلى النّوافذ، ويُراقِبُ من خلال العريش.

أسمعك تقول لي، يا حبيبي العذْب والغالي، ما يزال صوتُك يتردّد صداه في شُقّتنا البرلينية في جرونوالدستراس:

ما أجمل حُبّك، يا أُختي المخطوبة! لِشَذا عُطورِكِ أَريجٌ شَهِيٌّ! من شفتيْك يا عروس يسيلُ العسلُ الصّافي، يسيل العسلُ واللّبَنُ.

لكنّ كتابة الملك سليمان أقلّ جودة من كتابتك. السّرنادة[1] الكُبرى التي تحتفي بالحُبّ أخذتْ تُغَنّى بين شفتيّ غِناءً نَشازاً. أوراقُ الأشجار في ساحة ستيجليتز يابسةٌ، وبرلين من دونك يَبابٌ بحيث يتعذّر المشيُ فيها. إذا نطقْتُ الكلمات ولم تسمعْها، فقد عَدِمَتْ هذه الكلماتُ التي أهمسُ بها كُلَّ معناها. تتيهُ هذه الكلماتُ وتبدو جَوْفاء فارغةً، وتنْكَفِئُ على نفسِها. ما نشيدُ الإنْشاد إلّا حُطامٌ من المزامير، أُغنيةٌ عاطفيةٌ لا رُواء فيها، لم يعُد من الممكن أن يُسمَع فيها أيُّ شيءٍ عظيم، أو جميل، أو حَسَن. ليس المَلكُ سليمانُ العظيمُ إلّا مُلَيْكاً. أمّا أنتَ فملكُ المُلوك، في الأرض، كما في السّماء.

حملتُ في حقيبتي ما لا بُدّ منه فقط، فُستانيْن عديمَي الفائدة، وقميص نوم، آثَرْتُ أن تكون فارغة تقريباً حتّى أتمكّن من جَمْع ذكرياتك. سآخُذ معي دفاترك، يا حبيبي. كتاباتُك تُلازِمُني، وروحُك تُرافقُني. أتذكّر يا حبيبي تلك الأيّامَ المجنونةَ في برلين، حيث كنتَ أنت وأنا ننظرُ بالنّظرة الباردة ذاتها إلى الصّفحات والدّفاتر برمّتها، التي ما عُدْتَ راغباً في

(1) ـ سرِنادة sérénade: عَزْفٌ أو غِناءٌ ليليٌّ يقوم به عاشقٌ تحت نافذة محبوبته.

قراءتها، ننظر إليها تحترق في الحوض الحديدي أمام عينَيْك اللاّهِيَتَيْن، كَمْ شاهدْنا قصصَك تستحيلُ دُخّاناً؟ إنّني نادِمة اليوم، يا حبيبي، ويا كُرْبَتي، لأنّني لم أصُدّ هذه المُصيبةَ. كتاباتُك التي احترقتْ، لماذا لم أمْنَعْ يدَك عندما كانت توقِد النّارَ؟ كان ينبغي أن أقول لك لا، أعمالُك الأدبيةُ مُقدَّسَةٌ، يا أميري. هل كان علينا أن نكون مجانين، هل كان عليّ أن أُحبّك، أنْ أكون مُشايِعَةً لأدْنى أفكارك كي أتأمّل كتاباتك التي كانت تحترق؟ أمّا تلك التي احتفظْتُ بها، يا حبيبي، فأُقسِم أنّها ستنجو من كلّ النّكبات، ومن كلّ الحرائق التي سيُشعِلُها الإنسانُ. حملتُ في حقيبتي ما تبقّى منك، عَمَلاً أدبياً كامِلاً، صفحاتٍ وصفحات، دفاتر بخطّ يدِك ستُرافقُني في آناء اللّيل وأطراف النّهار كَناجِين من جُنون رُوحَيْنا، والتي ستبعث فيَّ الدِّفْءَ حالَما أُعيد مُطالعتَها، وبمجرّد إعادة قراءة هذه المئات من الصّفحات، سأسمع صوتَك، وسأُحِسّ بأنفاسك، وسأقرأ روحَك. حقيبتي عُلْبَةٌ لِجَوْهَرَةٍ هائلة، بحجم جبال الهملايا، لامعة كالقمر. تحْوي حقيبتي جُزءاً من روحِك لم يأخُذْه اللّه منّي، كان حَليماً فشاءَ تَرْكَه لي، جزءاً من روحك، ونظرتك في العالَم، وطَعْم أفكارك. كنتَ أخبرتني، يا حبيبي، أنّ هناك مسرحيةً، وأربعَ أو خمسَ حكايات، وقصصاً قصيرة، وأعتقد أنّ هناك صفحات من يومياتك أيضاً، يومياتك عملٌ أدبيٌّ أعْظَمُ من الكتاب المقدّس، وأجملُ من الإلياذة. في قرارة حقيبتي تثْوي كلُّ عبقرية هوميروس، وخيرُ جزءٍ من النّعمة الإلهية. لقد عاهدْتَ ماكس على إحراق كلّ ما كان بحوزته، إنّ ما كنتَ تحسب أنّ النّاس ليسوا جديرين بقراءته، يا حبيبي المجنون - كيف نتصوّر أنّ سطْراً واحداً منك لا يجْدُرُ بالنّاس قراءتُه؟ إنّ سطراً واحداً منك يُضاهي كُلَّ غوته وغوغول، وبوشكين وتولستوي. حبيبي، لا أدْري إذا

كان ماكس قد أوْفى بالعهْد الذي قطعه لك. أمّا أنا فلم أَعِدْ بشيءٍ. سأرْعى أفكارَك وأصون صوتَك، وأُبْقِيها حَيَّة. ما مِن شيء ـ أكان موْتاً أم بَشَراً ـ سيأتي ليسْلُبَني ما تبقّى منك، ومن صوتك، ومن روحك. أودّ أن أُوَارَى الثَّرى مع جميع دفاترك. وسوف نجد أيضاً، مُتحَف روحِك، الذي هو حقيبتي البسيطة، مُشْطَك الذي لم يكن يُفارقك أبداً، ذاك المُشْطُ الذي كنت تستعمله في برلين، بواسطة عُوده وزغبه الحريري مشطْتُ صُدْغَيْكَ بالأمس طويلاً، عندما صَيَّرْتَني مَكْلومَةً برحيلِك عن هذا العالَم.

ما تبقّى منك، يا حبيبي، ويا أميري الأبديِّ؛ لن يُوَارى الثَّرى في مقبرة براغ. أحتفظُ به معي، ما تبقّى منك، في قرارة حقيبتي، وسرداب دَفْنِك، يَثْوي في أغْوار روحي.

روبير

توقّف المطرُ عن الهُطول، وصَحَت السّماء. تعبُرُ الطّريقُ الآن قريةً. الشارع المركزي تكنُفُه الأشجارُ المُورقةُ والمنازلُ نصف الخشبية ذات واجهاتٍ يشِعُّ منها الضّوءُ. اعتقدَ أنّ العيش لا بُدّ أن يكون لَيِّناً هنيئاً هُنا. يمرُّ بساحة ينتصِب فيها تمثالُ ضابطٍ يمتطي جواداً شاهراً سيفَه، يبدو أنّه يحْمي مبْنى الكنسية المُقام بالأسفل. يقوم نُزُلٌ في وسط صفٍّ من المباني. لم يُصِبْ شيئاً من الطّعام منذ اليوم السّابق. أوقف سيّارتَه على بعد أمتار قليلة. ما إن توقّف تشغيلُ المُحرِّك حتّى فتحت دورا عينيْها، أدارت رأسَها نحوه:

ـ لماذا توقّفتَ؟

فأجاب:

ـ يجدُر بنا أن نأكل شيئاً.

ـ بمَن يجدُر؟

ـ «بنا نحن».. قال بفُتور، سيكون من الأجدر بنا أن نُصيب طعاماً. أجابت: ـ إن هذا الفعلَ سيكون قبيحاً.

ـ «قبيحاً؟»، ردَّد من دون أن يفهم.

ـ ألا تجدُ أنّ من القبيح أن تأكل من دون فرانتس؟ أجاب بصوت هادئ يأمل أن يكون مُقنعاً:

ـ عاجلاً أم آجِلاً سيتعيّن علينا أنْ نوجِبَ نفسيْنا بالقيام بمختلف الأشياء من دون فرانتس.

سألتْ:

ـ أشياء من قبيل العيْش؟ظلّ صامتاً.

«لا تتخيَّلْ ذلك لحظةً واحدةً!»، استأنفتْ قبل أن تُضيف وهي تُحدّق في عينيْه: «أعرف الأطبّاءَ، يعتقدون أنّ كلّ شيء مُباح!».

يحتجُّ بأنّه ليس طبيبَه، إنّما هو صديقُه.

ـ طبيبٌ أو صديقٌ، إنّك تسْعى لاغْتِنِام كلِّ الفُرص. لا تأمَلْ في إقْناعي بالعيش من دونه!

ـ لا آمُل في أيِّ شيء على الإطلاق.

ـ أوه! كلّا، إنّك تأمل يا روبير، في كلّ وقت وحين! كلُّ ما تقوم به هو أن تأمل، أنت متفائل تفاؤلاً مجنوناً! كنتَ تأمل في إنقاذه حتى النّهاية! وكنتَ قد أقنعتني بذلك، لقد حَمَلْتَني على الأمل، وحتى الآن آمُلُ أن أصحو من هذا الكابوس وأُلْفيه بجانبي، ولكن لا، ما بجانبي إلّا أنت.

ضربتْ كتفَه بقبضة يدِها:

«أيُّها الكائن القَذِرُ المُفعَمُ بالأمل!».

ثم اِنْهارتْ باكيةً.

لم يُفْلِح في النُّطق بكلمة مُواساةٍ. ليس بمستطاعه إلّا أن يرى هذا الوجهَ الذي حطَّمَه الألمُ. بيْد أنّها على حقّ، فهو كائنٌ مُتْرَعٌ بالآمال، لا شيء

يُضْعِفُ تفاؤلَه، بل لم يُضعِفْه حتى موتُ صديقِه، وحتّى الظّروفُ الرّهيبةُ التي أحاطتْ بهذا الموت.

«أأنتَ جائعٌ؟»، تسأل كما لو لم تكن هي نفسها التي كانت تنفجر مهدِّدَةً خلال لحظة. «إلّا إذا كنتَ تحتاج إلى الزّاد لقيادة السّيّارة، فهذا أمرٌ مختلف».

أجاب بلُطْف: نعم، أُريد أن أستعيد قُواي.

«إذاً، أودُّ مُرافقتَك»، تابعتْ وهي تضع يدَها على معصمه في إشارة مُهدِّئَةٍ، «طالما أنّك لا تطلُب منّي أن آكُل أيَّ شيءٍ». «لن أطلُب منكِ أيَّ شيءٍ أبداً، أنتِ تعلمين ذلك»، أَرْدَفَ بكلّ صدقٍ.

«لا تكن شديدَ الثّقة بنفسك دائماً»، أنْهَتْ كلامَها وهي تسحبُ يدَها.

غادرا السّيّارةَ، وذَرَعا الرّصيفَ حتّى بَلَغا مدخلَ النُّزُل، ودفَعا باباً مُوارباً، وسارا في رُواقٍ طويل، ثمّ دَلَفا إلى غرفة شاسعة ذات جُدران مُغطّاة بألواح خشبية مُتْرَعَة بالهَمْهَمات. وُضِعَت نحو عشرين طاولةً تحت ضَوْء الثُّرَيّاتِ المعدنيةِ السّاطِع. وما إنْ دخلا حتى ساد الصّمتُ، عَبَرا الغرفةَ على مرأى من نظراتٍ مُعادِيَةٍ، تقدّما نحو الطاولة الشّاغِرة الوحيدة في وسط الغرفة، وهي طاولة تَسَع عشرة أشخاص، فأخذا مكانَهما على جانبيْها. جاء رجلٌ يرتدي وِزْرَةً رمادية ويعتمر توجةً صغيرةً، فوضع أمامَهما قَدْحاً وملعقةً خشبية. وما هي إلّا لحظات قليلة حتى عاد يحمل قِدْراً. قَدَّمَ لروبير مِغْرَفة من الحساء تنبعث منها رائحةُ الكرنب القوية، وسعى أن يفعل الشيءَ نفسَه مع دورا، فأوقفته الشّابّةُ بإشارة من يدها.

ـ سيّدتي لا تُريد شيئاً؟ قال الرّجل مرتبكاً.

ـ لا شيء على الإطلاق!

ـ سيّدي، إذا أردتَ الحساءَ مرّة أخرى، يُمكنُني أن أترك القِدْرَ على الطّاولة.

ـ أظنّ أنّ هذا يكْفي، شكراً.

ـ هُنا نسْتَزيد منه دائماً.

ـ نحن لسنا من هُنا.

ـ لقد لاحظتُ ذلك.

أردفتْ:

ـ هل هذا مكتوبٌ على جبينِنْا؟

قال من دون أن ينظر إلى الأعلى:

ـ يجب أن أعود إلى المطبخ. هل الآنسةُ متأكّدة من أنّها لا تُريده؟ أنا لا أضع فيه إلّا الكرنب وشيئاً من لحْم العُرقوب من أجل المَذاق.

ـ لا أُريدُه، بأيّ لُغة يجب أن أقول ذلك!

ـ أنتِ لا تُحبّين الكرنب...أمْ أنّك لا تُحبّين لحمَ العرقوب؟

إذن لن أُلِحَّ.

ـ بل إنّك تُلِحُّ! أنت لا تفعل شيئاً آخر غير الإلحاح!

«اهْدَئي من فضلك!»، جَلْجَلَ صوتُ امرأة، سيّدةٌ ذات هيئة مهيبة إلى حدّ ما، ترتدي وزرةً بيضاء وتعقِص شَعَرَها. جاءت نحوهما. وبعد أن فرِضت الصّمتَ على الحُضور الذي أثارت فيه صيْحاتُ دورا غَمْغَمَةً من السُّخْط، تابعتْ:

ـ هذا النُّزُل ينيفُ عمرُه على خمسة قُرون، جاء بُطرس الأكبر لتناول الطّعام فيه، ووضع الإمبراطور فرانسوا جوزيف رِدْفَيْه الجَليليْن في المكان نفسه الذي تضعان أنتما عليه رِدْفَيْكما. لقد ذاق هذا الحساءَ الذي كَرِهْتِه، حساءً توارث النّاسُ وَصْفتَه جيلاً بعد جيلٍ. أتحسبين أنّنا سنسمح بإهانة تقاليدِنا بعد الآن، وتحقْيرِ أسْلافِنا؟ ينبغي أن تعْلَمي أنّنا هُنا لا نُحِبُّ الغُرباءَ، بل نفضِّل السُّكّانَ المحليّين. الغُرباء لا يعرفون ما هو جيّدٌ وما هو جميلٌ، وأنّى لهم معرفته حيث إنّ ما هو جيّدٌ وجميلٌ ينبُع من هُنا. ألَمْ نُقاتِلْ منذ فجْر التاريخ في سبيل أنْ نَنْعَمَ بشرفٍ وحيدٍ هو العيْشُ هُنا؟ ألَمْ نبعَثْ أطفالَنا ليَلقوا حَتفَهم في الحرْب على مَرِّ القُرون في سبيل الفَخْر الوحيد المتمثّل في الاِستمرار في الشُّعور بأنّنا أفضلُ وأقوى وأكثر إنسانيةً من أعدائنا؟ إنّ الغُرباء الذين هم أعداؤنا لا يستطيعون إدْراكَ هذا. أعداؤنا غُرباءُ عَنّا، وهكذا نتعرّف عليهم. كيف يمكن للغريب أن يفهم فَخْرَ وجودِه هُنا، بينما هو يبدو فخوراً للغاية بقُدومه من مكان آخر؟ انظري إلى هؤلاء الأشخاص كافّة، الذين يحدّقون فيكما تحديقاً ينِمُّ على العداء. لقد رحَّبْنا بكما لأنّ الضّيافة تُراثٌ عريقٌ مثل حساءِ الكرنْب وكُرْهِنا للغُرباء. بيْد أنّ لصبْرِنا حُدوداً! لِذا غادِرا على عَجَلٍ! وإلّا قد يحدث ما لا يُحْمَدُ عقباه! صياحُ المُوافقة والرِّضا يرتفع، والتّصفيقُ يُدَوّي، وبعضُ عبارات «تَحْيا أُولْغا!» تُجَلْجِلُ. نهضا وغادرا الغُرفةَ على مسمَعٍ من صيحات الاِستهجان، وسارا حتى بَلَغا السّيّارةَ. قام بتشغيل المحرّك، وسُرعان ما أضْحَت القريةُ خلفهما. يعبُر الطّريقُ غابةً ويستمرّ مُتَعَرِّجاً على طول التَّلَّة. لم تَنْبَسْ دورا بكلمة واحدة، يبدو أنّها غرقتْ من جديد في صمتها. وخَشِي أن تظلّ صامتةً حتى نهاية الرّحلة، لكن الأمر انتهى بها إلى أن قالت:

ـ السّيّدة البدينة... على خَدِّها...

ـ الكرّاث؟

همسَ بنصف ابتسامة، وقد تفاجأ بعض الشّيء.

ـ الكرّاث الضّخم، وهي تُزايدُ عليه.

ـ «الخُضرة العملاقة!»، قال في إغْراءٍ.

ـ مزرعةٌ بأكملها!

ـ غابة من الكرّاث!

ـ تسقيها وهي تستنشق!

ـ أطْنانٌ من الكرّاث!

ـ هذا ما كان في حسائكَ الباردِ، يا روبير كلوبتسوك.

قهقهتْ قهقهةً كبيرة مُرْتَجّةً استبدَّتْ بها تماماً، ويُخيَّل أنّها طريقةٌ أخرى للتّعبير عن مُعاناتها. أخذ يضحك معها. إنّهما يبدوان مثل مُراهقيْن خَدَعا الحياةَ احتيالاً عليها ومُضايقةً لها، وخَلَسا من حقلِ كرّاثٍ ما يكفي من الطّعام لمدّة يوميْن، وقَرَصا رِدْفَيْ فرانسوا جوزيف الإمبراطورييْن، وقالا لبطرس الأكبر اللّعنة عليك. وبعد ذلك، حدّقت فيه، وقالت بنبرة باردة:

ـ أنا أكرهُك، يا روبير كلوبتسوك! ثمّ أغمضتْ عيْنَيْها.

في غضون بضعة أيام، في ممَرّ مقبرة براغ الرّئيس، سيُمسك بذراعِها لِيَقيها من الوقوع تحت وطأة ألمِها، مثلما كان قد أمسك بمعصمها أمْس، أمام الحاجز ليمنعها من اللّحاق بحبيبها في العالم الآخر. لم يبلغ الخامسةَ

والعشرين من عُمره، ويعتقد أنّه قد خَبرَ أشَدّ التّجارب وأقْواها في حياته. ولكن صادف أنْ بلغ مُنعَطَفاً، وعندما انكشف على مرأى منه سِحْرُ الوادي المُخْضَرّ الذي تغمُرُه المياهُ المُتوهِّجَةُ، سيغْروه أحياناً إحْساسٌ بأنّ كُلّ المآسي يمكن التّغلُّب عليها، وأنّ الحُبّ سوف يمْضي ويزول.

أوتلا

تتقدّم مُنحنيةَ الرّأس والكتفيْن؛ صوب المكان الذي سيُدْفَن فيه شقيقُها بعد حين. ثمّة حشْدٌ صغير يتجمَّع أمام بوّابات مدخل مقبرة سترانوس. تعرّفتْ من بعيد على وُجوه مألوفة، ماكس وسط مجموعة، ودورا تُمسك بذراع روبير، فليكس ويلتش، ورودولف فوكس، وهوغو برمان، ويوهانس أورزديل بين رجال ونساء آخرين، يرتدون جميعهم ملابس داكنة، ويحملون مظلّات تحت العاصفة التي توشِك أن تهُبّ.

وبمجرّد أن رآها ماكس، جاء نحوها، يتبعه على الفور رودولف وفليكس، يمشي خلفهم يوهانس. حفّوا بها، واحتضنوها: كلّ واحد جاء لتعزيتها ومُواساتها بتعابيره، وبِدِفْء احتضانه الطّويل، يُقدّم لها تعازيه، ويأتي ليستعيد لحظةً سعيدةً من الماضي. انهارت أمام أشكال اللُّطْف وإشارات الحنان التي أبدوها. إنّها تودّ الصّمتَ، وترغب في أن يُتاح لها المرورُ كيما تتمكّن من الذّهاب إلى غُرفة الموتى. ولكن اللّعبة نفسها تحدث في كلّ مرّة: فكلّما وُجِّهَتْ لها الكلماتُ يُخَيَّل أنّ حُزن وأَلَمَ مُخاطِبِها يتبدَّد، ووجهُه يُضيءُ، ويبدو أنّه ينسى أنّه يُخاطِب شقيقةَ المُتَوَفّى. كانت تودّ أن تُوقِف هذا السّيلَ الذي لا ينضب، وتصرخ كَفى! لا أُريد سماعَكم بعد الآن! أنا مُستعجلةٌ، وينبغي لي أن أجِد شقيقي قبل أن يُحْمَل جُثمانُه لِيُوَارى الثَّرى، وأن أُشَيِّع مَن كان عندي كلّ شيءٍ، لي

موعدٌ كبيرٌ مع الأبدية. غير أنّها ما تكاد تُوَفَّق إلى التّخلُّص من أحدهم حتى يُناديها آخرُ. فيشُدُّ على يدِها، ويأْسَى لحالِها، ويُحْسِن إليها برواية طَرَفٍ لا معْنى لها، وينْهال عليها بذكريات لا تُحِبّ سماعَها. تنتقل من واحد إلى آخر مثلما تنتقل الأطيافُ، وفي كلّ مرّة تُظهِر مظهراً مُصطنَعاً، وتُقاوِم كلّ المُقاومة إشفاقَ الأشخاص المتأجّج، وتُكابِد الإصغاءَ لخطاب جَمْعٍ من النّاس يتحدّث بالصّوت نفسه، ويهمس في أُذنِها، وكلّ واحد منهم يحسبُ أنّه يحوزُ ذَرَّةً من الحقيقة، وكلّ منهم مُقتنِعٌ بأنّ شقيقها يعْنيه أمرُه، مثلما يعني النّاسَ كافّة، في حين أنّ فرانتس لا ينتسب لأحدٍ، إنّما ينتسب إليها هي وحدها. تصرخ في ما يخطُرُ على ذهن كُلّ واحدٍ منهم قائلة: اخْرِسوا، لكن لا أحد يُريد أن يُطالِع نظراتها السّود، ولا أحد يودّ سماعَ صمتِها الطّويل الذي تنوءُ بحِمْلِه. كُلّ واحدٍ يُلْقي إليها بـ:

«كان يطلُب من الحياة الكثيرَ، وليس النَّزْرَ القليلَ. كان يطلب منها الكَمالَ، في الحُبِّ كما في أيّ شيء آخر، إمّا الكمال أو لا شيء... ذات ليلة من ليالي الشّتاء كُنّا في فينوهرادي، كان الطّقسُ بارداً جدّاً، وكان فرانتس يرتدي معطفاً خفيفاً، أنْحى عليه ويرفيل باللّائمة. وأوضح فرانتس أنّه كان يستحمّ بالماء البارد في الشّتاء... أقمْتُ في منزل صاحِبٍ في زاوية شارع ستفانسجاس وجورجينتستراس، لقد عانيتُ كثيراً من الضّوضاء. لا أحد يستطيع أن يفهم أكثرَ من فرانتس. كان يحمي نفسَه من الضّوضاء وهو يَضَعُ القُطنَ المَنْدوفَ في أُذنَيْه. أخذْتُ بنصيحته، وما زلت إلى اليوم لا أستطيع النّومَ من دون... كانت كلماتُه نادرةً، ومُقتضَبةً، ومُفاجِئةً في كثير من الأحيان. وكان يكتفي أحياناً بالصّمت البليغ... عندما نشرتْ دارُ وولف كتابَه الأوّل، قال لي: بِيعَ منه أحدَ عَشَرَ كتاباً في مكتبة أندري. اشتريتُ بنفسي عشرةً

منها، وأُريد أن أعرف من الذي اشترى النسخةَ الحادية عشْرة... لقد رأيتُه مُؤخّراً، كان قد فقد الكثيرَ من وزنه، كان صوتُه أَجَشّ، ويتنفّس بصعوبة... لو لم يكُن قد وُلِدَ يهودياً، ولو لم يكن قد نشأ نشأة يهوديّة، لما كان كافكا... لقد كان شخصا مُنعزِلاً، رجلاً يعرف... التحوّل هو أقوى كتابٍ في الأدب الألماني الحديث... عندما أخبرته ذات يوم أنّ ديكنز مُمِلٌّ، جاء ليقرأ لي بِضْع صفحات مُترعَة بالبهجة، تلك التي تتحدّث عن الخطوبة الأولى لديفيد كوبرفيلد[1]. كان يقرأ على نحو لا يُضاهَى... في ذلك الوقت، كان فرانتس يمُرّ بفترة إلْحادٍ، وكان يبْتغي منّي أن أهْجُر عقيدتي اليهودية. كان جَدَلِياً جيّداً. حدث هذا قُبيْل عيد الفصح وليلة المِنهاج (ليل هسيدر)، التي أحببْتُها كثيراً بسبب والديّ. عَزَمْتُ على مُقاومة حُجَجِه، وتمكّنت من الثّبات في وجهها. وبعد ذلك بوقت طويل، سَعى إلى إعادة اكتشاف الإيمان الذي حاول عَبثاً أن يُغرِيَني بخُسْرانه... كان بطبْعِهِ مُتحمّساً، مليئاً بالخيال الطّافِح، بيْد أنّه كان يُمْسِك بعِنان حماستِهِ، ويكَبَح جِماحَ انْدفاعاته العاطفية... لقد شهدتُ معه جلسةً للطّاولات الدّائرة[2] عند بيرتا فانتا، فقال لي: إنّ الطّاولة وهي تتحرّك عندما يضغط النّاسُ عليها ليست بالمُعجزة... أَرأيْتِ مقالَ النَّعْي الرّائع لميلينا جيسينسكا في الصّحيفة؟ يزعُم المقالُ أنّ رواية عنوانُها (أمام المحكمة) تنتظر ناشراً ينشُرها منذ سنوات، أَقرأْتِ هذا الكتابَ؟... أينما كان، كان يُدرك كيف يُبرز وضوح الأشياء... ما مِن أحدٍ من الكُتّاب الذين عرفتهم جعلني أشعُر إلى هذا الحدّ بأنّ المصير المادّي للأعمال الأدبية بالنسبة إليه هو شيءٌ لا يُؤْبَه له... كان فرانتس قد طلب منّي

(1) ـ ديفيد كوبرفيلد: من أشهر روايات تشارل ديكنز.
(2) ـ طاولةٌ يُزعَمُ أنهّا تتحرّك تلقائياً عندما تلمسُها أيدي الأشخاص المنتظمين حولها..

أن أستأجِر له غُرفةً في فندق هادئٍ. لقد منحني شعوراً حاصله أن مصير خطوبته سيتقرّر في بودابست. أنبأني في فيينّا أنّه كان قد صَرَمَ حبْل العلاقة مع خطيبته. كان هادئاً تماماً، حتى إنّه كان يبدو وكأنّه يشعُر بالرّاحة. رافقني إلى المقهى المركزي، كان الوقت متأخراً، وكان هناك عددٌ قليلٌ من النّاس، فوجد كلَّ ما يُرضيه... لقد عرف أنّ الرّجال هم وحدهم القادرون على أن يكونوا رائيين وأنْبياءَ... في العام الفارط، رأيتُ فرانتس سعيداً حقّاً. صحيح أنّ حالتَه البدنية كانت تتدهور، لكن ليس إلى الحَدّ الذي يُثير مخاوف حقيقية. وجدته في برلين يعيش حياةً مثالية مع شريكته. لم يعُد الابنَ، بل غَدا، إلى حدّ ما، رَبَّ الأُسرةِ...».

أفلحتْ في أن تنتشل نفسَها من سلسلة الثّناءات الطّويلة والمُضْجِرَة، ومن أنصاف ابتساماتها ذات الفَكّ المتشنّج، ورأسها المليء بكلماتٍ جوْفاءَ لا معنى لها. لم تُوَفَّق إلى البقاء في غرفة الموتى إلّا لفترة وجيزة. ولم يُتيحوا لها قضاءَ وقت حميميّ مع شقيقها، وفاتَها موعِدُها مع الأبدية. لقد فات الأوان بعد الآن. أربعة رجال يرتدون ملابس سوداء يحملون شقيقَها بأذرعهم القوية، يخْطون خُطُواتٍ منتظمةً وبطيئةً. تهبُّ الرّيحُ على المقبرة، ويتقدّم النّعْشُ أمامَها. تُحدث الأحذيةُ صريراً على الحَصى. ولّى الرّبيعُ، وها قد حلّ الشّتاءُ في شهر يونيو. أَرَحَلَ فرانتس عن هذا العالَم، أمْ أنّ العالَم هو الذي رَحَل؟

دورا تمشي بالقُرب منها. تكاد تسقُط مع كلّ خُطوة تخطوها. تفقد توازنَها، أم أنّ هذا هو السّبب؟ قال روبير: «مَنْ لَمْ يَرَ دورا لَمْ يَعْرِفْ للحُبّ مَعْنى». منذ أن أقامت في المنزل مدّة أُسبوع، لم يخرُج من شفتيْها سوى نَحيبٍ طويلٍ وحيدٍ.

اخْتارتْ أُختُها فالي في أمرها فقالت: «لكن أنتِ، يا أوتلا، كيف لا تبْكي عبنُكِ؟». كيف للدَّمْع لا يُسْعِفُك، ولا ينْقادُ إليك؟ في قرارة نعْشِه، حمل فرانتس معه كلَّ شيءٍ، حُزنه وألمه. أمّا يأسُه فهو راسِخٌ وطيدٌ إلى الأبد.

يسيرُ والدُها أمامها بضع خُطُوات حَبيسَ صمْتِه. يقف منتصباً ووقوراً، ساهِمَ الوجْه، غارقاً في أفكاره. فِيمَ يُفكِّر هذا المنتصر بلا فائدةٍ في المعركة الأبدية؟ قد يحسبُه المرءُ أنّه كان في عجلَة من أمْره ليلْحَق بابنه، ويُدْرِك في الموت مَنْ حال بينه وبين الحياة. يا أبي، لا أُريد أنْ أفقدك بسبب النّدم. مصيبةٌ في الوقت نفسه، أرجوك.

تدفنُ أُمُّه ابْناً للمرّة الثالثة. كان الطّفلان الآخران صغيريْن جدّاً، وحَدَثَيْن جدّاً. يكادان يبلُغان من العُمر ثلاثَ وخمْسَ سنواتٍ. كانت قد تُركَتْ وحيدةً أمام النّعْشَيْن الصّغيريْن، وها قد جاء القَدَرُ ليأخُذَ منها الثّالثَ، جاء القَدَرُ لِيَسْلبَها الهديةَ التي كان حملَها إليها. يُرافقُها هذه المرّة جمْعٌ من النّاس إلى المقبرة، لكنّها تمْضي وحيدةً في محنتها بوصفها أُمّاً، يمكن أن يوجَد هناك مائةُ ألفِ خلْقٍ يُصلّون حولها، لا شيء بمستطاعه أنْ يُواسيَ في فقدان الابْن.

في مقدمة الموكب هناك ماكس بالطبع، والحشْد الذي يتبعه، حشدٌ لا ترغب في النّظر إليه. هل سنعرف يوماً أكثر حُزناً في حياتنا؟ العالَمُ قَبْوُ دَفْنٍ من دون شقيقها بالقُرب منها.

وها هي قد بلغَتْ مكان الوداع. يوضَعُ النّعْشُ على الحصى. كلُّ أحلامِها تنتهي على بُعْد مِترٍ أمامها. أيُمكن أن يكونَ مَآلُ حياةٍ رحيبةٍ وقديرةٍ

وثَرَّةٍ؛ هذه الحُفرةَ الصَّغيرةَ؟ ستطْوي هذه الحُفرةُ الفاغِرَةُ حياتَه في جوْفِها، وتبتلِعُ التّنزُّهَ في حدائق مُنْتَزَهِ شوتيك، ونُزُهات رُكوبِ الزّلاّجات في حصْن فريدلاند، وامْتطاء القوارب في بُحيرة لوغانو، وبطاقات مارينباد البريدية، واختيار الكُتب في 8، بالإسنجاس، وتصفُّح الرّزمانات، ووجبة الفُطور المتأخّر في مقهى اللّوفر، والضّحك مع إيرْما والآنسة فيرْنر، والاستماع إلى العجوز ويلتش في مقهى أرْكو يروي الحكايات اليهودية في عهْد الحيّ اليهوديّ (الغيتو)، وبيْت الدُّمية في ألشمستنجاس، الذي تُطلّ نافذتُه على حَيّ هيرشغرابن، حيث كلّ ما يمكن سماعُه هو غناء الطّيور، والزّيارات إلى سوراو حيث كانوا يعتنون بالحديقة وهم مسرورون، ويقلبون تُرابَها بحماسة، والأمسيات التي يذهبون فيها إلى المسرح الوطني لمشاهدة مسرحيةٍ لشنيتسلر، ثمّ أماسي المَطَلّ لتأمُّل انعطافات النّهْر، أو في مقهى لوسيرنا، والقهقهة عند سَماع الفرقة اليديشية وهي تُؤدّي مسرحية هاملت، وتُفسِدُ شكسبير وتُشوّهُه، ومواعيد يوم السّبت في ساحة فاتسلاف ـ كان المارّة يظنّون أنّهما عاشقان عند سماعِهما يضحكان وسط الجمهور ـ ودُعاء *كلّ النُّذور* في كنيس ألت ـ نو، الذي لم تكن تُفْهَم منه كلمةٌ واحدةٌ، ولكنّه كان يُهَيِّجُ مشاعرَنا إلى حدّ البُكاء، وعَرْض التنكُّر بلباس الجنس الآخر الذي شاهدناه بشيءٍ من الخجل، والأماسي السّعيدة عند باوم[1] أو عند ماكس، والقصائد الرّديئة التي تُثير فينا الضّحك. هكذا كانت حيواتُنا عندما كُنّا نذهب إلى براغ لنشرب الماءَ من النّوافير.

«من المعقول تماماً أن يكون جلالُ الحياةِ واقفاً إلى جانب كُلّ كائنٍ

(1) ـ باوم: أحد الأعضاء الأربعة لِما كان ماكس برود يُسمّيه: (حلقة براغ الوثيقة) وتضمّ الكُتّاب: فرانتس كافكا، وماكس برود، وفليكس ويلتش، وأوسكار باوم.

في كَمالِه لكنّه مطْمورٌ، وخَفِيٌّ، وقَصِيٌّ. ويكفي أن نرتجيه باللّفظة الصّائبة، فيستجيب».

فهل للحياة معْنى من دون شقيقها الذي هو زينةُ الحياةِ وبَسْمَتُها وقَوْلُ كُلِّ ما هو جميل فيها؟

أشجارُ السَّرْو السّامقةُ تبدو كأنّها عمالقة. يُرتِّلُ الحاخامُ صلاةَ الموتى، يُردِّدُها عددٌ قليلٌ يرتدون قَفاطينَ طويلةً، قُبّعاتهم مُلَوْلَبَة على رُؤوسهم، هائمين بالعقيدة، مُخلصين للإيمان، غُرباء، هؤلاء اليهود الأتْقِياء من أوربا الشرقية، الذين كان أبوه يسخر منهم، وكان فرانتس يعشقهم عندما كانوا يذهبون لمشاهدتهم في المسرح اليديشي. ترتفع أصواتُهم في مسرح الظّلال هذا الذي غَدا العالَمَ من دون شقيقها ليُشاهده.

«آمين»، قال الحُضور في صلاة الموتى.

كان يقول: «*نحن لا نموتُ، هذه هي الحقيقة. لقد مِتْنا ونحن أحْياء، نحن ناجون. كِفاحُنا في سبيل العيْش هو كِفاحٌ ينسى أنّه يُكافِحُ في سبيل الموْت*». انتهت الصّلواتُ، وأزِفَت لحظةُ الوداع. عاد الرّجالُ الأربعةُ ليُواروه الثَّرى. دورا تُسْرِعُ صوب النّعْش، حاولت أن تحُفّ به ذراعيْها، وتتشبّث به، وكادت تسقط في قرارة اللّحْد. جاء روبير ليُمسكها. أنزل الرّجالُ الأربعةُ النّعْشَ بأَناة.

حان الوقتُ. كلُّ امرأةٍ، وكُلُّ رجُلٍ عَرَف شقيقَها يرْمي مِلْءَ مِجْرَفَةٍ من التّراب. تنتظر بصبْر ورصانة خلْف أبيها وأُمّها.

والآن حلَّ دورُها.

روبير

«أَقرَّرْتَ ما الذي ستفعلُه في المستقبل؟»، سأله ماكس بْرود عندما أَلْفَيا نفسيْهما وجهاً لوجه أمام بوّابات المقبرة التي أقْفَرَتْ من حُشودها للتوّ، تحت أشجار السَّرْو المصفوفة التي عَطَّفَتْها الرّيحُ. كان بْرود قد نَذَرَ وقتَه من قبل للحديث مع كلّ مَن شارك في الموكب الجنائزيّ. أمّا روبير فكرَّسَه لمُؤازرة دورا بعد أن انهارتْ على النَّعْش وسط صيْحات ذُهول الجمهور. نقلها بمنْأى عن الأنظار بمساعدة أحد اللَّحّادين. ثمّ جاءت أوتْلا وفالي تُساعِدانه. واستطاع أن يُلقِيَ نظرةَ وداعٍ أخيرةٍ على صديقه. وأمام اللَّحْد الذي هطل عليه مطرٌ مِدْرارٌ، كانت كلمات فرانتس قد عادت إلى ذهنه:

«أنا قبري الخاصّ، لا ينفذُ إليه الشّكُّ أو الإيمانُ، الحُبُّ أو الكراهيةُ، القلق أو الشّجاعة. لا يثْوي في دخيلة نفسي إلّا أَمَلٌ غامضٌ، لكنّه ليس أفضل من النُّقوش التي تظلّ مُقيمةً على شواهِد القُبور».

كان آخر مرّة رأى فيها ماكس بْرود قبل شهر، وكان فرانتس لا يزال على قيْد الحياة. كان بْرود قد هَرَعَ إلى مصحّة كيرلينغ، مُستجيباً لِنِداء دورا: «إذا كنتَ ترومُ رُؤيةَ فرانتس للمرّة الأخيرة، فهذا هو الأوان». والآن، وجدا نفسيْهما عند بوّابات المقبرة يتحدّثان عن المستقبل.

ـ «سأستأنف مسيرَ حياتي»، أجاب أخيراً.

ـ «وكأنّ شيئاً لم يحدث؟»، سأل بْرود.

ـ لا، بالطّبع كلّا. لقد حدَثَ شيءٌ كبيرٌ. حَدَثٌ سيَسِمُ حياتي إلى الأبد.

لقد أحسَّ بالضّياع، ليس لأنّه كان من الممكن أن يُقال عنه في السّابق إنّه شابٌّ عَزومٌ، يعرف إلى أين يمْضي، طالِبُ طِبٍّ له خُطّته المِهنية الجامعيةُ، أو منزلتُه المحفوظة في شركة العائلة الكبيرة. لقد ترك نفسَه دائماً للأحداث تقودُه وتُوجّهه. ولكن منذ لقائه بفرانتس في مرتفعات ماتلياري، صار هذا اللقاء بمثابة أُفُقٍ وهدفٍ ثابتٍ.

مكتبة ياسمين

أشار برود:

ـ «...الذي سيمحو كلَّ الآفاق الأخرى؟».

ـ والذي سيفتح عدداً من الآفاق الأخرى. إنّ إقامةَ علاقةٍ حميمة مع مثل هذا العَلَمِ الفكريّ قد رَجَّ كُلَّ معتقداته. وكيف يُمكن أن يكون أَثَرُ مُقابلةِ هذا القُطْبِ في الإنسانية والذّكاء غيرُ ذلك؟ وبطبيعة الحال، فإنّ ذكرى الرّجل وصَدى أعماله الأدبية سيُواصلان التّأثيرَ في كلّ أفكاره. غير أنّه يأملُ الآن أن يتمكّن من رُؤية ذلك بوضوح في ذهنه. لعلّ أوانَ ذلك قد حان، وهو في عمر الخامسة والعشرين تقريباً...

ـ «خمسة وعشرون عاماً!»، صاح برود وهو يهُزّ كتفيْه بحركة تنمّ على حَذْبٍ. «أمامك الحياةُ لترى بوضوح! ولا مِراء في أنّك على حقّ. إنّ مَزِيَّةَ مُعاشرة كافكا حتّى في مثل هذه الظّروف ستبسُطُ نوراً ساطِعاً على سائر أيّامك».

كان برود يتحدّث كقِسّيسٍ عندما يتعلّق الأمر بفرانتس:

ـ ربّما... آمُلُ ذلك، على كلّ حال. في الواقع، لم يُصدّق ذلك. كان يرى في قرارة نفسه أنّ الحياة ستغْدو من الآن فصاعداً عديمةَ الطَّعْم، لا وَجْد أو شَغَف فيها، ومألوفةً على نحو غامض. كان عليه أن يعودَ إلى دراسته، ويستأنفَ رتابةَ حياةِ طُلاّبِ الطِّبِّ المُثيرة للشّفقة، والإذعان للنّظام القائم، ومَسْخَرَة زيارات المَشْفى، وضجيج الأساتذة، ونَوْبات ليالي الحراسة التي لا تنتهي، والحياة التي يُنْفِقُها في كُتُب التّشريح، أو بين المرْضى، أولئك المحرومين من التّشريح.

تدخّل ماكس باسِماً: «أتدري كيف وصفكَ فرانتس في الرّسالة الأولى التي تحدّث فيها عنك؟».

أحسّ روبير أنّ خدَّيْه يتضرّجان.أقتبسُها من الذّاكرة، كان لهذا الكلام أَثَرٌ فِيَّ: *شابٌّ يهوديٌّ من بودابست، طموحٌ جدّاً، ذكيٌّ، طبيبٌ موهوبٌ فُطِرَ على الطِّبِّ، مناهِضٌ للصّهيونية، يسوعُ وديستويفسكي هُما مُلْهِماه*».

فضحكا بصوتٍ عالٍ.

«وأنت؟»، يسأل روبير وقد سَئِم أن يكون هدفاً للأسئلة، «ماذا ستفعل الآن؟».

أجاب بْرود بأنّه ينْوي أيضاً التّريُّثَ والتّروّي في أمْره. كان لا بُدّ له من أن يتعافى من هذه المِحْنَة، وفاةِ أعزّ أصدقائه، صديق لعقديْن من الزّمن، صديق أَلْهَمَ وجودَه وغذّى عملَه الأدبيَّ بوصفه كاتِباً، وألْهَم حياتَه وغذّاها باعتباره رجلاً. معلّمٌ ومُرشِدٌ، ومِثالٌ، يعتقد أنّه يتّحِد وعَمَلَه الأدبيَّ فيصيران شيئاً واحِداً، ويُؤوي في داخله عالَماً مُغْلَقاً على نفسِه، ومُنْفَتِحاً على اللاّنهائيّ في آنٍ واحد. نعم، إنّه يُشبه نجْماً في الكَوْن احتجب في هذا اليوم.

«ومُهمّتُك هي التّأكُّد من أنّ النّجْم الميّتَ سيستمرّ في بَسْطِ ضوئه؟»، أردف روبير في شيء من السّخرية.

«نعم»، أجاب بْرود من دون أن يتبيّن قَصْدَ السُّخريةِ، وأعربَ عن أمَلِه في مُواصلة ما قام به قبل سنوات، من خلال إتاحة نشْرِ المجموعة القصصية الأولى في دار نشْر صديقِه إرنست دوفولت.

«دورا وأنت رأيتُما فرانتس كما لم يتمكّن أحدٌ من رُؤيته»، تابعَ وهو يصطنِع هيئةَ رجُلٍ أفْلَحَ في أن يُحدِثَ قطيعةً مع ماضيه، رجلٍ لا يُريد أن ينتهي، ويتوق بشدّة إلى أن يعيش أخيراً، شخص انتهى به المطاف إلى التّصالح مع الذّات وتحقيق السّلام الدّاخلي.

ساد صمتٌ طويلٌ، قطعه بْرود بسُؤاله عن المُدّة التي ينْوي قضاءَها في براغ. وعندما عَلِم منه أنّ قطارَه إلى بودابست سينطلق بعد يوميْن، اقترح عليه أن يلتقيا في مقهى سافوي في اليوم التالي، عند نهاية الظّهيرة.

في الصّباح، كان عليه أن يذهب إلى مكتب التّأمين بناءً على طلبِ هيرمان كافكا، ليحصل على آخر الأغراض التي تركها ابنُه في مكتبه. وعلى هذا افترقا.

يجلس روبير، وقد أَفَلَ النّهارُ، إلى طاولة في المقهى، ينتظر أمام بيرةٍ بْرود الذي تأخّر كثيراً. لم يجْرُؤ على أنْ يعْرِضَ عليه مُرافقتَه إلى مكتب التّأمين. كان يوَدُّ، مع ذلك، أن يشعُر بشيءٍ من حُضور فرانتس في هذه الأماكن. إنّه يعرف المكانَ حيث زاره قبل بضعة أشهُر في أثناء مُقامه في براغ. كان قد ذهب إليه بناءً على طلَبِ فرانتس، ليُقدّم مُراسلَةً مُوجَّهَةً إلى

الإدارة، وشهادةً طبِّيةً تُفيد عدمَ القُدرة على الحُضور إلى العمَل جرّاء تفاقُم الدّاء. كان قد تريَّثَ قبالةَ الصَّرح الفخْم الواقع في 7، شارع بوريك، حيث عمل فرانتس مدّة نحوِ خمسة عشَرَ عاماً، تأثَّر بواجهته السّامقة وقُبّته الرّحبة. يرى نفسَه يضغط على الجرس الذي على يمين الباب الأماميّ الضّخم. فتح له البابَ بوّابٌ يرتدي مِعطفاً ويعتمر قُبّعة عالية، وسأله بلهجة رسمية عن الغرض من زيارته، بينما كان مُوظّفون يرتدون بدلاتٍ رماديةً، يحملون حقائبهم في أيديهم، يدْلفون داخل المبنى مُسرعين.

كان قد أجاب: ـ جئتُ لتقديم وثيقة إلى الإدارة من قِبل الدكتور كافكا.

ـ من فضلك اتبعْني. كان الموظّفون يتجاوزونه أثناء صعودهم درجات السّلّم الواسع المؤدّي إلى الطّوابق العُليا، وهم يخلعون قُبّعاتهم تلقائياً. كان الطّابق الثاني مفتوحاً على قاعة يعبرُها أشخاصٌ مُستغرقين في عملهم، حاملين ملفّاتٍ في أيديهم. كان قد خمّن أنّها خليةُ نَحْلٍ. كانت الغُرفة مليئةً من كل جانب بِصفٍّ من المكاتب، التي كان خلفها راقِنون شبّانٌ منهمكين في عملهم. عندئذ تذكّر آنسةً تُدْعى كايزر، كان فرانتس قد حدّثه عنها بصفتها كاتبتَه. آنذاك علّلَ روبير بعض نبرات صوْتِ صديقه على أنّها شُكوكٌ تُثبتُ الدّليل على أنّه ربّما قد يكون ثمّة شيءٌ آخرُ قد أُقيم بينه وبين الآنسة كايزر يتعدّى العلاقةَ المهنية البسيطة. تصطفّ خلف المكاتب سلسلةٌ مُتواليةٌ من الأبواب نُقِشَتْ عليها مجموعةٌ من الأسماء، يتصدّر بعضها لقبُ (دكتور). كان رجلٌ يرتدي بلوزة زرقاءَ يدفع عربةً مليئةً بأكْداس من الملفّات. يتوقّف الرجل عند كلّ مكتب ليضع كَدْسَةً من الأوراق يأخذُها مُوظّفٌ آخرُ على الفوْر قبل الِاطّلاع على الصّفحة الأولى منها فيضعُها مرّة أخرى فوق الكدْسَة الموجودة من قبل. بين

الفينة والأخرى كان بابٌ يُفْتَح، وشخصٌ يدخُلُ أو يخرجُ. كان الجميعُ يُؤدّي ما يُشبه الباليه السّاحر الذي تُشكّلُه هَمْهَمَةُ الأصوات ونَقْرُ الآلات الكاتبة. وكان روبير يتساءل كيف لشخص مثل كافكا، الذي لا يتوق إلّا إلى العُزلة في غرفته؛ أنْ يحتمل مثل هذا الجوّ. وكان البوّابُ قد توقّف أمام الباب الذي كُتِب عليه (النّيابة الإدارية)، طرقَ، ثمّ من دون أن ينتظر فَتَحَ البابَ، وبإيماءةٍ بيده، وانحناءةٍ خفيفة، دَعا روبير إلى الدّخول. كانت الثُّريّا الحديدية تبعث نوراً، وكان المكتب الرّحيبُ ذو السّقف الخفيض مفتوحاً على نافذة صغيرة يبدو أنّها لا تُطلّ على شيء. وكانت الأرضيةُ مُغطّاةً بألواح فاتحة ذات طلاءٍ باهت قليلاً. مكتبة تكسو الجُدرانَ مليئةٌ من الأرض إلى السّقف بالكُتُب السّميكة، كلّها متطابقةٌ، ومُغلّفةٌ بغلاف جِلدي أسود رديءٍ، ومُرتّبةٌ بحسب السّنوات. خلف مكتبٍ كبير، رفع رجلٌ أصلعُ تماماً، يضع نظّارةً أحاديةَ الزّجاجة؛ رفع رأسَه عن الملفّ الذي كان غارقاً فيه. وبابتسامة فيها شيءٌ من التّكلُّف، عَرَضَ عليه الجلوسَ على المقعد أمامه. وبعد أن اسْتعْلَم عن غرض الزّيارة، أنشأ يتحدّث معه عن فرانتس قائلاً: إنّنا هُنا نُعرب عن أسفِنا لهذا المرض الذي يمنع عودةَ واحدٍ من أفضل عناصر المكتب، رجلٍ كان هو نفسه يُكنّ له دائماً مشاعرَ التّعاطُف والإعجاب. إنّه موهبة حقّةٌ في مكتب التّأمينات. يُقدّرُه زُملاؤُه كافّةً. نشيطٌ لا يَكِلُّ، مُتعدّد المهارات، موهوبٌ، ومخلِص في مهمّته. إنّه الموظّف المثاليُ المُبجّلُ. وتابع نائبُ المدير: من الواضح أنّ أعوام الدكتور كافكا الأخيرةَ كانت أشدَّ تعقيداً للأسباب الصّحيّة التي نعرفها. بَيْد أنّ كفاءَتَه ودماثتَه واستعدادَه كان كبيراً لدرجة أنّه عندما طلب العملَ بنصف دَوام مُنِحَ له ذلك. وكان مجرّد هذا العمل بنصف دوامٍ قد خلق نقصاً حادّاً

لشركة التّأمينات، لاسيّما للحماية والوقاية من حوادث الشُّغْل، وهو المجال الذي بَرَعَ فيه الدكتور كافكا، حيث كانت موهبته كمُحرِّر، ومعارفه القانونية تُؤثّر تأثيراً بليغاً. بينما كان الرجل يُبدي هذه الكلمات، كان روبير يُفكّر في الطّريقة التي وصف بها له فرانتس ظروفَ عملِه في المكتب.

«كان الأمر بالنسبة إلي حياةً مُزدوَجَةً ومُرعبةً لن يكون مآلُها إلّا الجنون. كان يتعيّن عليّ في المكتب، باسم رُكامِ الأوراقِ القديمةِ عديمةِ القيمةِ، والمُثيرة للشّفقةِ، أنْ أقتلعَ قطعةً من جسدي».

صمت نائبُ المدير لحظةً، ثمّ تابع: «ما زلتُ أحتفظ في ملفّاتي بالمقالة الرّائعة للدكتور كافكا، والتي حملت عُنوانَ، استمعْ جيّداً أيّها الشّابّ: (تمديد التزام التّأمين في مهن البناء والمهن المُرتبطة بها). لقد نطق هذه الكلمات بنبْرة تَشِي بالحنين الإداريّ. ستظلّ هذه المقالة في نظر الجميع نموذجاً من نوعها. وقد يحدث لي أن أقرأ مُقتطفاً منها للوافدين الجُدُد حتّى يستلهموا نثرَه ودقّتَه وذكاءَه في التّأمين». وبعد ذلك أخرج ملفّاً صغيراً من دُرجِه ووضعه على الطاولة، وأخرج ورقة منفصلة بحركة لَبِقَة كما لوكان مُوَثِّقاً يحمل بين يديْه وَصِيَّةَ زبونٍ. خلَع نظّارتَه الأُحادية ليضَع نظّارةً ثُنائية. أدْنى الورقةَ من عينيْه وقال: «لا أستطيع مُغالبَةَ إغْراءِ قراءةِ بعض المقتطفات من هذا النّص عليك، وهو نصّ ـ في نظري، وفي نظر مُساعديَّ ـ يبلغ ذُرى فَنِّ المُؤمِّن». وعلى غِرار ممثّل سيّءٍ، أخذ نفَساً وزفر زفيراً عميقاً، ثمّ قرأ، أو بالأحرى أَنْشَدَ، النّصَّ الذي كتبه فرانتس قبل ما يربو على عشْر سنواتٍ:

«في قانون التّمديد الذي يشمل الحجّارين وحفّاري الآبار وشركات البناء المعدني، تُضَمَّنُ أشكالُ الأنشطة التي لم تكن تخضع في السابق

لاِلتزام التّأمين. ومع ذلك، ربّما أنّ المهن المَعْنَية تُشكّل مِهَن بناءٍ تابعةٍ. يجب الاِعتراف بأنّه، وَفْقاً للقانون الرّئيس، لم تكن أنواعٌ مختلفة من شركات البناء خاضعةً بَعْدُ لاِلتزام التّأمين. وبما أنّ التزام التّأمين امتدّ في التّعديل إلى هذه المِهَن فحسب؛ فلا بُدّ من أنْ نستنتج أنّ هذا التّمديد لا ينطبق على المهن الأُخرى. ولكن، بما أنّ القانون ينجُمُ عنه أنّ التزام التّأمين لهذه المهن الثّلاث يمتدُّ إلى الأعمال في الورشات، فلا بُدّ من الاِعتراف ـ يستخلص القرارُ المذكورُ ـ بأنّ ورشات عَمَلِ المِهَن الأخرى، والمهن التّابعة لها في قطاع البِناء، لا تخضع لاِلتزام التّأمين». توقّف نائب المدير، وأخرج منديلاً من جيب سترته الداخلي ومسح جبينَه، وتمتم كما لو كان يُخاطب نفسَه: «لم أقرأ قطّ شيئاً في مِثْلِ هذا الجمال من قبلُ». ثمّ قال وهو يُحدّق إلى روبير:

ـ انتظرْ، هذا غَيْضٌ من فَيْضٍ، استمعْ إلى الخُلاصة! ثمّ كان قد استأنف:

«ولذلك يمكننا أن نُثبت أنّ المُشرّع، بموجب المادّة الأولى، السّطر العاشر من قانون التّمديد؛ لم يكن له، في المقام الأوّل، أيُّ نيّةٍ أُخرى سوى إنْشاءِ وثائق قانونية جديدة لاِلتزام التّأمين، وإلّا فسيكون من المُتعذّر شرحُه أنّه لم يُضَمِّن أيضاً في التزام التّأمين أعمالَ النّجارة، أو أعمالَ الحَفْر، في حين أنّ هذه الأعمال تُشكّل مخاطرَ أكبر بكثير من المهن المذكورة.

ويُستكْمَلُ هذا القرارُ بالقرار السّابق رقم 10674. قرار المحكمة الإدارية رقم 1907 الصّادر في 1 ـ يونيو ـ 1908 (البلاغ الرّسمي) 1908، الصفحة 296». توقّف، ووضع الورقة على مكتبه، ورفع رأسَه، وقال بنبرة حاسمة:

ـ اِنتهى الكلام، أليس كذلك؟ أومأ روبير برأسه بأدبٍ.

«إلّا أنّ الدكتور كافكا لم يكن مثالاً في الكتابة فحسب، فمهما كانت المهمّة التي كُنّا نوكلُها إليه، نحو تقييم مساهمات أرباب العمَل، ومراقبة النّزاعات بين العُمّال وأرْباب العمَل، وإعادة تقييم التّعويضات أو التّأمين ضدّ العَجْز؛ فإنّه يمنحك شُعوراً بالرّضا. وكما تعلم، بلا شكّ، فإنّ مكتب التّأمين ضدّ حوادث الشّغل في مملكة بوهيميا هو مؤسّسة وطنية. وإذا سمحْتَ بأن أسْرُد لك شيئاً من التاريخ، فقد كان امبراطوريةً داخل الإمبراطورية الكُبرى في العصْر المُبارَك لآل هابْسْبورغ، منذ إنشاء التّأمين الإجباري ضد حوادث الشُّغل ونتيجته الطبيعية، التّأمين الصّحّيّ. إنّ مكتب براغ وحده مسؤول الآن عن خمسة وثلاثين ألف شركة، وهو مسؤول عن دفْع تعويضات التّأمين ضدّ الحوادث والأمراض للعاملين فيه كافّة. ويوجد حالياً مئتان وأربعة وتسعون شخصاً يعملون فيه. لقد أثبت الدكتور كافكا حُضورَه وتميُّزَه في كلّ الأُمور بما يحوز من معرفة موسوعية بطُرُق الإنتاج، لاسيّما في الصّناعة الخشبية ببوهيميا. لقد سنح له ذكاؤه وحماستُه واستعدادُه؛ بالاِرتقاء في جميع الرُّتَب بنجاح، منذ ترسيمه عام 1910. لقد رُقِيَ سكرتيراً نائباً عام 1913، ثمّ سكرتيراً عام 1920، ثمّ سكرتيراً أوّلاً عام 1923، إلى أن تقاعد قبل بضعة أشهر، تقاعُداً مُبكِّراً مُؤسِفاً للأسباب المؤسفة التي نعرفها. وهذا ما حَمَل كبير المفتشين فوهل على القول: «سينهار المكتب من دون دكتورنا الجيّد كافكا». ولم يخْلُ قبولُه ـ مع ذلك ـ من جدَل. يعلم الجميع أنّ مؤسستنا ترفض توظيفَ اليهود، ولا تسألني عن العلّة الدّقيقة. الشركة موصَدَة في وجه اليهود، هذا كلّ ما في الأمر. إذا كنتَ يهودياً، فقد تصدمك مثلُ هذه الممارسات. وحتى من وجهة نظر شخص غيرِ يهوديٍّ مثلي، أو مثل كبير

المفتّشين يوجين فوهل، أو حتى موظّف نموذجي آخر مثل فولفغانغ ماركوس؛ قد تفاجئُ المرءَ أيضاً هذه الممارسة. بيْد أنّ تاريخها يعود إلى عدّة عُقود، فهي تندرج ضمن عادةٍ. وأنّى لشركةٍ مثلِ مكتب التّأمين ضدّ حوادث الشُّغل في مملكة بوهيميا أن يتحرَّر من العادات؟ سيكون هذا من قبيل التّنكُّر لنفسها. استطاع الدكتور كافكا الذي كان يحدُث لي أنْ أُناديه بفرانتس بعد السّاعة السادسة مساء؛ استطاع أن يخرق هذا الحَظْر الذي ناءَ بثِقْلِه على طائفته، ذلك أنّ ترشيحَه كان مدعوماً من الدكتور أوتو بريبْرام، الذي حَظِيَ بمقعد في مجلس إدارة مكتبنا، وكان ابنه، كما علمتُ لاحقاً، صديقاً صدوقاً لكافكا. علاوة على ذلك، عندما أقول إنّ المكتب كان محظوراً على اليهود، فإنّني أُبالِغ كثيراً، لأنّ عُضواً آخر من هذه الطّائفة، هو الدكتور فليشمان، قد عُيِّن في قسم (حوادث الصّناعة)، حيث تقتضي النَّصَفَةُ منّي أن أُشير إلى أنّه كان جديراً بهذا المنصب. ستقول لي إنّ اثنيْن من مائتيْن وثلاثين، كما كُنّا في ذلك الوقت، ليس بالعَدَد الكثير. كلّ هذا يتوقّف على وجهة النّظر التي ترى بها، لهذا فإنّ اثنيْن هو عددٌ كبيرٌ بالفعل بالنسبة للدكتور هيرمان فوجل، الذي يشغل أيضاً منصب عضو في مجلس الإدارة. وبالعودة إلى الدكتور كافكا، وكذلك إلى الدكتور فليشمان فضلاً عن ذلك؛ فإنّ الشّركة لم تندمْ قَطّ على جَسارة اختيارِها. وسأُعطيك مقالات أخرى له إذا كنتَ ترغب في ذلك، وسترى مدى ما يتميّز به نثرُه من صواب ودقّة وتوفيقية. قيل لي إنّه كاتبٌ أيضاً، ولكن بصراحة لم أقرأ كتاباته الأخرى، لأنّ التّأمين يشغل وقتي كثيراً، إذا سُمِح لي بأن أذكُر شخصي، غير أنّي لستُ متيقّناً من أنّ أيّ قصّة كتبَها تستطيع أنْ تُضاهيَ جودةَ نثره في ما يخصُّ مكافحةَ حوادث العمل في صناعة

مملكة بوهيميا. هيّا، عليك أن تتركني الآن، فالتّأمينُ غولٌ يلتهم حياتَك، أعْطِني الوثيقةَ التي قدِمْتَ من أجلها. ثمّة عوْنٌ سيُعيدُك إلى الباب. ولكن، إذا جاز لي، عُدْ يوماً ما، ورَتِّبْ مكتبَ الدكتور كافكا، فقد اشْتكى إرنست غروليج الطّيّبُ إلى الإدارة من أنّه ربّما ترك الكثيرَ من الأوراق في الأدْراج والخزانات. وكان يوشك باستمرار أنْ يُلقِيَ بكلّ شيءٍ في سلّة المهملات. أنتَ تدري مثلما أدْري؛ أنّ حظوظ عودة دكتورنا كافكا إلى هُنا تكاد تكون معدومة. لذا فإنّ الباب مفتوح في وجهك لترتيب مكتبه». كان الرّجل قد ضغط على الجرس أمامه، فقام عَوْنٌ على الفور بإيلاج رأسه من خلال الفتحة، وعرض خِدْماته.

كان فرانتس قد أسَرَّ له في ماتلياري: «الكتابة هي هدفي الوحيد، ثمّة عقبةٌ واحدة تعترضُها، ولكنّها عقبةٌ كَأْداءُ، إنّها المكتب».. ....

وصل بْرود أخيراً، اعتذر اعتذاراً فاتِراً، جلس مُحدّقاً في الفراغ. نادى النّادلَ من بعيد، وطلب بيرةً، فشربها دفعة واحدة، وطلب أخرى. ثمّ طفق يتحدّث بطريقة سريعة ومتقطّعة، وأوضح أنه كان عائداً من مكتب التّأمين حيث ذهب لاستلام أغراض فرانتس. وبيّن أنّه وصل إلى 7، شارع بوريك عند السّاعة الثامنة، مُتوتِّر الأعصاب على نحو مُتزايد، أخذه عوْنٌ إلى مكتب فرانتس وتركه وحيداً داخل الغُرفة. عند المدخل، كان معطف فرانتس الرّمادي لا يزال موجوداً، مُعلَّقاً على المشجب، بياقة عَرَاها شيءٌ من البِلى. إضافة إلى مطريته. أزاح السّتائر لينفذ الضّوءُ إلى الغرفة، وفتح النّافذةَ ليُتيحَ دخولَ قليلٍ من الهواء. لقد قاوم إغْراءَ الجلوس على الكرسيّ المقابل للمكتب حيث جلس عليه مرّات عديدة، عندما كان يذهب لرؤية فرانتس في العمل. وتأمّل قليلاً المقعد من خشب الأكاجو، والمكتبَ

المكسو بالمولسكين، الذي كانت المحبرة ما تزال ممتلئة عليه. لم يلْمَس أيَّ شيء، وبالكاد جَرُؤ على التّنفّس.

واصل بْرود حديثَه المحموم، وبدا كأنّه دَلَفَ إلى قُدُس الأقْداس. وأوضح أنّه مكث فترة طويلة، وكأنّه مشلول، واقفاً أمام الخزانة الحديدية الكبيرة في الغرفة، متردِّداً في فتحها، وكأنّه يُجازف بارتكاب عمَل من أعمال التّدْنيس. وآل به الأمرُ إلى إدارة المِقبَض. عندئذ اكتشف على الرّفوف المشهدَ المُذهِلَ لكدْسة من الدّفاتر، جميع أصناف الدفاتر، كُرّاسات مدرسية، ودفاتر لولبية، ومذكّرات صغيرة، وبعضها مُهترئٌ حتى الحافّة.

انتهى الأمر بروبير إلى أن يطلب منه: « تابعْ!». كان بْرود قد توقّف عن حديثه ليشرب ببُطْءٍ شديد لم يستسغْه الشّابُّ.

وضع بْرود كأسه جانباً. أخرج مذكرة من الجيب الداخلي لسترته، ومدّها من دون أن ينبس بكلمة. فتحها روبير وقرأ مصادفة من إحدى الصفحات:

«الكتابة تتمنّع عليّ. أفكّر مليّاً في استقصاءٍ سيرذاتيّ. ليس سيرةً، إنّما هو استقصاءٌ، إضاءةٌ دقيقةٌ للعناصر الصّغيرة».

شرع يتصفّح المذكّرة وقلبه ينبض بشدّة. تُبْسَطُ الكتابةُ تارة رحيبة وغير منتظمة، وتارة أخرى ضيّقة وأكثر تنظيماً. هنا ورقة عاريةٌ من الكلمات، وهناك سطررٌ كاملةٌ مشطوبةٌ، وبعد ذلك، صفحةٌ مُسوّدة تسويداً كاملاً، وصفحة أخرى نصفُها ممزَّقٌ. تريّث عند مقطعٍ جديد:

الوجه الأكثر مُمانَعَةً الذي لقيتُه دائماً لم يكن ذاك الذي قال: «أنا لا

أُحبُّك»، ولكن ذاكَ الذي أكّد: «لن تجد إلى حُبّي سبيلاً. ومهما شئتَ، فإنّ ما تُحبّه في سبيل شقائك هو الحُبُّ عندي. الحُبُّ عندي هو ألّا أُحبّك».

ـ «فالقول إنّ أحد مُوظّفي المكتب كان بمستطاعه الإلْقاءُ بالمذكّرات»، أردفَ بصوت أقلّ تهيُّجاً، كما لو أنّه، عندما بادل مشاعرَه، قد أزاح عنه عِبْئاً ثقيلاً جاثِماً عليه.

ـ «إنّه، ببساطة، أمرٌ غريبٌ!»، قال روبير.

ـ «ولكن هناك شيءٌ آخر»، قال بْرود بنبرة أكثر حميمية.

ـ شيءٌ آخر؟

ـ «بعد أن أفرغْتُ الخزانةَ، وملأتُ حقيبتي بالدّفاتر»، واصلَ بْرود بصوت فيه انفعالٌ وتأثُّرٌ.. «وفتّشْتُ أدْراج المكتب، عثرت على ظرْف. ولمّا فتحت الظرفَ الأوسط، كان اسمي مكتوباً على ظهره... لن تُصدّق ما ستسمعُه»، قال وهو يسحب ظرفاً من سترته، ويشرع في قراءة مُحتواه:

«عزيزي ماكس، وصيّتي الأخيرة: كلّ ما يوجد في ما أتركه ورائي (أيْ في المكتبة، وخزانة الملابس، وطاولة العمَل، وفي المنزل، وفي المكتب، أو في أيّ مكان ما تركتُ فيه شيئاً يمكن أن يُحْمَل وتقع عليه عيناك، كلّ شيء، أتعلّقَ الأمر بالمذكّرات الشخصية، أم بالمخطوطات، أم بالرّسائل التي كتبتُها أنا أو كتبها غيري، أم بالرّسومات، إلخ)؛ يجب أن يُحرَق حرْقاً تامّاً من دون أن يُقرَأ، وكذلك جميع النّصوص، وكلّ الرّسومات التي يمكن أن تحتفظ بها أنت أو أيُّ شخص آخر، يجب عليك أن تطلبها منه نيابة عني. وإذا كانت هناك رسائلُ يُرفَضُ تسليمُها لك؛ فيجب على الأقلّ، التعهُّدُ بحَرقها».

فرانتس كافكا.

طوى الورقة وأعادها إلى الظّرف من دون أن يُوَفَّق إلى إضافة أيّ شيء.

كانت دورا قد ذكرت من قبل تلك الأماسي الشتائية في برلين، في 8، شارع ميكيلشتراسه، عندما كانت هي وفرانتس يُشاهدان في الغرفة صفحاتٍ كاملةً من المخطوطات تحترق، وكان عليها أن ترميها في حوض حديديّ. وبحسب أقوال دورا دائماً؛ لم يكن يُلازِم فرانتس أيَّ شُعورٍ بالاِبتهاج أمام تراقُص ألسنة اللّهب وهي تصير رماداً، كان ببساطة شُعوراً بالرّضا عن واجب أدّاه، لأنّه كان يرى أنّ كلَّ أثَرٍ من آثار هذا العمل الإبداعيّ النّاقص يجب أن يزول، ذلك أنّ الوقت لم يسْنَحْ بتصحيحه، هذا الوقتُ الذي كان يُعوِز فرانتس، مثلما طفقت قُواه تخذلُه.

استأنف بْرود بنبرة رصينة: «في أسفل الدُّرْج الآخر، كانت هناك رسالةٌ أخرى»...أخرجَ ظرفاً ثانياً وأعطاه لروبير ليقرأه..

«عزيزي ماكس، ربّما لن أُشْفى أبداً من مرضي هذه المرّة، فمن المحتمل جدّاً أنّ التهاباً رِئوِياً سيظهر بعد هذا الشّهر من الحُمّى الرّئوية، وحتى إعلاني عنه عن طريق الكتابة لن يكون قادراً على دَرْئِه، مهما كان لهذا من قوّة ونُفوذ.

وفي حالة حُدوث ذلك، ها هي وصيّتي الأخيرة في شأن كلّ ما كتبتُه:

من بيْن كلّ ما كتبتُه لا أقبل إلّا هذه الكُتُب: الحكم، والوقّاد، والتحوّل، وفي مستوطنة العِقاب، وطبيب الرّيف، وقصّة فنّان الجوع».

ظلّا للحظة من دون أن يقولا أيّ شيء. ولمّا لم يُفلِح روبير في كسْر هذا الصّمت، خمّنَ: أَحْرِقْ أعمالي الأدبيةَ احتراماً لذاكرتي، أَتْلِفْ ذاكرتي احترامٌ لذاكرتي. اقتُلْني وإلّا فأنت قاتلٌ.

انتهى به الأمر إلى أن قال:

ـ ماذا ستقرّر؟ ـ تطلب منّي الرّسالةُ المستحيلَ، أجاب بْرود.

ـ الرّسالةُ لا تطلب المستحيلَ، بل تستوجب.

ـ لا يُمكنُنا أن نستوجب ذلك من صديق.

ـ مِمَّن يُمكنُنا أن نستوجب هذا إذاً؟

روى بْرود أنّه ناقش مع فرانتس مصيرَ أعماله الأدبية قبل وقت طويل من وفاته. وفي مواجهة إصرار الكاتب على رؤية معظم كتاباته تُتْلَف؛ كان قد أعربَ بوضوح أنّ عملاً من هذا القبيل سيستحيل عليه فعلُه، ولن يكون في مستطاعه أبداً القيامُ بمثل هذا التصرُّف.

ـ ربّما لهذا السّبب طلب منك هذا مرّة أخرى كتابياً. ـ ولكن، في النّهاية، في أيّ معسكر أنتَ؟

ـ لم أكن أعلم أنّ هناك معسكريْن.

ـ أترغب في أن نذهب إلى بيتي لِنُحرق مُحتوى الحقيبة ونُحوّله إلى رماد؟

ـ فرانتس لم يطلب منّي أنا أيَّ شيء.

ـ وإذا طلبتُه أنا منك؟

ـ لن تطلب منّي أيَّ شيء، ثمّ إنّك اتّخذتَ قرارَك من قبل. أنت لن تحترم وصايا فرانتس الأخيرة. ستخون أعزَّ صديق لك.

ـ سأخونه لأنّني أحترمُه.

ـ كيف يمكننا أن نحترم كلّ شيء ذي صِلة بالرّجل، ما عدا وصاياه الأخيرة، فاحترام الفرد لا حُدود له. إمّا أن نحترم أو لا نحترم.

ـ أنا أتحدّث لك عن فرانتس. وأنت تتذرّع بالمبادئ الكُبرى، تتحدّث بالفلسفة.

ـ أنا أتحدّث لك عن الأخلاق.

ـ هل ترى مِن أخلاقٍ في حَرْقِ الكُتُب؟ هل ترى مِن أخلاق في حرْق أعمال شخصٍ؟ ينبغي للعالَم أن يعرف فرانتس كافكا، ونصوصَ كافكا، وفِكْرَ كافكا.

ـ وماذا لو كان فكْرُ كافكا يقتضي ألّا يوجَد كافكا؟

ـ أتُريد أن نكون مجرّد رهْطٍ من الذين حَظوا بقراءة مثل هذه الأعمال الأدبية؟

ـ لقد شاء ذلك! كان يرى أنّ القلعة والكتاب عن أميركا منذوران لِئلّا يُقرَأا.

ـ وما الشيء الذي نُذِرا له، وَفق رأيك؟

ـ نُذِرا للكتابة، هذا كلّ ما في الأمر. مَن قرَّر أنّنا نكتُب من أجل أن نُقرَأ؟

ـ أنْ تكون قد بَنَيْتَ مثل هذه القصص، وشيَّدْتَ مثل هذا العالَم، وأسَّسْتَ مثل هذا الفكر، من دون أن تكون للآخر منزلةٌ فيه؟ هل تحسب فرانتس وحْشاً أنانيّاً؟ هل تظنّ أنّ المرء يُمكنه أن يكتبَ *(القلعة)* ويُنفقَ في كتابتها أشهراً من عمره، ويُوهِنَ في سبيلها قُواه، ويُقيمَ صَرْحاً فكرياً، ثمّ يُدمِّرُه بعد ذلك؟ لا، لم يكن من رأي كافكا أن يختفي القارئُ، وأن يَنْفِيَه.

لم يكن كافكا عَدَمِيّاً. كان فرانتس يصفُ انهيارَ العالَم، ويُظهرُ الفروقَ الدقيقةَ. وكان يحبُّ مشاركة نصوصه مع الآخرين، وقراءتها على الجمهور أيضاً. وكم مرّةٍ سمعتُه يقرؤها. كان يُريد أن تُنشَر كُتُبُه، ليس بالطّبع تحت أيِّ ظرف كان. وكان هذا يُثير فيه قلقاً مُميتاً. اسأَلْ ناشرَه عن ذُرى الذُّعْر التي كانت تبلُغُها رسائلُ فرانتس قبل النّشر. لكنّ الأمر كان ينتهي بفرانتس إلى الاِقتناع. أَلَمْ تَرَه يُصحّح مُسوّدات جوزفين في اليوم السابق لوفاته؟ وهو نصّ بَعَثَتْه إلى المصحّة دارُ شميده للنشر! ماذا أنتَ فاعل بهذا؟ أتعتقد أنّ فرانتس كان يتصرّف ضدّ مشيئته؟ لا، كلّ هذا يعني، ببساطة، أنّ هذه الوصية، وأنّ هاتيْن الرّسالتيْن الموجزتيْن اللّتيْن اكتشفناهما للتّوّ؛ هما وصيتاه ما قبل الأخيرة، المكتوبتان في لحظة من التّيه والضّياع، ومن العدميّة، ومن حالة اليأس المطلق، التي كان عليها في فترة كتابته لهذه الكلمات. لكنّ فرانتس كان قد تغيّر وتطوّرت أفكارُه ومعتقداته ويقينُه مع مرور الزّمن. أنتَ مثلاً، كنت قد عرفته صهيونياً يتوق إلى أن يُنهِي حياتَه في فلسطين مع دورا، لقد عكف على دراسة العبرية باستمرار، بل وتمكّن من قراءة روايات بالعبرية. وأعلن جِهاراً أنّه يُريد زراعة أرض فلسطين، بل وتحدّث عن افتتاح مطعم مع دورا في تل أبيب! كنتُ أعرفُه، وأنا في سنّ العشرين، مُناهِضاً للصهيونية، وكان يلومُنا، أصدقائي وأنا، على رغبتنا في مغادرة أوربا ومذابحها لتأسيس وطن يهوديّ. لقد سخر من مثاليتنا، وحكم على أحلامنا بالسُّخف. كان ذلك في سنوات دراسته. لكنّه تغيّرَ كلّ التغيُّر في العشرينيات. مَن نُصدّق إذن، كافكا الذي أضحى صهيونياً في النّهاية، أم كافكا المعادي للصهيونية في شبابه؟ كافكا الاِنتحاريّ الذي عرفتُه، والذي كان يختم كلَّ قصّة من قصصه بالموت الوحشيّ لبطله، أم

كافكا الآخر الذي رأيتَه في برلين، وحتى في كيرلينج، الذي تعلّق بالحياة بكل ما يملكه يأسُه الهائلُ من طاقة عجيبة؟ وماذا يمكن أن نقول عن هذا العام الذي أنفقه مع دورا! مِثلُ هذا الرجل الذي لم يستطع أبداً مغادرة براغ، والذي لم يتمكّن أبداً من الإِنتقال من غُرفته إلّا بمساعدة أُخته، والذي أفلح في الرّحيل، وفي مُبارحة السّجن العائليّ، لعلّه تجاوز ذلك بوساطة الحُبّ أو بحتمية الموت التي لا مفرّ منها، كافكا الذي نجح في التغلّب على ما بدا أنّه مصيرُه، وفي قهْرِ قضائه وقدَرِه.

ـ لا أدري.

ـ «لا أدري!»، هذا ليس جواباً.

ـ أشعُر أنّ خيانة وصيته هي خيانةٌ لذاكرته ولصداقته، إنّها تعْني قتلَه للمرّة الثانية. وأنا حزينٌ للغاية أن أفكّر بهذه الطريقة.

ـ وحَرْقُ أعماله الأدبية، ألا يعني قتلَه للمرّة الثانية؟ أليس هذا تأكيداً لانتصار الظّلام على الحياة؟ ألا يعني هذا مَنْحَ الانتصار لبشاعة المرض؟ إنّ الحياة، يا روبير، هي التي يجب أن تفوز في اللّعبة! إنّ الإنسانية هي التي يجب أن تخرج منتصرة من هذه المأساة الفظيعة التي شهدناها، والتي يُعَدُّ فرانتس بطلَه المأساوي. الحياة ليست هي الأدب، يا روبير، ومن يُنبِئك بهذا هو كاتبُ.

ـ أنت الذي تتحدّث بالفلسفة يا ماكس. تتحدّث وكأنّك ممثّلٌ لمعسكر الخير.

ـ أودّ أن أكون في معسكر الخير يا روبير، وأعلمُ أنّ الأمر ليس مُغْرِياً للغاية، وأنّنا نُفضّل الأنذالَ، طالما أنهم يتباهون ببهرج الكتابة! قرأتُ

أيضاً كارل كراوس، واطّلعتُ على المقالات التي يُهاجمُني فيها. ولكن، مرّة أخرى، يا روبير؛ إنّ الأمر يتعلّق حقّاً وفعلاً بالحفاظ على إرْث رجل عبقريّ.

ـ سوف تُتَّهَم بخيانة فرانتس.

ـ أنا أستخفّ باتّهام النّاس لي! أنا سأتعهّد بأن أكون خائناً. ولا آبَه لِسُخرية كلّ المُزدرين في عالَم الأدب الفْيينّي في مقهى السنترال! عندما كان كافكا على قيْد الحياة، كان كارل كراوس ينتقد أعمالَه الأدبية بالفعل، أو يتجاهلُه وهو يُظهِرُ غطْرَسَةً. أعتقد أنّ من الخير للإنسانية أن تُقرَأ كتاباتُ كافكا بدلاً من مقالات الهجاء الحقيرة الدَّعِيَة لكلّ الصّغار الذين يحْدون حَذْو كارل كراوس. وبعد ذلك، باسم مَن سيتحدّث المستخّفون بي؟ باسم مَن سيلومونني عندما خُنْتُ وصيةَ كافكا؟ إنّهم يجهلون حتى اسمَ كافكا لو لم أكُن قد انبريْتُ لخيانة فرانتس. لا يا روبير، الأدب يستحقّ أفضلَ من كارل كراوس. إنّه يستحقّ كافكا. أمّا كلُ ما تبقّى، فأنا لا أحْفَلُ به.

ـ أعتقد أنّنا نبتعد عن الموضوع.

ـ موضوعنا ليس إحراق كافكا.

ـ لعلّ الأمر يكمُن، بكلّ بساطة، في أنّ كافكا كان يرى أنّ عملَه الأدبيّ ليس جديراً بأن يُنشَرَ.

ـ أنا أتّفق معك في هذه النّقطة، كان يفكّر على هذا النّحو، ولعلّنا نحن وحدنا فحسب، نستطيع اليوم أن نقول في هذا الشّأن: كم كان مخطئاً. ونحن الذين نعرف هذه النّصوص التي عَدَّها غيرَ جديرةٍ بالقراءة، نعرف ما الذي يجري. لم يكن لكتاباته حُظوةٌ في تلك المنزلة السامية التي كان يُبوِّئُ

فيها الأدبَ، بل كانت صالحةً لتكون وقوداً للنّار فحسب. إنّ الشُّكوك التي كان يُفصح عنها لإرنست روهلت قبل صدور *Betrachtung* لا تعني شيئاً آخر. تذكَّرْ عندما كان يزعم: « *اللّه لا يُريدُني أن أكتب، ولكن لا بُدّ لي من ذلك*». انظُرْ في أيّ الدّوائر المقدّسة كان يُحِلُّ فيها ممارسةَ الكتابة. كان سيبُدي عَجْرَفَةً رهيبة لو أنزل رواياته في هذه المجالات السّماوية. ولكنّنا نحن الذين قرأناه نعلم أنّ لها منزلَتَها على وجه الكمال هناك. إنّ أعماله الأدبية بأكملها يمكن أن توضع جنباً إلى جنب مع أعمال غوته، وكلايست، وفلوبير. نحن نعلم أنّ *(القلعة)* يمكن أن تقع بجانب الإلياذة.

ـ لكنّ *(أمريكا)* و*(القلعة)* عملان منقوصان. هل ستنشُرُ عملاً أدبياً غيرَ مُكتمِلٍ، قصّة غير منتهية؟ فكيف سنحكم على مُؤلِّفِ قِصّةٍ لم يَرَها مناسبة لِـ...، أولم يستطعْ إكمالَها.

ـ لم نُوَفَّق أبداً إلى (القلعة)، و(أمريكا) فرانتس لا توجَد، أو توجد فقط في أسوأ كوابيسنا. ولعلّنا نستطيع فضلاً عن ذلك؛ أن نقول إنّه لا يوجَد نصٌّ قد اكتمل على الإطلاق، وأنّ إكمالَ الروايةِ ليس له أيُّ معنى. الرواية لها عددٌ لا نهائيٌّ من النّهايات المُحتملَة. لماذا هذه النّهاية وليست تلك؟ كلّ نهايةٍ ناقصةٌ، وكلُّ نهايةٍ مُوهِمَةٌ. إنّ إكمال الرواية هو القضاء على الأمل الحيويّ للرّواية المكتملة والتّامّة الذي حملك على الشّروع فيها، القضاء عى الأمل في حياة مثالية. لذلك ربّما كانت نهايةُ الرواية، بالنسبة إلى كلّ كاتب، تُشير ببساطة إلى نهايةِ الأوهام، ونهايةِ حُلمِ الرواية الكاملة، ولعلّ إكمال رواية، بالنسبة إلى كافكا، الكاتب المطلق، كان يعني أن يقضيَ المرءُ على ذاته. الانتهاءُ من رواية ربّما كان يعني أنْ يُقْدِمَ المرءُ على قَتْل نفسِه.

ـ القارئ يستخفّ بمقاصد المؤلِّف. القارئ لا يحتمل روايةً لا نهاية لها. سوف يشعُر وكأنّه تعرّض للخيانة.

ـ هل حيواتُنا مُهِمّةٌ بواسطة النّهاية التي نعرف مآلَها. لا، النّهايةُ لا أهمّية لها، النّهاية هي نفسُها دائماً. يتوقّف القلبُ عن النّبض، وينتهي الموضوع. رواياتُ كافكا هي صورةٌ عن الحياة. فالنّهايةُ لا تهُمُّ، إنّما المُهِمُّ فحسب هو الطّريق الذي نسلكُه. أبطالُ كافكا وحيدون، يخضعون للعَسْف، ويتصرّفون كما لو أنّهم سيعيشون، كما لو كان بمُستطاعهم التّخلُّص من العَسْف، كما لو كانوا أشخاصاً أحْراراً. يُواصلون تعليلَ النّفس وتجاوز رجائهم حتى آخر رمق. وإذا كان هذا التجاوز، وحقيقةُ العالَم هذه، وهذا الاِنتصار على يَباب الحياة، وموضوعُ المُواساة هذا الساميُّ؛ هو الذي ترغب في أن نُقدّمه قرباناً للنّار؟ أمّا أنا فلا أشعر أنّني قادرٌ على مثْلِ هذا الدَّنَس. لم يكن روبير راغباً في الاِستمرار. وشعَر أنّه ما عاد يحتمل إقناعَ بْرود بحَرْقِ كتابات صديقه. وافترقا على أمل أن يلتقيا مرّة أخرى.

وفي اليوم التالي استقلّ القطار إلى بودابست، عاد ليستكمل أُمورَه. وحيداً في المقصورة، أخذ في تأمّل المناظر الطّبيعية التي كانت تتوالى على مرأى منه. ثمّ استعاد ذلك اليوم، قبل ثلاث سنوات، في شتاء عام 1912، عندما كان في مقصورة أخرى، وعلى متْن قطار آخر، تارِكاً رتابةَ حياته الطّلابية في سبيل علاجِ مرضِه في المصحّة. لقد قَلَبَت هذه الرّحلةُ حياتَه رأساً على عقب. إنّ التجربة الأكثر روعة والأشدّ ثراءً، التي ربّما لم يسبق له أن مرّ بها، قد دفعت به إلى طليعة الإبداع، والمُعاناة، والحُبّ، والموت.

القسم الثاني

1933 ـ 1936

دورا

منذ عدّة أسابيع، في الشّقّة الواقعة في حيّ شتيغليز ببرلين حيث كانت قد لجأت إليها، اعتادت دورا ديامانت أن تنام بكامل لباسها على أريكة الصّالون. ذلك أنّها ينبغي أن تكون في حالة تأهُّبٍ عندما يظهر أشخاصٌ في ملابس سوداء. لكن في ذلك الصّباح، كَدَأْبِ الأيّام السّالفة، وخلافاً لتوقّعات الحزب، كانَ صوتُ العصافير عند النّافذة هو الذي أيْقظَها من النّوم، بدَلاً من طرقات أعْقابِ المُسدّسات على الباب. فتحتْ عينيْها جَذِلَةً باليوم الذي تلوحُ تباشيرُه. وظنّتْ أنّها كسبَتْ هذا اليومَ.

تراخَتْ بُرهة على الأريكة، ثمّ ذهبت لتلْبَد واقفةً عند النّافذة، أخذت نفَساً عميقاً، في دِفْء الشّمس السّاطع، وهي مُتيقّنة أنّ صيف عام 1933 سيجلُب مصائبَ وكوارثَ ومآسِيَ أقلَّ من الرّبيع الذي سبقه ـ فهل من الممكن أن يكون أسوأ؟ وظلّت مقتنعة بأنّ الشّعب الألمانيَّ الذي أنجب للبشرية غوته، وبيتهوفن، وماركس، سيستطيع أن يرجِعَ إلى صوابه وتثوبَ نفسُه. لن تكون المسيراتُ على ضوء المشاعِل في شارلوتِنْبورغ وإحراقُ

الكُتُب في ساحة الأوبرا، إلّا مجرّد ذكرى سيّئةٍ. فالطّفلُ الذي كانت تحملُه في رحمها سيُبصر النّورَ سعيدَ الطّالِع.

إذا كان طفلاً، ستسمّيه فرانتس، أمّا إذا كان بنْتاً فستُسمّيها مارْيان، لأنّها ببساطة تُحبّ فرنسا. أن يكون فتاةً أم فتىً؛ إنّها في الواقع لا تأْبَهُ لهذا الأمر. كانت سعيدةً إذْ أضحتْ أُمّاً وهي في الرّابعة والثّلاثين من عُمرها. لاشكّ في أنّ لهذا الاسم فرانتس وقْعاً حَسناً. وسيكون لوتس أباً ممتازاً، لقد كان زوجاً ودوداً، ورجُلاً لطيفاً كلّ اللُّطف، وإنْسياً مُلتزماً. أين كان يوجد اليوم؟ هل اعْتُقِل في معتقل داخاو مع القادة الشيّوعيين الآخرين؟ بيرْتا، أُمُّ لوتس، كاتبةٌ مسرحية لا تُضاهَى، قَدّمت عُروضَها في أنحاء ألمانيا كافّة، زُجَّ بها في السّجن بسبب أنشطة غير قانونية. كانوا يعتقلون بكثافة ومن كلّ حدب وصوْب؛ اليهودَ والاِشتراكيّين والشّيوعيّين والنّقابيين. كانت دورا عُضواً في الحزب الشيوعيّ الألماني منذ ثلاث سنوات. وكانت تعرف المصيرَ الذي ينتظرُها إذا أُلْقِي القبضُ عليها. تعمل الآن باسمٍ حركِيٍّ (ماريا جيلين). لقد رأت أنّ هذا الاسم الحركِيَّ متعلِّقٌ بالرّوايات جدّاً. كانت تحلُم بروزا لوكسمبورغ، ولكنّها لم تكن تريد أن ينتهي بها المطافُ مثلَها، مُغتالَةً ومُشَوَّهَةً في مياه نهْر سبري. لم تكن خائفة على نفسها، بل كانت تخشى على طفلها.

كانت تدينُ للحزب بكلّ شيء. حتّى بلقائها مع زوجها لوتس لاشْك، مُجاز في الاِقتصاد، يهودي ألمانيّ ومن أرومة ماركسية، يُعَدّ من صفوة الحزب الشيوعيّ. كانت تُصغي إليه خلال ساعات وهو يتحدّث عن قُوى الإنتاج، والفكر الجدليّ، ويستشهد بماركس وهيجل. في الوقت الذي كانا يُقيمان في زيهليندورف، كانت بعض اجتماعات الخلايا تُعقَد في

صالونهما. أمّا الآن فقد أضحى الحزب يعمل في السّرّية. حان الوقت للتَّخَفّي وغيّرَ العالَمُ صورتَه، وعَمَّ الخوفُ المدينةَ. كان الرُّعْب شريعةَ البَشر.

عندما نفكّر أنّها قبل عشْر سنوات فقط؛ كانت تتمشّى مُتأَبِّطَة ذراعَ فرانتس في أونتر دن ليندن، وتذهب للتّنزّه في كودامن. هل كانت تلك الأوقاتُ موجودةً أصلاً؟ لطالما أحَبّ النّاسُ برلين وشعُروا فيها أنّهم سُعَداءُ وأحْرار. أمّا الآن فإنّهم يختبئون كالجرذان. ربّما كان لوتس لاسك في داخاو. قال سبيلمان، وهو رفيق من الخلية 218، سينتهي بهم المطاف جميعاً هناك. كان سبيلمان متشائماً كبيراً. أمّا هي فكانت تؤثر رُؤيةَ الجانب المشرق من الأشياء. لقد عرفت السّعادة في برلين قبل عشر سنوات. كنتُ زوجة فرانتس كافكا.

هل كان هذا حُبّاً، يا لوتس؟ لم يكُن في فؤادها مُتَّسَعٌ لاحْتواء شَغَفَيْن.

كانت مفتونة بذكاء لوتس، مُنتشِيَةً بالتزامه وشجاعته. كانت تُصغي إليه، مُوَلَّهَةً به، وهو يستميل دعْمَ الجمهور برمّته في شأن نصّ مذكّرة اقترحها، ويحمِلُ هذا الجمهورَ نفسَه على تغيير رأيه بسهولة في شأن إجراءٍ ينبغي اتّخاذُه. متحدّثاً عن مجتمعٍ بلا طبقات، وعن المادّية التّاريخية، كان يبدو أنّه يُعرِّض حياتَه للخطر مع كلّ كلمةٍ ينطق بها. كان هذا الجسدُ النّحيفُ، الأعجفُ تقريباً، يَفيضُ بالقوّة. ولعلّ هذا هو ما كان يُعجبُها في الرّجل، أيْ صلابة الفكر؟ كان الاِقتصاديُّ الماركسيُّ اللاّمعُ من برلين، والكاتبُ الصّموتُ من براغ تُحرّكُهما المثاليةُ نفسُها، أوْقفا حياتَهما تماماً في سبيل قضيّتِهما، السّياسة لأحدهما، والأدب للآخر. أَلَمْ يُدافعا كلاهما عن المُهانين؟

لم يفهم لوتس شيئاً في *(القلعة)* التي وجدها غامضةً وعديمةَ النّفع، مثل كلّ الرّوايات التي منحتها له ليقرأها. كان يُؤثر مؤَلّفات إنجلز وماركس، على الرّغم من ذكائه الفائق؛ قد يبدو لوتس لاسك شخصاً ساذَجاً سذاجةً كبيرة.

قبل وصول هتلر، كانت رواية *(التّحوّل)* مُقرَّرَةً في إحدى الجامعات الألمانية. سألها مناضلون من الحزب الشيوعيّ لمعرفة إذا ما كان كافكا كاتباً ماركسياً، فأجابت بالنّفي، وأضافت على الفور، أمام خيبة أمل الحضور، أنّ الرواية مع ذلك تُندّدُ بالخضوع للنّظام القائم، ابتداءً بالسّلطة الأبوية وانتهاءً بالسّلطة الاِستبدادية العُليا. وسألوها إذا كان كافكا قد انخرط في معارك عصره، وهل قرأ ماركس، وهل أبْدى اهتماماً حقيقياً بالثورة البلشفية؟ فأجابت بالنّفي، ومنذ ذلك الحين، لم يتحدّثوا مرّة أخرى، في خلية الحزب الشيوعيّ رقم 218، عن الكاتب البورجوازي فرانتس كافكا.

لم تكن دائماً على وفاق مع أفكار الحزب. وقلّما كانت متحمِّسَةً لفكرة دكتاتورية البروليتاريا. كانت كلمة دكتاتورية تتناهى إلى سمْعِها قبل كلمة بروليتاريا. لقد حاول سبيلمان أن يُبرهن لها، بلهجته المُتبجِّحَة والمُؤسفة، أنّ هذه الدكتاتورية كانت المدخلَ الأساسَ لزوال جميع الطّبقات، والدِّعامةَ الأساسَ في اللّينينية، والرَّدَّ الشَّرسَ على الدكتاتورية الفظّة التي تُمارسُها البورجوازية الليبرالية. وكانت نفسُها تأبى الاِقتناعَ، وسُرعان ما كانوا يتّهمونها بإشاعة أفكار مُضادّة للثّورة، واعتبروها تروتسكية. وكانت تُنكِر هذه الاِتّهامات. ولم تكن في حاجة إلى أن تتلقّى دُروساً في المبادئ الثّورية من أيِّ أحد.

قبل أن تنخرط في الحزب الشيوعيّ كانت ممثّلة كوميدية. لقد تلقّت

دروساً في أكاديمية الفنّ الدرامي في دوسلدورف. ومثّلت في قاعات تغصّ بالجمهور. كان فرانتس سيكون فخوراً بها. وكلّما كانت السّتارة تُرفَع، كانت تُفكّر فيه، تتخيّله في القاعة، أو عندما كانت تُبصر طيْفَ رجلٍ في الصّفّ الأمامي، كانت تقول في قرارة نفسها قد يكون فرانتس، فكانت تُمثّل من أجل هذا الرّجل.

لكنّ الحياة تحوّلت إلى مأساة. كان النّاس يعيشون مأساةً لا نهاية لها.

منذ عدّة أعوام ـ أكان ذلك في ربيع أم صيف عام 1926 ـ حَلَّ روبير بمنزلها. جاء إلى برلين لإتمام تكوينه في الجراحة. كان قد تخصّص في علاج داء السُّلّ! كانا قد تحدّثا معاً عن سخرية الحياة. لقد غيّرت بضعةُ أشهرٍ من سنّ الشّباب حياتَهما، وحدّدت خياراتهما الأكثر حميمية، والقرارات الحاسمة في حياتيهما. شرِبا نخْبَ الصّدور الجديد لرواية *(القلعة)* في ألمانيا. وقد أشاد الرّباطُ الموضوعُ على غلاف الكتاب بـ(أفضل مؤلِّفٍ في مستهلّ القرن العشرين). ولم يُبَعْ منه ألف نسخة.

كان روبير قد قدّم إليها زوجتَه، مجريةٌ رائعة، كاتبةٌ ومترجمةٌ، تُدعى جيزيل. لقد خاض الزوجان غمار مشروعٍ مجنونٍ يتمثّل في ترجمة رواية *(المُحاكمة)* إلى اللغة المجرية.

كلُّ واحد منهما شغلتْه مَهمّاته، كانت هي مُبشِّرةً بالثورة، أمّا هو فكان رسولَ الجراحة الحديثة. لم يَرَيا بعضهما كثيراً. شيوعية وطبيبٌ يهوديان، صارا منذ الآن هدفاً.

كانت تحتفظ بحقيبة كاملة من مذكّرات كتبها فرانتس، ومئات من الصّفحات بخطّ يده، ومخطوطات كاملة من الحكايات والقصص

القصيرة والمسرحيات واليوميات المكتوبة في أثناء مقامهما في برلين. كانت الحقيبة تُرافقها في كلّ مكان، كانت بمثابة ميراثها وأغْلى هدايا خطوبتها. لم تعترف أبداً لِبْرود بامتلاكها هذا الكنز. حاول عبثاً أنْ يُلِحَّ، ويُكرّر التُّهمة، ويرتاب علانية في أنّها كانت تكذب عليه، وكانت تُؤكّد دائماً أنّها لم تكن تحتفظ بأيّ شيء، موضّحةً أنّ كلّ شيء كان قد أُحرِق في 8، من الميكلشتراس. وذات يوم، عندما عاد إلى التّهمة مرّة أخرى، أضافت وهي تعترف بكذبها إيماءً: «ليس من الضروري أن يعرف العالَمُ كلُّه كافكا، هذا لا يعنيه!».

كانت تأبى أن تنضمّ المخطوطات التي بحوزتها إلى مجموعة الكتابات التي كان ماكس قد عزم على نشرها. حتّى إِنّها شرعت في نشر صفحات من اليوميات، لقد حالتْ دون خيانةِ رغبات فرانتس الأخيرة. لم تكن تريد أن تقدّم للجمهور أكثر مِمّا أراد فرانتس منحَه له. فَسُدَ الحالُ بينها وبين ماكس، وظلّت تحتفظ بالمخطوطات في الحقيبة.

ولكن ما هي إلّا أسابيع حتى كان الخَطْبُ الجَلَلُ قد نزل بها، أيقظتها في الصّباح طَرقاتٌ عنيفةٌ على الباب، كان رجلان يرتديان ملابسَ سوداء يقفان في صحْن الطّابق.

ـ الآنسة دورا ديامانت؟

ـ السيّدة دورا لاسك، من فضلكما.

ـ ليس من حقّك أن تختاري هُويتَك، سنقوم بالتّفتيش.

طالبَتْ برؤية تفويضهما.

ـ إنّها تُطالب بالتّفويض، يا إرنست!

ـ هؤلاء الأشخاص غريبو الأطوار يبعثون على السّخرية!

ـ دورا، ماذا سيتغيّر إذا عرضنا عليك التّفويض؟ أستسمحين لنا بدخول منزلك؟ أم ستمنعيننا؟ أم ستُجبريننا على استعمال القوّة لتطبيق القانون؟ اِعْلَمي أنّ لدينا جميعَ التّراخيص اللاّزمة. وسترين أنّنا نُبيح لنفسيْنا كلَّ شيء. وفي الحقّ، نحن لا نحتاج لأيّ ترخيص. عرفتُ يهودياً آخر في ستيجليتز، طالَبَ أيضاً بالتّفويض فقلت له: أتحسبُ أنّك تعرف القانون أفضل من ألمانيّ، وأفضل من ضابط في الغستابو، وأفضل من جوزيف غوبلز الذي يَسُنُّ القانونَ. ولم يُبدّل رأيَه، فقال: «أنا مُحامٍ، وأعرف حقوقي!». لقد كان بالفعل محامياً، ولم يتراجع عمّا هو فيه: «أُطالبُ بمذكّرة التّفتيش؟».

ـ في أيّ عالَم نعيش؟

ـ ولهذا السّبب أيضاً نحن هنا، للقضاء على الفكر اليهوديّ الذي يُؤْذي الرّوحَ الألمانيةَ، ويُفسِدُ نقاءَ وبراءةَ الرّوح الألمانية. هؤلاء النّاس يجسّدون تهديداً للإنسانية قاطبة، ولإنسانيتنا نحن خاصّة. أعتقد أنّني كنت سأخنق ذاك المحامي بِيَدَيَّ هاتيْن. وآثرتُ أن أُذكّره بالقانون الأخير الذي صدر في أبريل، والذي يستبعد المحامين من أصل يهوديّ من نقابة المحامين الألمانية. غير أنّ أوتو كان بجانبي، وكما تعلم كانت أعصابُه هشَّةً. كان أوتو حانِقاً للغاية لأنّ هذا الشخصَ كان يُعيق العدالةَ في بلدنا، لدرجة أنّه قضى عليه مثل كلْب. قلتُ له: يا أوتو، إنّك تنسى الإجراءات! الإجراءاتُ أساسيةٌ. لسنا بَشَراً إذا لم نحترم الإجراءات، وهذا ما نلوم عليه اليهودَ. اِنتظرْ يا إرنست، أتعرف ما كان جوابه لي؟ قال لي: «أعلمُ، ولكن هذا الأمر كان أقوى منّي». أترى إلى أين يُؤدّي بنا كلُّ هؤلاء الأوباش اليهود؟ يصطنعون وداعةَ الحملان، وشَرَّ الذِئاب. إنّهم يحطّون من قَدْر

الرّوح الألمانية والقلبِ الألمانيّ والدّم الألمانيّ، هذا الدَّم النّقِيُّ كلَّ النّقاء، الذي يجري في عُروقه.

ـ لقد تحدّثنا بما يكفي، هيّا، ندخُل! سألَتْ عمَّ اتُّهِمَتْ به.

ـ إنّها تسأل بماذا اتُّهِمَتْ!

ـ ما عُدْتُ أُطيق شكاواهم بعد الآن! اِشرحْ لها، أنتَ، يا مَنْ تعرف كيف تُخاطب السّيّدات!

ـ حسناً، إذا شئتُ أن أُوجز، سأقول إنّكِ متّهمَةٌ لمجرّد أنّكِ ما زلتِ على قيْد الحياة، في حين أنّ الكثير من بني جلدتك قد قُضِيَ عليهم قضاءً. ولكن بما أنّ هذا التفسير لن يُرضيَك تماماً، فسأُزيد أنّه إضافة إلى مسائل العِرق؛ فإنّ الأسباب السياسية تحمِلُنا على القدوم إلى هُنا. إنّنا نبحث عن الوثائق، جميع أصناف الوثائق. يَعْنينا كلُّ شيء. لأنّ أيَّ شيء يمكن أن يُعرّضك للخطر، نظراً لانتمائك إلى الحزب الشيوعيّ الألمانيّ، نبحث عن منشورات، وعن قوائم رفاق الحزب... والآن، دعينا من فضلك نَقُمْ بعملنا. كانا قد عَبَرا صحْنَ الطّابقِ وهما يُزيحانها بفظاظة. دخلا الغرفة وفتّشا صُوانَ الصّالون، وهما يُلقِيان بمحتوياته على الأرض، وهشَّما الشّمعدانَ الزُّجاجيَّ، وقَلَبا خزانةَ أدوات المائدة. كان الصالون رُكاماً مُبعثَراً، والأطباقُ المكسورةُ تنْتَثِرُ على الأرضية. ذهب أحدهما إلى الغرفة، وما هي إلّا هُنيهة حتى كان يُطلِق صرخةَ انتصار. نادى على الشخص الذي بالقرب منها، وبدا عليهما النّصرُ والسُّرورُ، وعادا إلى الصالون بالحقيبة، وأعلنا أنّهما عثرا على ما كانا يُفتّشان عنه، فحَسِباه بلا شكّ وثائقَ سياسيةً. لقد وعدا بالعودة، وتعهّدا بأخذْها إذا حاولت الفرار، وبعد ذلك انصرفا.

وبسبب خطئِها، ضاعتْ كتاباتُ فرانتس إلى الأبد.

روبير

كان قد استقرّ في براغ بعد وقت قصير من وفاة صديقه. لم يكن منفاه عاطفياً فحسب. قامت حكومة المارشال هورثي المجرية في عام 1924؛ بِسَحْب حقّ التّصويت من اليهود. لقد تضاعفت الإِبتزازاتُ ضدّ الأشخاص والمُمنلكات. وتهامسَ النّاسُ أنّ الشّرطة كانت قد تلَّقَت أوامرَ بعدم التّدخُّل. كان مبدأُ تحديدِ العَدَدِ الصّارمُ يُقيِّدُ عددَ اليهود المسموحِ لهم بدراسة الطِّبِّ. وكان روبير من زمرة المُبعَدين من الكُلّية. وبعد إجراءات إدارية طويلة، وبمساعدة ماكس بْرود، كان قد عَثَر على مكان في مقاعد جامعة براغ.

عندما كان يمشي في الشّوارع، كان ينتابُه إحساسٌ بأنّ ثمّة حُضوراً ما. كانت جَلَبَة المدينة وبَهاءُ الواجهات يُدْنِيانِه من ذكْرى صديقه. كان يتسكّع في الشّوارع، ويصعد إلى ساحة فاتسلاف، ويجلس في مقهى اللّوفر، ويعْزِم على القيام بما كان يُسمّيه *الجولة الكُبرى*. كان يعبُر جسر تشارلز ويصعد صوب مالا سترانا مُحاذِياً المحكمة، ويتنزّه أمام قصْر شونبرون، ويتأمّل الكاتدرائية من بعيد، ويَسْتَأْني عند ألشيميستينجاس، وينطلق إلى أن يبلُغ منتزهَ شوتيك. عندما كان يطأ الأرصفة ويذْرَعُ الشّوارعَ؛ كان يعروه شُعورٌ بأنّه يسير على خُطا كافكا.

ومع مرور السّنين، بدا أنّ جمالَ القُصور وأبراجَ الأجراس قد خَبا بريقُه. فقدت النُّزهاتُ حتى البلفيدير سِحْرَها، وفقد التَّجوالُ في شارع

الغرابن بهاءَه. لم يعُد ماءُ نهْر فلتاف الحزين والسّاجي يُلهمُه مثقالَ ذرَّةٍ من الأسى والحُزن. كان يعبُر جسرَ تشارلز من دون أن يُلقيَ نظرةً على التّماثيل. ولم يعُد يتريّث هناك ينتظر أُفولَ الشّمس عند الشّفق. أتغيّرت المدينةُ أم أنّ حياتَه هي التي تغيّرت؟ كان ينظر أمامه فيتراءى له ماضيه ينْثالُ عليه. حتى تَراصُّ القُبورِ المُشَعَّثُ في المقبرة اليهودية العتيقة، حيث كان يمكن لمرآها في ما مضى أنّ يُهَيِّجَ دمعَه، فتنْهَلّ من عينيْه العَبَراتُ؛ قد تركه بلا تأثُّرٍ. كانت براغ مُتحفاً.

كان قد وجد مصادفة شابّةً مجريةً تُدعى جيزيل دوتش، التي كان قد تعرّف إليها في طفولته. أصبحت مترجمةً. لقد وقع في حُبّها من النّظرة الأولى. لكن، لكي يتزوّجا، كان لا بُدّ لهما من الِانتظار حتى أغسطس 1929 ليستتِبّ أمرُهُما.

كان يعمل على تحقيق طُموحيْن: أنْ يغْدُوَ جَرّاحَ صدْرٍ مشهوراً، وأن يُترجم *(المُحاكمة)* مع زوجته إلى اللغة المجرية. كان يكِدُّ في سبيل هذيْن الهدفيْن، كما كان يُعْنى بكلّ شيء، على نحو مُفْرِطٍ يكاد يكون مُجاوِزاً الحَدَّ. كان قد احتضن، بالحماسة نفسها، كلَّ مشروع من مشروعيْه، جرّاح مُتمَرِّن في النّهار، ومترجم مُتمرّن في اللّيل. وضاعف نوْبات الحراسة ليلاً في المشفى، بحيث سيُسمَح له بأن يُجريَ عمليات الجراحة بمفرده. وفي أيّام الأحد والأماسي كان يمضي قدماً في ترجمة ما اعتبره أعظمَ تُحفة أدبية كُتبت على الإطلاق. كان يترجم مثلما كان يُجري عمليات الجراحة، مستعملاً القدْر نفسه من العِناية والدّقّة في بناء الجملة كما هو الشّأن في بَتْر الشّريان. كانت خشيتُه من الخطأ الطّبّيّ تُعادِل خشيتَه من سوء فهْم الدّلالة. ومثلما كانت يَدُ الجرّاح تتردّد عند الدُّنُوّ من القلب، كان يرتجف من فكرة

خيانة المُؤلِّف. طوال مدّة طويلة لم يُفْلِح كثيراً في المُضي قدماً إلى ما هو أبعد من الجملة الأولى في الرّواية. ولم يُوَفَّق إلى أن يختار بين: «*من الثابت أنّ جوزيف ك. قد وُشِيَ به، لأنّه قُبِض عليه ذات صباح من دون أن يقترف أيَّ خطأ*»، و«*كان لا بُدّ من الوشاية بجوزيف ك.: ذات صباح، أُلْقِي القبضُ عليه من دون أن يقترف أيَّ خطأ*». وحتّى يومنا هذا، وبينما كانت جيزيل وهو قد أحْرزا تقدّماً ملحوظاً في عملهما، وكانا قد بلَغا الفصلَ الخامس من الرّواية، الذي عنوانه «الجلّاد»، أو «الضّارب بالعصا»، أو «السّائط»، لم يبُتّا في الأمر بعد. فقد تردّد في الشّكل الذي سيمنحه لمُستهَلّ الرّواية. كيف ينقل إلى لُغته القوّةَ والغرابةَ المُقلقةَ ودُعابةَ هذا القول: «*Jemand mubte Josef K. verleumdet haben, denn ohne dab er etwas Boses getan hatte, wurde er eines Morgens verhaftet*». وكان ييأس، في بعض الأماسي، من بُلوغ ذلك.

انتهى المطاف ببراغ إلى أن جعلتهما معاً يتبرّمان بها. كانا يحلُمان بالرّحيل إلى برلين، على الرغم من الأزمة والبؤس وذُرى العُنف والكراهية التي كانت تعصف بالبلد برُمّته. أَلَمْ تكن المكانَ الوحيدَ الذي كان كافكا قد عثر فيه على السّعادة والسّكينة. في ماي 1926 غادر روبير جامعة تشارلز للتسجيل في جامعة كييل، ومُواصلةِ تكوينِه في هذه المدينة الألمانية الهادئة، على ضفاف بحر البلطيق. ثمّ كان التّكريسُ، إذ قُبِل في المشفى الخيري ببرلين، في قسم جراحة الصّدر الذي يشرف عليه البروفسور فرديناند سويربروخ. غدا سويربروخ مُرشدَه. بدا روبير دائماً وكأنّه يريد المضيّ قدماً في كَنَف شخصٍ ما، وكان الإعجاب عنده أجملَ الفضائل. أو أنّ مَرَدَّ ذلك عامّة يعود إلى أنّه فقد أباه وهو صغير!

كان سويربروخ يميل إليه ويعطف عليه ويُخضعُه لنفوذه وتأثيره. ولقّنه أساليبَه في الجراحة: كيف يُجري جراحة بَضْعِ الصّدْر ـ عملية بَضْعِ الصّدْر الخلفي الجانبيّ الكلاسيكية، والأخرى التي كانت أقلّ، وهي بَضْعُ الصّدْر الجانبيّ ـ وأُسُس بَضْعِ القَصِّ، وكيفية خِياطة القصبة الهوائية، وإجراء استئصال القصبة الهوائية، كيف تختار أوّلاً طريقتَك في استئصال كبير، استئصال الفَصّ مثل استئصال الرّئة، والشّروط اللازمة للإرْقاء الجيّد لِعُنيقات الأوعية الدّموية، وإفراغ الانصبابات. وسرعان ما باحتْ له بأسرارها قواعدُ فنّ جراحة الصّدر، أجْمَل وأنبل الجراحات.

كان في الحقيقة يفكّر في شيء واحد فقط. لم يكن قادراً على إنقاذ صديقه من فَتْك داء السُّلّ. ولم يدُرْ في خَلَدِه إلّا هاجسُ واحدٌ هو معرفة كلّ شيء عن الدّاء.

وكأنّ الحياة تسْنَح أحياناً بنِعْمَة غير مُتوقَّعَة لِاستدراك ما فات. كان يحلُم سِرّاً بابتكار علاج جديد لداء السُّلّ. كان يحلُم بأنْ يَشْفي، ويبتدع. سيستطيع في أواخر عمره أن يقول: لم أستطعْ إنقاذَ كافكا، بَيْد أنّي ساهمتُ في إنقاذ إخوتي الآخرين من البشر. وفي مارس 1930، وبدَعْم من سويربروخ، حصل على منصب مساعد في سوميرفيلد، في ضاحية برلين، في مشفى متخصّص في علاج داء السُّلّ. أنشأ يُطوِّر علاجاته الجراحيةَ لداء السُّلّ على المرضى ـ وعندما كان الدّاء خارجَ الرّئتيّن يغزو حنجرةَ مرضاه؛ كان يُجري عملية استئصال الحنجرة. قدّم أطروحتَه في جامعة فريدريش فيلهلم ببرلين، وهو العمل الذي طوَّر أسلوباً جديداً في سياق الإصابة المَعَوِيَة بالمرض. وكان عنوانُها: (استرواح الصِّفاق كوسيلة لعلاجِ داء السُّلّ المَعَوِيّ بالجراحة). نال تهاني اللّجنة، ووعده مديرُ أطروحته هيرمان

مورينزجوشت، متخصّصٌ في الأشعّة وجرّاحٌ؛ بمستقبل باهر. ولا يبدو أنّ الإهداء في الصفحة الرّابعة من الأطروحة قد أثار اهتمامَ أيِّ شخصٍ: *إلى ف. ك.*

في سومرفيلد، كان تشخبصُه الموثوقُ به، ومهارتُه، وحِسُّ العزْم والتّصميم لديه، وتعاطفُه مع المرضى؛ ينتزع الِاحترامَ. كان البروفسور فولفغانغ ج. يشجّعه قائلاً: «تنتظرك هنا حياةٌ مهنيةٌ باهرةٌ»، وتابعَ رئيسُ القِسْمِ «سيكون الطّبُّ الألمانيُّ مديناً لك يوماً ما باختيارك له».

منذ أن وصل الفوهرر إلى السّلطة، كان البروفسور فولفغانغ يختتم محادثاته دائماً بـ«Sieg Heil»[1] المؤثّرة، لا لأنّه يشعر بأيّ تعاطف مع أدولف هتلر، الذي يعُدُّه جاهلاً وسوقياً، ولكن لأنّه كان يدّعي إعجابه بالعودة إلى النّظام والقيم الألمانية الحقّة. كان يوضّح قائلاً: «دعونا نعترفْ بأنّ هتلر يحكُم بِيَدٍ من حديد، ولكنّها يَدٌ تُذكّرنا بِيَد الجرّاح، التي لا ترتجف عند البَتْر». كان النّظام في نظر البروفسور أحدَ المفاهيم الأساس للحياة العامّة، وللحياة على نحو عامّ. لا يُمكن لأيّ أُمّة أنْ تُبْنَى وهي في حالة من الِاختلال. لقد كانت الفوضى عَدُوَّ البشرية. ولا يمكن للفرْد أن يسمُوَ في وضْعٍ من عدم اليقين والشّكّ. في الحقيقة، إنّ أدنى إزْعاج ـ كشيء من الفُتات على المائدة، أو تأخير مدّة دقيقتيْن، أو ورقة منفصلة، أو ضِمادَة لا تُمَدُّ له بسرعة أثناء قيامه بعملية جراحية ـ كانت تُغضبُه غضباً شديداً، وكان إخْلالٌ تافِهٌ يُزعْزِعُه. كان رجلاً هشّاً يتوارى خلف هيْبة قاسية وعنيفة. كان بإمكانه أن يقول عن نفسه إنّه ضعيفٌ وواهِنٌ لو أنّه أدرك نفسَه ووعاها بالطّريقة التي كان ينظُر بها إلى الآخرين. لقد عثر فولفغانغ ج. في مجتمع

(1) ـ «زيغ هايل»: تحية هتلر، أو التحية النّازية.

مُحْكَم التّنظيم على ما يُهدّئ قلقَه، وخوفَه من المستقبل، وأوْجال طُفولته، وما يكْبت رغباته المُخزية مثل المَيْل الطّائش لصغار الأطفال، لاسيّما لابن أُخته. وثمّة سؤال ما يزال قائماً: أكانت هذه العبارة «Sieg Heil» التي كان يجأر بها بشدّة في وجه العالَم بوصفها تأكيداً لدليلٍ على سلطة حاسمة، أم أنّها وسيلة لإخضاع الوحْش الذي يثْوي في داخله؟ لم يكن فولفغانغ ج. رجلاً يرْتابُ في أمْر نفسه. لقد كان شخصاً نحيفاً للغاية، ولم يكن أبداً يُصيبُ من الطّعام قَدْرَ ما يُشبِعُه، وكان مقتنعاً بأنه مهما كانت طبيعة رغبته؛ فلا ينبغي له أبداً أن يُذْعِن لها. وكانت قامتُه الفارعِةُ التي تُناهز مِتراً وأربعة وتسعين سنتيمتراً؛ تُعزِّز شخصيتَه المُهيمنة، حيث كان يحسب أنّه يُشارِفُ الأعالي. كان فخوراً جدّاً بيديْه، لكنّه كان فخوراً جدّاً بكلّ ما يمُتّ بصلة إلى شخصه على نحو مباشر أو غير مباشر. كانت يداه بأصابعهما الطويلة والدّقيقة جدّاً تُشبهان حقّاً يَدَيْ جرّاحٍ. أمّا عندما تستبدّ به سوْرةُ الغضبِ فإنّهما تبعثان على الخوف مثل يَدَيْ خنّاقٍ. كان وجهه مُتجعّداً، ولونُ عينيْه الأزرق باهِتاً. وعندما كان يُجري العمليات الجراحية، يضَع نظّارةً كبيرة سميكة الزّجاج، يحملُه تأنُّقُه على خَلْعِها في كلّ المناسبات الأخرى. كان دائماً يربط بعناية تحت ياقة قميصه الأبيض ربطةَ عُنُق مُنقَّطَة زرقاء داكنة، يعتقد أنّها أكثر الرّبطات أناقةً. لم يكن يُحدّق أبداً في عيْنَيْ مُحاوِرِه، ودائماً ما كان ينظر إلى جهة أخرى كما لو كنتَ تُضايقُه بحديثك معه، وأنّك تُهْدِرُ وقتَه، ورأيك لم يكن جديراً بالِاهتمام عنده. كان يقول لك ما كان ينبغي قولُه لك. ويُفْضي لك بكلّ مكنونات قلبه، ويروي لك أشْنَعَ الحماقات التي يمكن أن تخطر في باله. كان يتوجّب على الموظّفين في قسمه ـ أطبّاء ومُمرّضات على حدّ سواء ـ أن يكونوا طَيِّعين مُنْقادين وَفْق مشيئته،

ومدينين له إلى الأبد. فَفيمَ وُجودُهم من دونه؟ وكان يُؤَلِّبُ بينهم فيُحَرِّضُ بعضَهم على بعض. ويعُدّ أدنى مُحادثة مُؤامرةً تُحاكُ ضدّه. كان النّاس بيادِقَ، وكانت الحياةُ لُعبةَ شطرنج كبيرة، كان هو بطلَها وملكَها. لكنّه كان يعُدُّ نفسَه أيضاً بمثابة فاغنر في جراحة الصّدْر ـ فقد كان هذا الموسيقيّ مُعلِّمَه بقدْر ما كان مُلحِّنَه الأثيرَ. ولم يكن يُجري أيَّ عملية جراحية من دون أن تُردّد آلةُ الغرامفون الخاصّة به في غرفة العمليات أوبرا الفالكيري بقيادة فورتوانجلز، الذي كان يذهب للاِستماع إليه كلّ عام في سالتسبورغ.

كان روبير قد استقبل تعيينَ هتلر في منصب المستشارية على أنّه أمرٌ حَتميٌّ. لقد تجنّب من قبل نظامَ هورثي الاِستبدادي، وسياستَه المُعادية لليهود في بودابست. ولم يكن ينْوي التّخلّي عن كلّ شيء مرّة أخرى. لم يكن يضطرب أبداً عندما كان يُصادف مُظاهرات الكَراهية التي يقوم بها الجناح شبه العسكري للحزب النّازي، أو يقرأ أسفلَ مُلْصَقٍ يدعو إلى اجتماع عامّ لأحد قادة الحزب النّازي الإشارةَ التاليةَ: «يُمنَعُ على اليهود والكِلاب». كان يعتقد أنّ العَجَلَة تدور دائماً في الاتّجاه نفسه. أَلَمْ يُحدّثْه مُرشِدُه بقصّة الشّغَب الذي كان يُثير الفِتَنَ في براغ عام 1920؟ كان فرانتس يُوضّح له:

«أمشي في الشوارع بعد ظُهر كلّ يومٍ، والنّاسُ مُنْغَمِرون في الكراهيّة المُعادية للسّامية، وكنتُ أسمعُهم ينعتون اليهودَ بالصّراصير. أَليس من الطّبيعي أن يرحلَ المرءُ عن مكان يكرهُه فيه النّاسُ كُرهاً شديداً؟ كنتُ أُبصر من النّافذة فأرى شُرطةَ الخيّالة، ورجالَ الدّرك، والحرابَ المَركّبَة، وحَشْداً من النّاس يتفرّقون وهم يصرخون، هُنا عند نافذتي، ثمّة عارٌ فظيعٌ لأنّني ما أزال أعيشُ تحت الحماية».

لكنّ الأمر اقتضى أكثرَ من مُجرّد خُطَبٍ، وبعض الكتابات على حائط، وتهشيم نوافذ لصَرْفِ روبير عن طُموحه المزدوَج، وكان يتظاهر بتجاهُل أنّ ثورانَ التّاريخ يُمكن، مثل الأمراض التي تُصيبُنا، أن يُغيِّر مسيرَ حياتِنا فجأة. لم يكن هناك شيءٌ يُقَوِّضُ ثِقتَه التي لا تتزعزع في البَلَد الذي رحَّب به، والذي صنع منه الرّجلَ الذي كان عليه، رجلاً متزوّجاً، وجرّاحاً مرصوداً لمُستقبل باهِرٍ، ومترجماً ماهِراً في المستقبل.

حدث ذلك في منتصف ظهيرة مشمسة، كان روبير خارجاً من عملية جراحية لِوَرَمٍ في الشُّعَب الهوائية استغرقت منه خمْسَ ساعاتٍ، وفي يده مِبْضَعٌ، عندما استدعاه البروفسور فولفغانغ ج. للاِلتحاق به في مكتبه.

ـ أليس بالإمكان الاِنتظارُ يا بروفسور؟

سأل روبير وقد انتابه الحَرَجُ من المُثول أمام رئيس قسمِه وهو يرتدي وِزرةً مُلطّخة بالدّماء، وتفاجأ أيضاً أنّ رئيسَه الإداريَّ لم يُنادِه باسمه الشّخصي كما يفعل عادة. ـ لا، يا كلوبتسوك، هذا الأمر لا يقتضي الاِنتظار.

ـ حالة مستعجلَة؟

سأل روبير وهو يُحسّ بنوع من القلق يتصاعد في دخيلة نفسه.

ـ الأمر كذلك، يا كلوبتسوك.

أردف البروفسور وهو يُحدّق إليه بنظرة ينعدم فيها أدنى بصيصٍ من الرِّفْق الأبَويّ.

ـ أَلْحَقُ بك.. تمتم روبير قلِقاً، وكان أوّل ما تبادر إلى ذهنه أنّه ارتكب خطأً جراحياً.

عندما دلَف إلى المكتب كان البروفسور قد جلس من قبل على كرسيه الجِلدي الأسود المَهيب.

جلس روبير قبالته، من دون أن ينتظر إذنَه، مثلما كانت علاقتُهما تسمح له بذلك منذ أشهر عديدة. ـ أُفضّل أن تمكث واقفاً. قال البروفسور وهو ينقر بأصابعه على المكتب الذي من خشب الكاجو، حيث كان يتناول ملفّاً موضوعاً بجانب صورةٍ في إطارٍ لكلب اللّابرادور.

قام روبير على الفور، خَجِلاً من قلّة أدبه، وقال بصوت متلعثمٍ:

ـ أرجو منكم المعذرة، يا بروفسور. كان الرجل يتصفّح المِلفّ أمامه وقد ضبط نظّارتيه على الأنف، ويتوقّف عند مقاطع معيّنة، ويمُرّ على أخرى بسرعة أكبر. وعندما أغلقه استطاع روبير أن يرى اسمَه مكتوباً بأحرف بارزة بالحِبْر الأحمر.

قال البروفسور بعد صمت طويل من التفكير: ـ كلوبتسوك، لماذا لم تُخبرني أنّك يهودي؟ تلعثم روبير متفاجئاً: ـ لم تسألْني قَطّ عن ذلك. ولم أكن أدْري في الحقيقة أنّ هذا الأمر كان مُهمّاً.

ـ أيجب في نظرك أن نسأل كلَّ شخصٍ إن كان يهودياً أمْ لا؟ وحدهم قادة الشّرطة العسكرية في الحزب النّازي هم الذين يأمرون اليوم بهذه الطّريقة.

ـ ليس هذا ما قصدتُه.

ـ إذن، في نظرك أيضاً، أن يكون المرءُ يهودياً، أليس هذا أمراً في غاية الأهمّية؟

ـ لنفترض أنّ هذا يتعلّق بحياتي الشخصية، وبعلاقتي باعتقادي الخاصّ، لكنّه أمرٌ لا علاقة له بمجال مِهنتي.

ـ من خلال حديثك بهذه الطّريقة، يا كلوبتسوك، فأنت تُهين قائدَنا، والأمّةَ الألمانيةَ قاطبة. أتظنُّ أنّ المرءَ إذا كان يهودياً هو شأنٌ غيرُ مهمّ إلى هذا الحدّ؟ إنّ قائدنا وحزبَه وحكومتَه كافّة يُكرِّسون وقتاً وطاقةً كبيرَيْن لحلّ المسألة اليهودية.

ـ لا توجد عندي مسألةٌ يهودية يا بروفسور.

ـ ماذا تقصد بذلك؟ ردّ البروفسور، وقد كان يبدو مذهولا حقّاً: ـ حسناً لا أرى كيف أنّ صفتي اليهوديةَ تطرح مشكلةً معيّنة جديرةً بأنْ نُسْهِم في إيجاد حَلٍّ ما لها.

ـ لا بُدّ أنّك تمزح! إذا لم يكُن اليهود مشكلةً، فما المشكلة إذاً؟

ـ الأزمة الاقتصادية، الحُروب...

ـ الأزمة الاقتصادية بسبب الانتهازيين اليهود، الحرب بسبب دُعاة الحرب اليهود المُحبّين لها.

ـ وما ذنْبي أنا إذن؟

ـ وحدهم عُمَلاء الغستابو يستطيعون الإجابة عن ذلك. اذهبْ واطرحْ عليهم السّؤال... أمّا أنا فأودّ أن أقول لك إنّني لا أحفظ لك ضغينةً لأنّك لم تُنْبِئْني أنّك يهوديٌّ...

توقّفَ وكأنّه يُقدِّر حَجْمَ تأثيرِه، ثمّ تابع: ـ لأنّني لا ألوم إلّا نفسي!

ـ تلوم نفسك؟!

ـ نعم، ألوم نفسي! أعرف في العادة كيف أتعرّف اليهودَ. أمّا الآن، فلم يُداخلْني الشَّكُّ.

ـ بِمَ تتعرّف إلينا إذن؟

ـ أوه، لا تَتَبالَهْ، يا كلوبتسوك!

ـ بَيْد أنّك نُقِرُّ بذلك بنفسك، ولم تعتقد أبداً حتى ذلك الحين أنّني ارتكبتُ أيَّ ذنْبٍ.

ـ هذا لأنّ هيئتَك تَشي بالخِداع، هذا كلّ ما في الأمر! أنت لا تبدو يهودياً، بشُقْرتِك، وبأنفك الخانِس، ورزانتك! أنت تخدع العدوَّ يا كلوبتسوك. أُذكِّرُك بأنّ لقبَك هو لَقَبُ شاعر ألمانيّ عظيم، فريدريش غوتليب كلوبتسوك، مُبتدِع شعْر التجربة المعيشة، ومؤلِّف كتاب *(المسيح)* الذي لا يُنسى! يبدو الأمر كما لو كنتَ قد وضعتَ أنفاً مُزيّفاً. ولكنّي لا ألوم إلّا نفسي كما قلتُ لك. كيف سمحتُ لنفسي بأن تنخدع؟ وكيف أمكنني أن أمنحَك هذه المكانةَ في قسْمي، وأدعوك بروبير، وأُعاملك مُعاملة ابْنٍ! آه، اليهود دجّالون كِبارٌ! ومن حُسن الحظّ أنّ إدارتَنا مُتيقّظة وحذِرَةٌ. لقد نِلْتَ ـ وأنا أستعمل هذه الكلمةَ عَمْداً ـ منصبَ المُساعِد هذا في زمن فايمار الملعون، ولكنّ ذلك العَهْدَ وَلّى اليوم... تركَ صمْتاً يسود ثمّ أردف:

ـ كلوبتسوك، هل قرأتَ المراسيمَ الأخيرةَ؟ أوْمَأ روبير برأسه أنْ لا، كان قد توقّف عن متابعة تعاقُب المراسيم، لأنّ سلسلة الإجراءات المُعادية لليهود أدّتْ في النّهاية إلى تقويض معنوياته.

ـ كان يجدُرُ بي؟

ـ لا مِراءَ أنّه كان في وُسعك. أنا لستُ هنا لأُقدّم لك النّصيحةَ، بل لِأُبلغك الأمرَ فحسب.

ـ «أيُّ أمْرٍ»، قال روبير.

ـ حسناً، أُبلغك بطبيعة القرار الأخير الذي يَعْنيك.

ـ مرسومٌ يعْنيني؟

ـ وإلّا لماذا ستكون في مكتبي؟ أتحسبُ أنْ ليس لي سوى هذا أقومُ به؟

ـ لقد تحدّثْتَ معي في الماضي عن قضايا مختلفة في هذا المكتب بالذّات، يا بروفسور.

ـ لا تَسْتَدْعِ الماضي، فهو كالمظاهر الخادعة. وكُفَّ عن أنْ تَعْزُوَ كُلَّ شيءٍ إليَّ، فما أنا إلّا رسولٌ مُبَلِّغٌ. ومهاجمة الرّسولِ وسيلةٌ لإنْكار الواقع. أُفضّل أن نعود إلى صُلْب الموضوع إذا كنت لا تُمانع. أخذ ورقةً من الملفّ، وقرأ بإيجاز ثمّ واصل: ـ بعثتْ لي إدارةُ المشْفى هذا الصّباح بمرسوم القانون الصّادر بتاريخ 7 ـ أبريل 1933، والمتعلّق بـ«إعادة تأهيل الوظيفة العُمومية». ينصّ المرسومُ باختصار على فصْل الموظّفين اليهود والشَّطْبِ على الأطبّاء اليهود المُعتمَدين لدى التّأمين الصّحّي.

ـ ولكن لماذا شطْبُ الأطّباء اليهود؟

ـ الوقائعُ المُجَرَّمَةُ لا تحتاج إلى التّعليق عليها أو تبريرها.

ـ لكنّ هذا الشَّطْبَ، في نهاية الأمر، مُخالفٌ تماماً للقانون!

ـ لقد قلتُ لك بأنّك لم تَتَتَبَّعْ المراسيم، كنتَ ستعلمُ أنّ القانون الألماني تغيَّر. لقد بُسِّطَ.

ـ وما هذا القانون الآن؟

ـ الزّعيم هو لذي يضع القانون منذ الآن فصاعداً.

ـ ولكن هذا مخالف للقانون تماماً!

ـ يبدو لي أنّك لم تُتابع حديثي بشكل جيّد.

ـ اشرحْ لي إذاً. أخبرنْي على سبيل المثال لماذا سأُمْنَعُ من إجْراء الجراحة، ألأنّني يهوديٌّ؟

ـ ليس لديّ ما أشرحه لك! وليس من شأني تفسيرُ القوانين. وعلاوة على ذلك، هل ينبغي للقانون أن يُشْغَلَ بالأسباب؟ والحال أنّنا، لا أنتَ ولا أنا، من أهل القانون. نحن متخصّصان في الجراحة الصّدرية. وينبغي أن أقول مرّة أخرى، حتى أكون أكثر امتثالاً للقانون: *أنا* متخصّص في جراحة الصّدر، وأنت كنتَ متخصّصاً في جراحة الصّدر. أتُوافقك هذه الصّياغة؟

ـ لستُ متيقّناً من أنّه ما يزال عندي ما أقوله.

ـ حسناً، لقد بدأتَ تُدرِك...

ـ ولكن، إذا جاز لي القول، ما زلتُ لا أُدرك العلاقة بين انتمائي اليهوديِّ وعدم القدرة على مزاولة مهنتي. ليس لأُصولي أبداً أيُّ تأثير على أُسلوبي في الجراحة. أتظنّ أنك تُجري الجراحةَ على نحو يختلف عنّي، أنا اليهودي؟ وبعبارة أخرى، أتحسبُ أن هناك أسلوباً يهودياً في الجراحة؟

ـ ثمّة بالفعل أسلوب يهوديٌّ في الكتابة، ولهذا السبب هناك حديثٌ عن حَظْر كُتُبِك. حتّى إنّ البعض يتحدّث عن حرْقها. على الأقلّ هذا ما يعتقده غوبلز.

ـ أهذا ما تعتقده أيضاً؟

ـ أغلبية الألمان يُشاطرون غوبلز رأيَه، وما أنا إلّا من أغلبية الألمان، حتى إشعار آخر.

ـ ولكن، كيف ستتصرّف معنا في آخر المطاف؟ ثمّة عددٌ كبيرٌ من الأطبّاء اليهود في مشفاك!

ـ أعلمُ جيّداً، لديْنا القائمة.

ـ هل تنْوي طردَهم كافّة؟

ـ كافّة! لأنّ القانون يقتضي ذلك، ومن واجبنا أن نطبّق القانون! فهو الشّرطُ الأوّل للنّظام القائم.

ـ ولكن كيف ستعملون على إدارة أقسام المشفى؟

ـ سنتدبّر أمْرنا من دونكم.

ـ من دون أيّ طبيب يهوديّ؟

ـ من دون أيِّ أحدٍ منكم! وينصّ القانون على ذلك تماماً. لن يكون هناك خرْقٌ. وفضلاً عن ذلك، لماذا سيكون هناك خرْقٌ؟ لماذا نُظهِر الظُّلمَ في ما يُرادُ به أن يكون مقياساً للسّلاسة العامّة؟

ـ لأنّ العدالة هي طَرْدُ اليهود؟

ـ لطردهم على نحو عادلٍ... فالعدالة ينبغي أن تُظْهِر الإنصافَ، وإلّا فإنّها ليست عدالة. لكنّي لستُ رجلَ قانون، كما قلتُ لك، أنا بروفسور في الجراحة، فلا تَقُدْني إلى تعرُّجات تطبيق القانون.

ـ لكنّك، أنتَ الذي تقودُني إلى هذا! لقد شطَّبْتَ عليّ بسبب أُصولي. لذا أطرح عليك السؤال مرّة أخرى: أتظنُّ حقّاً أنّ عالَماً مِضْيافاً من دون اليهود أمرٌ مُمكنٌ، أو حتى مرغوبٌ فيه فقط؟

ـ إنّ مسألة ما إذا كان العالَم بلا يهودٍ أمراً مرغوباً فيه هي قضية من اختصاص قائدنا فحسب، وأحْسُبُ أنّه بَتَّ فيها عندما ألّف كتابَه (*كفاحي*).

ـ كنتَ تقصد «عالم مضياف بلا يهود»...

ـ ليس هذا ما قلتُه؟

ـ لقد قلتم: «عالَم بلا يهود».

ـ أوه! يا كلوبتسوك، أنت شخص لبيبٌ، واللّبيبُ من الإشارة يفهم!

ـ وهذا ما يُرْعِبُني، يا بروفسور.

ـ ويبْدو لي أنّ هذا هو قصْد المُشرِّع، يا كلوبتسوك. حسناً، بما أنّ كلّ شيء يبدو لي واضحاً، في وسعكم الِانصراف نهائياً. وداعاً يا كلوبتسوك!

ـ وداعاً يا بروفسور.

كان روبير قد حمَل أغراضَه وغادر المشفى نهائياً. كان يمشي في شوارع برلين. ظلّ التَّجوالُ منذ الآن نشاطَه الأساسَ. وكانت المدينة جسَداً عَليلاً يجْتازُه من جانب إلى آخر. كان يستقلّ أوّلَ ترام، وكانت المدينة تتوالى أمامَه. كان النّاس في ساعات الذّروة محشورين في المقصورات. أمّا عندما تنتصف الظّهيرةُ فكان في وُسعه أنْ يمكث ورأسُه عند النّافذة. كانت الرّيحُ تَلْفَحُ وجهَه. وكانت برلين مُلْكاً له. شارع الحزام، هيرمان بلاتس، بالتن بلاتس، كنيبروديستراس، شونهاوسر آلي، هاليشس تور. كان يُؤثر

الخطّ 68، فيتناو، فيدينغ بلاتس، روزنتهالر بلاتس، ليشتنبيرغ. كان يُلاحظ الحشود على الأرصفة، ويتأمّل واجهات المباني وعيناه تُحدّقان في لافتات المَحالّ ودور السّينما، والنّوافذ المُوَشّاة بأعْلام المدينة الجديدة. وكانت الصُّلْبانُ المعقوفةُ تطْفو على الشُّرُفات. يحسب المرءُ، ورأسه عند النّافذة، أنّه على متْن سفينة تنحو نحو حملة صليبية عظيمة. قُمصانُ الشُّرطةِ النّازيةِ السّوداءُ، وصُلبان معقوفةٌ على الصُّدْرِيات. الحَشْدُ يسير مُعتدلاً ومُنَظَّماً، والرّجال يرتدون بدلاتٍ أنيقةً، والنّساء يتجمَّلْن وكأنّهنّ ذاهبات إلى حفلة راقصةٍ. كان رمادُ الكُتُب في شهْر ماي يُسَخِّمُ الفضاءَ. أمّا اليوم فالسّماء كانت زرقاءَ صافيةً، والعلَم النّازيُّ يخْفِق فوق المدينة. كان روبير يمشي وقلبُه مُنكَّساً.

بلغَتْه رسالةٌ من دورا التي لم يَرَها منذ أَمَد بعيد. أنبأتْه باعتقال زوجها، وكانت تجهل مكان اعتقاله. كان العديد من أعضاء الحزب ومن رفاقها ومعظم قادة الحزب؛ في عداد المفقودين. لكنّها كتبت إليه لتُخبره بالسّعادة الغامرة التي جَدَّتْ، لقد أنجبت طفلة صغيرة سمَّتْها ماريان. كانت الحياة في آخر الأمر تنتصر دائماً. وكان فرانتس يَكْلَأُ كلَّ واحدٍ منهما في السّماء. «ذات يوم، سنُدرك السّعادةَ مرّة أخرى في حياتنا، تعهَّدْ نفسَك بالرِّعاية اللّازمة، يا روبير، يا عزيزي، ويا صديقي الحنون».

في نهاية ظهيرة ذلك اليوم من ربيع 1939، كان يعبُر برلين، وكان يعْروه إحساسٌ بأنّها كانت إحدى المرّات الأخيرة. اِنتهى به الأمر، لِقاءَ مصاعبَ جمّة، إلى العثور على منصب جرّاح في بودابست، في مشفى سانت ـ روش، في قسم البروفسور أرنولد وينترنيتز. لقد عاد إلى النّبع الأوّل، واستمرّ ينتقل بين العاصمتيْن غُدُوّاً ورَواحاً طالَما سُمِح له بذلك. كان

قد اختلف إلى منزل روبر ويلتش مُدير *Judische Rundschau*[1]، مدير إحدى المجلّات اليهودية النّادرة التي ما يزال يُسمَح لها بالظُّهور، على الرّغم من الشّروط القاسية. ولم تستطع الصحيفة أن تعتمد على مشاركة المؤلِّفين المُدرَجين في قائمة النّظام السّوداء، ومعظمهم في الواقع من الكُتّاب اليهود. وكان على المجلّة أن تتناول الأدب اليهودي فحسب. وعدَّتْها السُّلُطاتُ، باعتبارها مجلّةً يهوديةً، غيرَ جديرةٍ بإبْداء رأيها في الأدب الآرِيِّ، الذي كان من المفروض أنْ تُدَنِّسَه بنَقْدٍ أو بكلمةٍ.

وفي عددها الصّادر في يونيو 1934، اختارت *Judische Rundschau* أن تشيد بذكرى كافكا بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاته. كان روبير ويلتش، المولود في براغ، قد عاشر بْرود وعَرَف كافكا. وكان يبحث عن مشاركين في العدد المُخصّص لذكرى كافكا. وأوصاه بْرود ـ حيث كان لا يزال يعيش في براغ ـ بكلوبتسوك.

كان اجتماع هذا المساء قد عُقِد في منزله بشكل شبه سرّيّ، حيث سيتعلّق الأمر بمسألة مشاركة كُتّاب على القائمة السّوداء، وفي طليعتهم الفيلسوف والتر بنيامين. كان حضورُ روبير، وهو آخر شخصٍ رأى كافكا على قيْد الحياة، أمْراً ذا قيمة كبيرة.

كان قد قاوم ويلتش عبر الهاتف قائلاً له:

ـ لا أريد أن أكون مَحَطَّ الأنظار في المساء.أجاب الصّحافي:

ـ هذا الِاجتماع ليس سيرْكاً. إنّ ما يعنينا، في المقام الأوّل، هو الأسابيع

(1) ـ *المجلّة اليهودية*: هي أكبر أسبوعية يهودية في ألمانيا من 1902 ـ 1938، كانت وراء نشوء الفيدرالية الصهيونية في ألمانيا.

التي أنفقها في كيرلينغ، والطّريقة التي جابَه بها كافكا الموتَ، وهو الذي تُنَظِّرُ رواياتُه الحياةَ ونهايتَها.

ـ ستُصابُ بخيبة أمَلٍ. لم أعرف قطُّ أنّ كافكا كان مُنَظِّراً لأَيِّ شيءٍ.

ـ سنكون هناك لمُطارحة هذا الموضوع. طُموحُنا هو إعطاء كافكا المنزلةَ الرّفيعةَ التي يستحقّها في الأدب الألمانيّ. إنّه لا يزال مُؤلِّفاً خُصوصياً. ينبغي للجمهور أن يُثَمِّن أهميّةَ عملِه الأدبيّ. وسنُساهم في هذه المُهمّة.

ـ لم يعُد للجُمهور الألمانيّ الحقُّ في قراءة المؤلّفين اليهود. ولا يمكنك أن تعثُر في أيّ مكان على كُتُب كافكا.

ـ إنّنا نعمل من أجل المستقبل.

ـ مستقبل اليهود في ألمانيا؟

ـ نعتقد أنّ مستقبل اليهود يوجد في فلسطين. تعْلَمُ جيّداً أنّ صحيفتَنا صُهيونيةٌ.

ـ وهذا أحدُ أسباب إحْجامي.

ـ نعم، لقد أعْلَمَني ماكس، ولكن بصراحة، أتعتقد أنّ الوقت مناسبٌ لمثل هذه الاِعتبارات؟ أخبرَني ماكس أنّ كافكا كان صديقَك. وأنت ستمتنع عن المشاركة في أوّل تكريم كبير حقيقيّ له في صحيفة لمجرّد أنّ المسؤولين عن هذه الصحيفة يعتقدون أنّ مكان اليهود سيكون أفضلَ في فلسطين منه في الرّايخ الألمانيّ؟ ثمّ إنّ كافكا كان أيضاً صُهيونياً في أُخريات حياته على كلّ حال.

ـ هذا موضوعُ خِلافٍ بيننا.

ـ حسناً، تعالَ وحدِّثْنا عن خلافكما، وعن اهتمام كافكا بالصّهيونية، وعن نيّته الذّهاب إلى تل أبيب وفتْح مطعمٍ هنك مع شريكته، لأنه كان يُفكّر في ذلك. أليس كذلك؟

ـ كان يتحدّث عن هذا، مثلما يتحدّث المرءُ عن حُلْم، وعن هَدَفٍ. كان يعلم جيّداً أنّ الرّحلة مستحيلة نظراً لحالته الصّحّية. وحتّى لو كانت الرّحلة ممكنةً، فأنا متيقّنٌ من أنّه كان سيصرف النّظرَ عنها.

ـ هذا تأويلُك. تعالَ واعْرِضْ حُججَك علينا، تعالَ لِتُحدّثْنا عن كافكا، شهادتُك فريدةٌ من نوعها. ثمّ ما الذي تخشاه، إلّا إذا باغتنا الغستابو فتجد نفسَك عندئذ في السّجن؟ هذه الملاحظة الأخيرة التي قالها بنبْرة مازحة، أقنعتْ روبير. لم يكن يُريد أن يعُدُّوه جَباناً.

نزل في أورينينبورجر شتراس، ومشى نحو منزل روبير ويلتش. بعد حين سيَجِنُّ اللّيلُ. كانت قناديل الغاز موقَدَةً والشارعُ شبه خالٍ. أما زال يحقّ لليهوديّ أن يمشيَ في الشّارع في تلك السّاعة؟ كان يُحبُّ دائماً عُبورَ المدينة عند الشّفق، وكان يُحِبّ كآبَةَ المدينة وكآبَةَ النّاس. لقد تخلّى عن الجلوس في البارات حيث كان من عادته أن يُحبّ التَّريُّثَ فيها.

بلغ أمام إقامة ويلتش، وهي بناية تتكوّن من أربعة أو خمسة طوابق ذات واجهة مُتداعية ونوافذ ضيّقة. دفع بابَ العربات واجتاز البهو. على اليسار، خلف البابِ النافذةِ سُحِب سِتارٌ فظهرت الحارسةُ، ونظرت إليه بريبة. انفتح البابُ قليلاً فبدَت في العتمة سيّدةٌ صغيرة وقويّة، ذات ذراعيْن ضخمتيْن، ويديْن ثخينتيْن، وعُنُق غليظة.

قالت وهي مُحتارة: ـ إلى أين أنت ذاهبٌ هكذا؟

ـ «إلى منزل السيّد ويلتش، روبير ويلتش». لكنّه أضاف: «إنّني لا أعرف الطّابقَ».

ـ كيف يمكن للمرء أن يذهب إلى منزل شخص وهو لا يعرف الطّابق؟

ـ لا أعرف.

ـ أنت لا تعرف كيف، ولا تعرف الطّابقَ، فماذا تعرف إذاً؟

ـ كنتُ آمُلُ أن يُساعدني أحدٌ.

ـ كنتَ تأمل؟ في هذه المرحلة؟

ـ كنتُ أنْوي أن أطلب...

ـ من الحارسة، على سبيل المثال!

ـ نعم، من الحارسة...

ـ الحارسة، بالطّبع! تراجعت خطوة إلى الوراء وأومأت بإصبعها السّبّابة إلى مدخل مقصورتها: ـ ادْنُ! ماذا ترى مكتوباً هنا؟ جيش الخلاص؟ أشار برأسه أنْ لا.

ـ ماذا تقرأ هنا؟

ـ السيّدة هيرشن.

ـ وفي الأسفل؟

ـ *«يُمنَعُ على الباعة المتجوّلين»*... لستُ بائعاً متجوّلاً.

ـ أأنت متأكّد جدّاً؟

ـ أرجوك، صدّقيني.

ـ وأخيراً كلمة طيّبة...في تلك اللّحظة استلْفَتَ البابُ النّافذةُ نظرَه، حيث ظهر خلف ستارته طيْفا طفليْن كخيالَيْ ظلٍّ، كانا يُقهقهان، يضحكان ضَحِكَ الأطفال الصَّخّاب.

ولكن، قالت الحارسة، وهي تبدو أكثر لُطْفاً، ولكن إذا ـ وأعني جيّداً إذا ـ كانت الحارسة غائبةً، أو إذا كانت قد سئِمَت الجهْلَ العامَّ، أو إذا اعتبرت أنّ عدداً كبيرا جدّاً من الأشخاص قد ارتقوا الدّرجَ من قبْل للذّهاب إلى منزل هذا الويلتش ـ الطّابق الثالث، الباب الأوّل على اليمين، جَرَسُ الباب لا يعمل دائماً...

ـ في هذه الحالة بعيدة الِاحتمال، سأتدبّر أمْري بشكل مختلف.

ـ تقصد أنّ الحارسة لا يُرجى منها نفعٌ، أهذا ما تقصده؟

ـ لا، ليس هذا ما أقصده.

ـ حسناً، استعلِمْ! لا أستطيع الإجابةَ عن كلّ الأسئلة، حتى أكثرها مشروعيةً. اختتمتْ كلامَها قبل أن توصِد بابَها.

اجتاز البهوَ وارتقى الدّرجَ اللّولبي، وعند صحْن الطّابق الثالث أصاخ السّمْعَ، فسمِع جَلَبَةً خلف الباب الأوّل، فدَنا وطرَق بضعَ طرقات. فصاح صوتٌ: «إنّ البابَ مفتوح، وما عليك إلّا أن تدفعَه لكي تدخل»، فدخل.

كان البرد فيها أشدّ قَرْساً من برْد الشّارع، وكانت رائحة السيجار الرّديء تنبعث منها. ثمّة ممَرٌّ طويلٌ بجدران تكسوها المُلصقاتُ والصّفحاتُ

الأولى من الجرائد مُثْبَتَةً على ورق مرسوم لتغطية الجُدران أصفر باهتٍ يقود إلى مدخل صالون يعبق بالدّخان، يُنيرُه مصباحٌ كبير مكشوفٌ، تُزيّنُه كُتُبٌ مصفوفةٌ في خزانات. في وسط الغرفة، كانت الكراسي والأرائك غيرُ المتشاكلة يشغلُها حُضورٌ صغير يختلط فيه الرّجالُ مع النّساء، ثمّة رجلٌ رُدنُ قميصِه مُشَمَّرٌ، واقفٌ وباسِمٌ، وسيجارة في فمه، ونظّارة أُحاديةٌ في عينه اليُمنى، يحمل مذكّرة صغيرة في إحدى يديْه، وقلمَ رصاصٍ في اليد الأخرى، ظنّ روبير أنّه قد يكون ويلتش. دعاه الرّجلُ بنبرة لطيفة أن يتقدّم: «لا تنزعجْ، لقد بدأْنا للتّوّ، تفضّلْ بالجلوس»، وأشار بسبّابته إلى آخر كُرسي شاغر: «تناولْ فنجانَ قهوة، هذا إذا جاز لنا أن نسمّيها قهوةً».

ـ من فضلك، أيُمكنني أن أستأنف كلامي!

تذَمّرَ رجلٌ يرتدي بدلة زرقاء داكنة، وجهه بارزُ التّقاطيع، وتعبيرٌ ينمّ على عجرفة يرتسمُ على قسمات وجهه اللّطيفة مع ذلك، كان يُمسك في طرف إصبعيْه عَقِبَ سيجارةٍ.

ـ أودُّ أوّلاً معرفةَ هُوية الوافد الجديد..

تدخّلَ رجلٌ أسمرُ ذو وجهٍ مستدير فيه أَثَرٌ من لحيةٍ، يرتدي رُدنغوت.

ـ لقد ولّى ذاك العهْدُ الذي كان المرءُ يستطيع أن يتحدّث فيه أمام الغُرباء.

قال ويلتش:

ـ أنت على صواب يا هوغو. لقد أخْلَلْتُ بواجبي: صديقُنا هذا هو الدكتور كلوبتسوك. لم يتفاجَأْ أغلبُ الحاضرين أو تُثَرْ دهشتُهم. أمّا الرجلُ

الأصلعُ ذو البدلة الدّاكنة فقد أبدى تعبيراً عن المفاجأة، كما لو أنّ الاسم كان يعني عنده شيئاً.

استأنف ويلتش:

ـ دكتور كلوبتسوك، أُقدّم إليك الدكتورة إيدا مونك، مارتان بلومفيلد، هوغو سبرينجر، الدكتور ماكس كراسكي، إيما وألفرد غروسمان، الأستاذ سالومون ميندلشون، أرتور وإيلسا ويسينبيرغ، والبروفسور إرنست واسيرمان.

ـ بما أنّ كلمات التعريف قد تمّتْ، هل يُمكنني أن أستأنف؟

أَلَحّ المتدخّلُ الأوّلُ.

قال ويلتش بحركة تشي بالإنزعاج:

ـ تفضّلْ يا مارتن.

ـ أودّ إذاً أن أعرف ما الفائدة التي ستجنيها مجلّتُنا وهي تحتفي بالذّكرى العاشرة لرحيل مؤلِّف غيرِ معروفٍ عند الجمهور العريض، مُؤلِّفٍ ظهرت كتبُه قبل سنوات قليلة من دون أن تُثير أدْنى حماسةٍ، إلّا عند حفْنة من النّقّاد. نكُرِّمُه في فترة يُحْظَرُ فيها نشْرُ؛ أو حتّى تحصيلُ كتابٍ لمؤَلِّفٍ يهوديٍّ...

في هذا الموضوع تدخّلَ رجلٌ قويٌّ إلى حدّ ما، كان بطنُه يُقبِّبُ قميصَه، وكانت حِمالَتاه تنفرجان:

ـ هل تعلمون آخرَ إجراءٍ قام به غورينغ[1]؟

---

(1) ـ هرمان غورينغ: قائد بارز في الحزب النازي وفي حكومة الرايخ الثالث.

قال ويلتش بنبرة رقيقة:

ـ ستُطلعُنا على ذلك، يا ألفريد.

ـ «حسناً»، تابعَ الآخر؛ «من الآن فصاعداً، جميعُ الكُتبِ التي كتبها مؤلِّفون يهودٌ، والتي لا يمكن العثورُ عليها من قبل إلّا في مكتبات الجامعات، ولا يُطَّلَعُ عليها سوى لِغَرض البحث؛ يجب أن تكون مَوْسومةً بالعلامة: «مُترجمة من العبرية». كان من الممكن أن يكتب فرويد وشتفايغ باللّغة العبرية في نسختهما الأصلية. هذا أمرٌ مُضحِكٌ، أليس كذلك؟

ـ «هذا أمرٌ لا يُضحِكُ إلاّ إيّاك يا ألفريد».. استشاط عليه المتدخّلُ الأوّلُ؛ «هل يمكن إذن، لأحد منكم أن يُجيب عن سؤالي؟ لماذا ينبغي لنا أن نخُصَّ مؤلِّفاً غيرَ مهمّ بالتّكريم، بحيث إنّ النّازيين أنفسهم لم يُدرِجوا أعمالَه الأدبيةَ في قائمة المؤلِّفين اليهود غير المرغوب فيهم، وفي خانة الكُتُب التي يجب حرقُها.

ـ «حسناً».. أجاب ويلتش بنبرة هادئة؛ أوّلاً، لأنّ ذائقتَنا الأدبية تختلف عن ذائقة النّازيّين، وثانياً، لأنّ هذا التكريم يهدف على وجه التّحديد إلى التعريف بهذا المؤلِّف العظيم فرانتس كافكا.

ـ لمِن نُعرّف به؟

ـ نحن لا نفكّر في أنفسنا، إنّما نفكّر في أجيالنا القادمة.

ـ آه، نعم، نسيتُ... أجيالنا القادمة...

قال الرجل الذي يُدعى ألفريد:

ـ أنت صَلِفٌ، يا مارتن.

- أُفضّل أن أكون صلِفاً حيّاً على أن أكون حالِماً ميّتاً، يا ألفريد!

- يمكنك أن تكون صلِفاً ميّتاً، يا مارتن!

تدخّل ويلتش بحزم:

- يا مارتن ويا ألفرد، أيُمكنكما أن تكُفّا لحظةً! لنعُدْ إلى كافكا، أرجوكما. بادئ ذي بدء، أودّ أن أقول لأولئك الذين لم يقرؤوه، والذين يرْتابون - مثل مارتن - في فائدة هذا التكريم؛ إنّ كافكا كاتبٌ كبير، كاتبٌ مُتَنَبّئٌ وَصَفَ في كُتبه العالَم الرّهيبَ الذي نعيش فيه اليوم، كاتبٌ قادرٌ على أن يقول على لسان إحدى بطلاته - وأقتبس من الذّاكرة -: «*فيما مضى، كُنّا نأمل أكثر مِمّا نأمل الآن، ولكن، حتّى في ذلك الوقت، لم تكن آمالُنا عريضةً. يأسُنا وحده هو الذي كان كبيراً. وظلّ كبيراً*».

- بما أنّ كافكا يصف معاناة حياتنا اليومية على نحو جيّد، فمن الخير لنا أن نقرأ الصحيفة اليومية، قال مارتن بنبرة مشمئزّة.

تابع ويلتش من دون أن ينهض:

- أودّ أن أقرأ لكم النّصّ الذي كتبتُه كمقدّمة للمقالة التي أرسلها إلينا العظيم والتر بنيامين، وألتمس منكم شيئاً من الحِلْم، لأنّ حلْقي يُعاني من نزلة برْدٍ شديدة.

- صحيحٌ أنّ المنزلَ سيتحسّنُ إذا دُفِّئَ.

- كفى يا مارتن. تفضّل يا سيّد ويلتش!

- شكراً إيدا. أخرج ويلتش من جيب بنطاله ورقةً مطوية على أربع. بسَطَها وشرع يقرأ:

«من بين جميع الكُتّاب ذوي المَحْتِدِ اليهوديّ الموجودين في عالَم الأدب الألمانيّ، تطغى شخصيةُ كافكا البارزةُ، وهي شخصية عظيمة ومُتَفَرِّدَةٌ. ثمّة جماعةٌ أدبيةٌ حقيقيةٌ تُجِلُّ عملَه الأدبيَّ. لكنّه ما يزال غيرَ معروفٍ، ولم يَنَلْ بعدُ ما يستأهلِهِ في دوائرَ أوسعَ... إنّ مسألة ما إذا كان يمكن أن يُعَدَّ فرانتس كافكا مؤلِّفاً (يهودياً) ـ وهو الذي لم يتحدّث قَطّ في أعماله الأدبية عن الأمور اليهودية ـ هي مسألة عديمة الفائدة اليوم. إنّ تطوّر الوضْع في البيئة الألمانية قد أدّى بالكاتب الذي يكتب باللّغة الألمانية لكنّه من أصْلٍ يهوديٍّ؛ أدّى إلى اعتباره اليوم يهوديّاً. إنّنا نحن اليهودَ لا يُمكننا أن نقبل بأنْ يُنسَبَ إلَيْنا أيُّ شخص هكذا من الخارج. ولكن إذا قبِلْنا أنْ يُنسَبَ كافكا إلَيْنا، فذلك لأنّه كان دائماً واحداً منّا. كان كافكا نفسُه يشعُر بأنّه يهوديٌّ. ولقد كان يتعلّم العبرية على سرير المرض، ولا ريْب أنّ صدى التّراث اليهوديّ الرّوحيّ والفكريّ واللّغويّ العريق يتردَّد في أعماله الأدبية. يجب علينا أن نجعل قُرّاء (المجلّة اليهودية) أكثر تعوُّداً على شخصية كافكا الأدبية. هذه المقالة الغزيرة التي وضعها الدكتور والتر بنيامين رهْنَ إشارتنا بناء على طلبنا؛ هي مقالةٌ طويلة، لم نستطع ـ للأسف ـ أن ننشرها كاملةً بسبب ضيق المساحة، لذا سنقدّم فقرتَيْن كبيرتَيْن منها للمُطالعة».

ـ مقدّمتُك ممتازة!

ـ شكراً مرّة أخرى، يا إيدا.

ـ سيكون لي تحفُّظٌ إذا سمحتْ إيدا به طبْعاً...

ـ تفضّل، يا مارتن...

ـ أودّ مع ذلك العودةَ إلى اختيار والتر بنيامين، ومشروعية إشادته بهذه الذّكرى في مجلّتنا. أتذكّر أنّني استمعتُ إلى إحدى مداخلاته المُذاعةُ قبل لجوئه إلى المنفى، وما استوقفني فيها واسترعى انتباهي حينها هو قوله: «إنّي أستنكف عن تأويل كافكا». أطرح عليك السؤالَ، كيف يمكن أنْ تعْهَد بتأويل أعمال كافكا إلى مؤلِّف يمتنع عن تأويل كافكا؟

ـ يُريد والتر بنيامين الاستنكافَ لأنّه أدرك أنّ أيَّ تأويل لفكرٍ في مِثْلِ هذا الغِنى، ولِعَمَل أدبي لا ينضبُ معينُه؛ يُفْضي إلى الفشل، ولكن مَعْنى أعمال كافكا بالذّات هو الخوض في هذا البحث عن الفشل.

ـ لا أُوافقُك.

ـ ستفهم عندما تقرأ نصَّ بنيامين. وهو نصٌّ من خمسين صحيفةً من التّعاليق والتّأويل الآسِر. استطاع أن يضع بين السُّطور فرضيتَه في الاِستنكاف عن التّأويل، وبهذا المعنى، يُعَدُّ بنيامين وريثَ فِكْرِ كافكا وعمله الأدبيّ، عمل أدبيّ يحيا حياتَه الشّعريةَ الخاصّةَ به، ويبدو أنّ ما مِن تأويل يُنْضِبُ معينَه. تكمن حقيقة رواية *(القلعة)* في أنّنا لا نستطيع الاِقترابَ من القلعة. إنّ كافكا لا يُمارس الميتافيزيقا أكثرَ مِمّا يُمارسُ الأدبَ. كافكا حَكَّاءٌ. إنّه يُظْهِرُ مُمَثِّلي مسرح الظّلّ هذا الذي يُشبه العالَمَ، عالَماً غاب عنه، عالَماً يُتيحُ لنا رؤيتَه من المسافة التي يبقى مُقيماً فيها. رُبّما ينبغي لكُلّ شارحٍ لأعمال كافكا أن يعُدَّ نفسَه مثل ك، بطل *(القلعة)* يَعِي حقيقةَ أنّه قد لا يُدْرِكُ غابتَه أبداً، وأنّه لن يتأكّد من صِحّة أيِّ تأويل، بَيْدَ أنّه يسْعى باستمرار، ويبحث عن دلالة العمل الأدبيّ، ولِمَ لا، الخلاص بين السّطور، بالطريقة نفسها التي يسعى بها إلى العُثور على السّبيل المُؤَدِّيَةِ إلى القلعة. من العبث أن نبحث عن معنى خَفِيٍّ في أعمال كافكا الأدبية،

فما أعمال كافكا إلّا بحْثٌ عن المعنى فحسب. ليست سوى صُعودٍ صوْب *«تلك الأعالي التي تبْدو فارِغَة»*. البحث عن المعنى هو الِاعتقاد بأنّ القلعة حقيقيةٌ، وبأن للكونت ويستويست روحاً خاصّاً به. لكن إذْ لا تُثَبّطُ هِمَّةَ كافكا من هذا المشهد العاري، وإذْ يستطيع القارئُ أن يستمرّ في البحث عن المعنى، فذلك لأنّ كافكا لم يتوقّف أبداً عن الكتابة حتّى الرّمقِ الأخير، وسيُثبتُ لنا ذلك السّيّد كلوبتسوك. لقد أوضح بأنّ الكتابَ مثل الصّلاة. إنّ إيمانَه بالكتابة هو إيمانٌ يبحث عن الخلاص والِافتداء، سَمِّهِ ما شِئْتَ يا مارتن. إنّ السبيل التي تُؤدّي إلى القلعة، وإلى المعرفة، وإلى الخلاص؛ لا توجَد في الأعالي السّماوية بعيدة المنال. إنّها سبيلٌ أرضية يائسة، وسبيل إنسانية يائسة. ليس هدف ك هو دخول القلعة، بل التّغلُّب الذي لا يَكِلُّ على العقبات التي تعترض سبيلَه. إنّ الصّورة التي وَقَرَتْ فينا عن كافكا هي أنّه هَشٌّ، سريعُ الِانكسار، يُرَوِّعُه الخوفُ، لكن لا يبْدو على أيّ بطلٍ من أبطاله أَمارةٌ من أمارات الخوف. ك وكافكا هما بطلان هوميريان، سواء أتعلّق الأمرُ بهذه القطعة الصّغيرة من الأرض الموحِلَة الغارقة في الثّلج، والتي تُجسّد أُفُقَ ك. الوحيدَ؛ أو هذه المُذكّرات بكاملها المُسوَّدَة بالحِبْر والمرصودة لتكون عاقبتُها في النّار. وسيكون أيضاً بمُستطاع السيّد كلوبتسوك أن يُؤكّد لنا ذلك. لا (ك.) ولا كافكا يستسلمان أبداً. وربما لهذا السّبب أيضاً لم تكتمل روايات كافكا، لأنّ إنْهاءَها يعْني القضاءَ على الأمَل والحياة، والعُدول عن الأبدية، والخلاص. ولهذا السّبب أيضاً، ينبغي لنا اليوم، في عام 1934؛ أن نقرأ كافكا ونَحُضَّ على قراءته وتَرجيع صَداه، وتوسيع مداه في هذا العالَم الفظيع الذي نحيا فيه مُكْرَهين. دعونا نَرَ في كافكا؛ أو دعونا نَخْتَرْ أن نَرَى، حتّى لو كان ذلك يعْني خِداعَنا، دَرْسَ

الأمَلِ، ورَفْضَ الإِستسلام، وتَعَلُّمَ البطولةِ في ما يُعلِّمُنا إياه بالكثير من الفضْل، وبالكثير من اليُسْر، والكثير من العبقرية. لِنَتَعَلَّمْ رفضَ الإِرتداد عن إيمانِنا. إنّه الإيمانُ بالكتابة بالنّسبة لكافكا، ولعلّه الإيمان اليهوديُّ بالنّسبة لنا نحن، أو على الأقلّ الإيمان بما كُنّا عليه، وما كُنّا نحلُم بأن نكونه. ما يزال ك. يعتقد، وربّما يأمل. ولهذا أُطَمئِنُك يا مارتن، فما إنْ يُعِدْ سلمان شوكين نَشْرَ أعمالِه الأدبية في دار النّشر الخاصّة به، كما هو مُتوَقَّع أن يفعل قريباً؛ حتّى ينضَمَّ كافكا إلى زُمرة المؤلِّفين غيرِ المرغوب فيهم. نَعَم، أُؤكّد لك أنّ أعماله الأدبية ستُحظَرُ، وسيكون مآلُها ألسنةَ النّار إذا اقتضت الضّرورة أن تُحرَق الكُتُبُ مرّة أخرى، وإنّي لأَشُكّ في حُدوث هذا، لأنّ الكُتب اليهودية كافة قد أُحرِقَت بالفعل، ولم يبق شيءٌ من أعمالنا الأدبية، ومن أعمال نُظرائِنا، وينبغي أن نُقرّ بذلك، لِرُؤيتنا مُزدحمين في هذه الشّقّة، سُعداء بهذا الحظّ الذي نحظى به، حيث لا يزال بإمكاننا أن نجتمع، وأن نتحدّث طوال ساعات عن الكُتب التي لم يعُد بمستطاعنا قراءتها. نعم، لم يبق منّا أيضاً شيءٌ ذو بالٍ، نحن الذين نتشبّث بالنّشْر تحت نَيْر رجال الغستابو، ونعتمد على مشيئة البرابرة الجَهَلَة. نحن الذين نَذَرْنا حياتَنا ـ ونحن في شَرْخ الشّباب ـ للمعرفة، وكُنّا نحلُم بعالَم حُرٍّ ومُتعلِّمٍ، حيث الكِتاب والشَّغَف بالآخر يُنيران مسيرَ العالَم. حَسناً، العالَمُ يسير على خُطى استعراض الجيوش، ويَغورُ في قرارة غياهب الفكر، ويخضع لقوانين العار والفضيحة، وأصدقاؤنا يُعَذَّبون في الأقبية ويُعْدَمون فيها، وحياتنا ذاتُها على شفا جُرْفٍ هارٍ. لذا، نعم يا عزيزي مارتن، اِسمَحْ لي أن أحلُم مع كافكا بأنّ ثمّة حقيقةً عُلْيا، وأنّ هناك هدَفاً أسمى، وأرْضاً موعودةً، وأدَباً مُمكناً، سمِّها ما شِئْتَ، حقيقة أخرى غير الحقيقة الرّهيبة الرّاهنة، عالَماً

أسْمى يا عزيزي مارتن، لأنّنا نُدرك جيّداً أنّه بعيدُ المنال، وأنّ رُؤيتَه لن تسنح لنا، لأنّك عندما تغادر هذه الشّقّةَ ستكون مثلَ ك. حينما ترك فندقَ السّادة ليبحث عن ملاذ. دعْني عزيزي مارتن أُفكّرْ هذه المرّة مع جوزيف ك. في رواية *(المحاكمة)*، أفكّر حتى اللّحظة الأخيرة بأنّني لم أقترف أيَّ جريمة، وأنّني لستُ مُداناً بأن أهيم على وجهي مثل كَلْبٍ، أو أتعفّن في مُعسكر اعتقال، أو أموتَ مقطوعَ الرّأس بفأس، أو مُعلّقاً على عُقافة جزّارٍ كما يُقالُ من قبل عن العديد من أصدقائنا الذين اعتُقِلوا في معتقل داخاو. أمّا بالنسبة لِما تبقّى، فاعْلَمْ يا مارتن، أنّني حتى إذا كنتُ أنْزَعُ إلى هذا الوميض الذي أراه ينبَلِج في حُلْكَة يأس كافكا، سأظلّ مع ذلك مثلَه تماماً، ومثلك أنت تماماً، من دون شكّ، واعِياً بما ينتظرُنا. ولكن، على سبيل الخَتْم بإشارة نيِّرَةٍ، سأستعيد هذه الكلمات لكافكا بالذّات، المأخوذة من *(وصف معركة)*، والتي أقتبسُها من الذّاكرة دائماً: «*نحن في الحقّ كجذوع أشجارٍ في الثّلج. تبدو في ظاهر الأمر مُلقاةً ببساطة، وسيكون في مُستطاعِنا دفعُها دفعةً بسيطةً. لكن، كلّا، إنّنا لا نستطيع ذلك، لأنّها مرتبطةٌ بالأرض ارتباطاً وطيداً*». ران صمْتٌ ثقيلٌ على الغُرفة، وفجأة، انفجر نحيبٌ في هذا الصّمت. كانت إيدا مونك تُمسِك وجهَها بين يديْها. مسحتْ خدَّيْها الغارقيْن في الدّموع، ثمّ اعتذرت.

قال ويلتش: ـ ليس عليك أن تعتذري يا إيدا. لقد أفْصحْتِ هنا عمّا نُحِسّ به جميعاً في المحنة التي أصابتْنا. وبعد صمت آخر، أخذ الكلمةَ ألفريد غروسمان:

ـ أودّ أن أُدرِج في تكريمنا أفكارَ أدورنو وبريخت. أعتقد أنّ نظرةً ماركسيةً في هذا الشّأن أمرٌ ضروريٌّ. وأُضيف أنّ بريخت يَعُدُّ كافكا كاتباً ماركسياً...

ـ كافكا ماركسيٌّ! لقد سمِعتُ الآن كلَّ شيء!

ـ من فضلك يا مارتن!... تابعْ يا ألفريد.

ـ طيّب، لنبدأْ إذن ببريخت، الذي يقول إنّه يعرف أعمالَ كافكا معرفة تامّة...

ـ أيوجَد شيءٌ لا يعرفه السّيّد بريخت؟

ـ كفى، يا مارتن! واصِلْ، يا ألفريد...

ـ حسناً، إنّ موضوعة كافكا بالنسبة لبريخت هي الموضوعةَ الوحيدةَ في كُتبه كافة، هي، انتبهوا جيّداً، الحيرة.

ـ الحيرة؟

ـ نعم الحيرة! حيرةُ الشخصية التي تُجابه جميع أنواع المواقف، وتُواجه عدداً كبيراً من الأوامر. على هذا النّحو كان ك. يرُدُّ بالحيرة على الأوامر الأشدّ عبثيةً. وليست هذه الحيرة عند بريخت إلّا المرحلة الأولى من رفْض الإذْعان، إنّها أُسُسُ تمرُّدٍ آتٍ. وفي هذا الشّأن، نعم، بالنسبة لبريخت، فإنّ كافكا الرّجل الحائر، الرجل الذي سيثور قريباً، هو كاتبٌ بُلشُفِيٌّ بامتيٰاز.

ـ هذا له الفضْلُ في أنّه واضِحٌ، أَمِنْ كلمةٍ أيضاً عن أفكار أدورنو، يا عزيزي ألفريد؟

ـ على الرّحب والسّعَة. وأوضحَ ألفريد غروسمان أنّ كافكا في عُرْف أدورنو؛ لم يكن نبيّاً لدينٍ ما، ولا مدّاحاً لأُمَّةٍ، لاسيّما الأمّة اليهودية، إنّما تكمن عظمَةُ كافكا وحداثتُه في طبيعة كتابته ذاتِها، وفي بساطة أُسلوبه ونأْيِه عن الزّخرفة، وتكمُن، فوق ذلك، في ما كان يُسمّيه أدورنو بِتَقشُّف اللّغة.

كان روبير يستمع إلى غروسمان وهو يتحدّث الآن عن مفهوم عَصْر العالَم. لقد كان الأمر يتعلّق أيضاً باستقراء الحاضِر، والمعنى القديمِ، والمعنى الجَدَلِي. كان روبير قد تساءل، على اعتبار أنّهم سيطرحون عليه أسئلةً، بما أنّه كان حاضراً هُنا بصفته شاهِداً كبيراً، وباعتباره الرّجلَ الذي لَمَسَ ثوبَ المسيحِ؛ تساءل عَمّا إذا كان قادراً على صَوغ فرضيةٍ واحدة بوضوح عن صديقه، أو عن عملِه الأدبيّ.

تدخّل مارتن عندما فَرَغَ غروسمان من أدورنو:

ـ مع ذلك، أودّ أن أُذكِّر بأنّ الغستابو يسمح لمجلّتنا بمُواصلة الصُّدور بشرْطٍ وحيدٍ، هو أنْ تقتصر مقالاتُنا على التّأويلات اليهودية للأعمال الأدبية اليهودية. فإلى أيّ حدّ كتب كافكا عملاً أدبياً يهودياً؟ ولا توجد، على حدّ عِلمي، أيُّ إشارةٍ لكلمة (يهودي) في رواياته، وربّما لا توجد كلمةُ اللّه فيها.

أجاب ويلتش: ـ يبدو لي أنّني قد أجبتُ من قبل جُزئياً عن هذا السؤال في نصّ المقدّمة الذي قرأته، لكن يُمكنني أن أُفَصِّل القولَ فيه ما دُمْتَ تُلِحُّ...

ـ تفضَّلْ.

ـ في البداية سأذكر هذه الجملة التي يمكن أن نوضّحها في صحيفتنا، *«أنت لست من القلعة، أنت لست من القرية، أنت لا شيء، ولكن للأسف، أنت شيءٌ مع ذلك، أنت غريبٌ...»*. أليس هذا هو حالُنا منذ فجْر التاريخ؟ بعد ذلك سأُحيل مرّة أخرى إلى والتر بنيامين، لأستعيدَ الأطروحةَ التي طوَّرها عدّة مرّات. يوضّح بنيامين أنّ كافكا يكتب رواياته بنفس العلاقة

بالقصّة التي تُحافظ عليها الهاجادا[1] والهالاخاه[2] في الدّيانة اليهودية. سأشرح فكرتي؛ إنّ الهاجادا، مثلما يعلم مُعظمنا هنا؛ هي عبارة عن سلسلة من القصص والحكايات المأخوذة من الأدب الحاخامي. تعمل هذه القصصُ فقط على توضيح العقيدة اليهودية، الهالاخاه. على هذا النحو تتكّون رواياتُ كافكا، مثل الهاجادات المتعدّدة الواردة في التّلمود، وأشهرها هاجادا عيد الفصح، تتكوّن من قصص مُعَلَّقَةٍ دائماً، تضيع في الأوصاف التي لا تنتهي. ولعلّ مَردّ ذلك هو عدم الوقوع في مبادئ الهالاخاه، وفي تعاليم العقيدة. لِبنيامين هذه العبارةُ الرّائعةُ: *«إنها قصصٌ كبيرةٌ ذاتُ مغزى لا تُبرِزُه أبداً»*. ويعتقد والتر بنيامين، فضلاً عن ذلك، أنّه تَحقّقَ من موضوعة القلعة في إحدى القصص التلمودية، والتي سأُجنّبُكم أمْرَ سردِها.

ـ لستُ مُتيقّناً من أنّ قُوّات الأمن الخاصّة النّازية تُفرّق بين الهالاخاه والهاجادا، وبالتّالي لن يكون كافكا ماركسياً، بل قَبالِياً[3]؟

ـ مارتن، أنا أعرض ببساطة قراءةَ والتر بنيامين! ولكن ألا يبْدو أنّ تِيهَ ك. ـ هذا التّيه الذي يتعرّض للكراهية ـ يُحيل إلى تِيهٍ آخر؟ ك. هذا الغريب الذي يطرُق الأبوابَ، ويُطالب بالحقوق الكونية، ويُقابَل بالإِزدراء أو بالعُنف، ألا يُمكن أن يكون موجوداً بيننا هذا المساء؟

ـ ربّما، رُبّما...

(1) ـ الهاجادا: كتاب جُمِعَت فيه القصصُ والأساطيرُ اليهودية.

(2) ـ الهالاخاه: الشرّيعة اليهودية.

(3) ـ القبالا: تدلّ، بشكل عامّ، على القوانين الدينية والرّوحانية التي استلمَها الأنبياءُ والكَهَنةُ اليهود على مرّ التاريخ...

ـ وهذا الشّعور الرّهيب بالذّنب الذي ينبُع من سلوك كارل روسْمان[1]، والذي حَمَل جوزيف ك[2]. على القَبول بإدانته، وبطل *(الحُكم)* على إلقاء نفسه من الجسر، أَلا يعكسُ هذا الشُّعورَ بالذّنب اليهوديّ، الذي يُضجِرُنا باستمرار حتّى سَئِمْناه؟

ـ لا ريْب في ذلك أيضاً.

ـ هل هذه السّخرية الدّائمة من الذّات التي أبْداها أبطالُ كافكا، وهذه الدُّعابة العجيبةُ، وهذا الضّحك في وجه البربرية؛ لا يعْني شيئاً بالنّسبة إليك؟

ـ الدُّعابة اليهوديةُ ليست امتيازي، على الرّغم من أُصولي. أنت تعرف ذلك جيّداً.

ـ أعرف، يا مارتن...أمّا أنت، عزيزي كلوبتسوك، الذي سبق لك أن عرفتَه، أيُمكنك أن تُؤكّد لنا أنّه كان يحلُم في أعوامه الأخيرة بالذّهاب إلى فلسطين؟

قال روبير:

ـ أُؤَكّد لك ذلك.

ـ كان صُهيونياً مثلنا جميعاً، أليس كذلك؟

ـ ليس بالضرورة مثلكم، لكنّه كان في الواقع يقول بذلك. هل كان سيُقرِّر أخيراً الذّهابَ لو سنحتْ له صحّتُه بذلك، هل كان سيُقيم في

---

(1) ـ كارل روسمان: بطل رواية *(أمريكا)* لكافكا.

(2) ـ جوزيف ك.: بطل رواية *(المحاكمة)*.

فلسطين؟ لا أعلم، لكنّه كان يتحدّث عن ذلك، هذا صحيح، وكنتُ مندهشاً بالتّأكيد من هذا الأمر. كان يتحدّث عن هذا الحُلم الغريب المتمثّل في إدارة مطعم في تلّ أبيب مع دورا. وأعتقد، مع ذلك، أن أرض إسرائيل كانت في عُرفِهِ وَعْداً بعيداً أكثر منها أرضاً موعودةً، وَعْداً مُماثِلاً للقارّة الأدبية، وأُفُقاً بعيدَ المنال، وإمكانية حياةٍ أخرى ممكنة من شأنها أن تُحرِّره من قُيودها. ستحملُه هذه الرّحلةُ على أن يَمْتَثِل للضُّغوط المُشتركة ويَقْبَلَ بها، وستُتيح له أيضاً شكْلاً من الحالَة السَّوِيَةِ، وتجعله يستيْقِنُ أنّه من عامّة النّاس، وأنّه جزءٌ من عائلةٍ، وينتمي إلى شَعْبٍ. ولكن هل يُمكنني أن أُذَكِّرَ أيضاً بأنّ كافكا لم يكُن يشعُر طبعاً بأنّ مُقامَه يَطيبُ بيْن الأغْيار[1]، وكذلك لا يستسيغُ مُقامَه بين بني جِلدتِه اليهود، ولا في الكنيس حيث أخذه أبوه عندما كان طفلاً لإقامة حَفْلِ البارميتسفا[2]، ولا يشعُر به في أيّ مكان آخر. لقد كان بطبيعة الحال يُكِنُّ التَّوْقيرَ والإجْلالَ الحَقَّ لهؤلاء اليهود الأرثوذوكس الوَرِعين المُنتمين للمذهب الحَسيديِّ، الذين كان يعشق إخلاصَهم وجَذَلَهم وأصالتَهم. ولكن، فيما بيننا، هل كنتَ ستراه، بِصِدْق، وهو يُدير حسابات المطعم الذي كانت دورا ستطبخ فيه؟ لا أظنّ أنّ عُبور البحر المتوسّط كان سيجعل منه إنساناً آخر. لا يُمكنه إلّا أن يكون شخصاً وحيداً، مَرْصوداً للبقاء غريباً في العالَم، العالَمِ اليهوديّ مثل كُلّ العوالِم الأخرى. وبعد ذلك، لا أحسُب أنّ كافكا كان بمُستطاعه التّأقلمُ مع عالَمٍ في حالة حَرْبٍ. فهو لم يكن ذا نَزعةٍ حرْبِيَةٍ.

---

(1) ـ الأغيار: مصطلح يهوديٌّ يُطلِقُه اليهودُ على غير اليهود.
(2) ـ بار ميتسفا: حفلٌ يهوديٌّ دينيٌّ يُقامُ عند بُلوغ الطّفل اليهوديّ سِنَّ الثالثة عشْرة من عُمره...

ـ أتعْني أنّه كان ضعيفاً؟

ـ لا، ليس ضعيفاً! إنّه كائنٌ شكّاك. والشّكُّ بالطّبع هو أقوى أشكال الذّكاء البشريّ. لم يكن، على كلّ حال، يستجيبُ لشرائع الإنسان الجديد الذي تُريد الصّهيونيةُ خَلْقَه، هذا الفردُ الواثِقُ من حقوقه، المُتخَفِّفُ من ضَعْفِ يهوديّي الشَّتاتِ. وإذا كان لا بُدّ من الحديث عن الضَّعْف، وإذا كان البعضُ سيتحدّث عن العَجْز؛ فمن المُؤكّد أنّ هشاشتَه كانت مُجرّدَ استجابةٍ للقُدْرة الأبوية السّاحقةِ. كانت وسيلةً للنّجاة بحياته.

ـ شكراً لك يا روبير... وما دُمنا في هذا المجال، فربّما يا إيدا، يا مَن كُنتِ طبيبةَ مستشفى مُختصّةً في الأمراض العقلية، ويُؤسفني استعمالُ الفعل الماضي، فربّما ستشرحين لنا هل اهتمّ التّحليلُ النّفسيُّ بكافكا؟ من المؤكّد، على كلّ حال، أنّه سيجد فيه ذريعةً إلى شيءٍ.

وقفت المرأةُ الشّابّةُ. كان صوتُها المتلعثمُ، في بداية مداخلتها قد أبانَ عن أنّها ما تزال تحت تأثيرِ فيْضِ العاطفة الذي انتابها من قبل.

كانت تَجْهَدُ في سبيل أن تُسْمِعَ صوتَها، ولكن سُرعان ما تَبَدَّد حَرَجُها، وأنشأتْ تتحدّث بثقة، وأعربت عن تحفُّظاتِها بشأن قُدرة التّحليل النّفسيّ على قراءة العمَل الفنّيّ وفهمِه فهْماً كاملاً. إنّ فِعْلَ الكتابةِ يسْتعْصي على التّأويل الجامِعِ. ويظلّ الفنُّ مُستودعاً للغُموض. ثمّ عادت بعد ذلك إلى الشُّعور بالذّنب الذي كان يُلازِم كافكا، فأوضحتْ أنّه حالةٌ نموذجيةٌ. كان الأبُ مُذنباً بالطّبع، بكلّ مكانته، وكلّ ثقله بوصفه أباً، وثِقَل حُبِّه وفظاظته وماضيه. كان الأبُ يسْحَقُ الابنَ، لكنّ براغ كانت تسحقُه أيضاً، وكانت وظيفتُه في مكتب التّأمين تسحقُه، ويهوديتُه تسحقُه، ومُعاداة اليهودية

الرّاهنة تسحقُه، وكانت لغتُه الأُمُّ الألمانيةُ تسحقُه أيضاً، بقدْر ما سحقته مجرّد فكرة الزّواج، وإنْ كانت العُزوبةُ تسحقه تماماً مثل وسواسِه المَرَضِيِّ ودائِه. وستسحقُه النّساءُ، الواحدة تلو الأخرى، نماذِجَ لعالَمٍ منذورٍ لِمَنْعِه من تحقيق ذاتِه، من أن يكون هوِ نفسه، كاتباً، وفِكْراً صافِياً. زِدْ على ذلك أنّ النّساء يظهرنَ في عمله أحياناً كائناتٍ شرّيرةً. عاش كافكا تحت هذا النَّيْر الوهْمِيِّ في كثير من الأحيان، نَيْرٍ كان يستبدُّ بجميع مجالات حميميته. لكنّ الكتابة كانت تجعله مُذنباً أيضاً.

توقّفتْ، ثمّ استأنفت حديثَها بعد صمْت من التّأمّل: ـ يتحدّث فرويد عن المعنى المُعاكس في الكلمات البدائية. كتابةُ كافكا السّهلةُ والبسيطةُ، لغةُ براغ الألمانيةُ هذه، الفقيرةُ جدّاً، والعاريةُ للغاية من المُؤثِّرات، لغةُ مُوَظَّفي التّأمين هذه، هي لغةُ اصْطِفاف الكلمات البدائية. الكلمات والجُمل ذوات المعاني المُزدَوَجَة. هذا المعنى المزدوَج، وهو الاسمُ الآخرُ لمعنى العَبَث يُسْبغُ على النّصّ روحَ الدُّعابة، هذه الدُّعابة السّوداءُ التي تسْري في العمل الأدبيّ، ولكنّها في المقام الأوّل تنقُلُ للقارئ شُعوراً بالرُّعْب الدّائم. هذا الأسلوب العاري، المُجرَّدُ من الفائض غيرِ الضّروريّ، يُرسِّخُ جلالَ النّصّ وبهاءَه.

توقّفتْ كما لو أنّها أسْهبَتْ في الحديث، وجلستْ مرّة أخرى.

قال ويلتش: ـ شكراً لك يا إيدا، الأمرُ رائعٌ كالعادة. حسناً، بقيَ لنا أن نستمع إلى ضيفنا للمرّة الأخيرة، عزيزي روبير، أنت الذي عرفتَ كافكا، أيُمكنُك أن تختتم؟ ما الإضافةُ التي ستُضيفُها؟ ماذا أخذْتَ عن هذا الرّجل من خلال لقائك به؟

وقف وبدأ بصوت عالٍ يشُكُّ في قُدرته على الأخْذِ من هذه المُصاحبة

وهو في رَيِّقِ الشّباب. وأوضح أنّ القَدَر سَنَح له أن يكون شاهِداً قريباً مُطَّلِعاً عن كَثَب. وكان يأمل منذ فترة طويلة أن يرى سِرَّ الإبداع مُضاءً من خلال التقرُّبِ من خصوصية المُبدِع. ومن الجَلِيّ أنّ السِّرَّ ظلّ خَفِيّاً. لكنّه كان قد أدرك أنّ الكتابة عند كافكا لم تكُن تُمْليها عليه قُوَّةٌ عُلْيا، بل كان يكتب من خلال طاقة داخلية، أو ضَرْبٍ من الغريزة. كان الأمر كما لو أنّه كان يكتب تحت ضَغْطٍ، تحت تأثير عابِرٍ، ليس تأثير القلق، بل النَّشْوة. لعلّها نشوةُ الصّفحة البيضاء. وما إن يتناول القلمَ حتى يغدو كافكا شخصاً آخر غير نفسِه، شخصاً آخر غير وكيل التّأمين، وشخصاً آخر غير الابْن الملعون، أو الخطيب المُحْزِنِ. كان يبدو أنه يُريحُ نفسَه من حِمْلِ وَعْيِه، يتحرَّر من كلّ التزامٍ، ويتخلّص من حِمْلِ الإكْراه البشريّ. كان يرى ويصِفُ عالَمَ الأعالي التي تجهَلُ قوانينَ الجاذبية الأرضية. ومثلما يتحرّر العبيدُ وهم يُحطّمون أصفادَهم، كان يعبُر على هذا النّحو، والقلمُ في يدِه، فما إنْ يتّخذ مكانَه في وضْعٍ يُتيحُ له أن يغْدُوَ كاتباً، حتّى ينتقل من وضْع شخْصٍ يستكينُ أمام النّاس إلى وضْع شخصٍ حُرٍّ. إنّ ما كان غامِضاً وعقيماً ومُعْتِماً وفوضوياً؛ يغدو على حين غرّة، وبِجَلاءٍ كبير لِوَعْيٍ فُكَّتْ أغلالُه، يغدو مُضيئاً وخصيباً ومُنَظَّماً. كان صوتُه الذي عادة ما يكون واهِناً ومرْعوباً، قد أمْسى قويّاً وواثِقاً. غدا وكيلُ التّأمين الصّغيرُ، والابنُ الخاضِعُ، والخطيبُ المُسْتَعْبَدُ، بانِيَ عوالِمَ، وفاتِحَ امبراطورياتٍ أقوى وأعظم وأعرَق في القِدَم من إمبراطوريات الإسكندر الأكبر، إمبراطوريات العِلْمِ والمعرفة الإنسانية، التي كان من أسمائها: *(المُحاكمة)* و*(القلعة)* و*(أمريكا)*. توقّف وهو يشعُر ببعض الخجل من غنائيته الجامحة، وإعجابِه الذي لا حَدَّ له، وحساسيّته. أراد أن يوضّح كلامَه:

ـ لكن، ربّما تمنعُنا مُعاشرةُ شخصٍ مُعاشرةً وثيقةً من الرُّؤية بوضوح، وربّما لا يمكن لحقيقة امرئٍ أن تقتصر على تأويل نصوصه، أو الوقائع والأحداث المتعلّقة بحياته. لست متيقّناً، على أيّ حال، من قُدرتي على إدْراك هذه الحقيقة كلَّ الإدْراك، ولعلّ هذا هو السّبب في أنّي لست طبيباً نفسياً، وإنّما جرّاحُ صدْرٍ.

تدخّل مارتن بخُبث قائلاً: ـ *كان، كان*... ولكن إذا لم تستطع التّعْويلَ على شاهدٍ مباشر لِبَيان حقيقةِ الوقائعِ، فعلى مَن يُمكننا التّعويلُ إذاً؟

أجاب:

ـ ربّما يمكن للمرء أن يُعَوِّل على نفسه فقط.

وبعد ذلك جلس مرّة أخرى.

أخذ ويلتش الكلمة: ـ شكراً عزيزي روبير... حسناً، لقد أَزِفَ الوقتُ لِفَضِّ الاجتماع. سأضرب لكم موعداً في غضون أسبوعيْن، وسنكون أشدَّ قُرباً من هموم الحياة اليومية، إذا جاز لي أن أقول كلمة طيّبةً. وسنتحدّث عن رَدّة فعل المجلّة على ما يُشاعُ من إجراءات مُحتمَلَة تهدف إلى مَنْع اليهود من دخول الحدائق والمنتزهات، بعد تلك الإجراءات الحقيقية التي حظَرَت عليهم ارْتيادَ شواطئ معيّنةً في شمال البلاد. شكراً لحُضوركم، وتَوخّوا الحَذَرَ عند عودتكم إلى بيوتكم. وبينما كان روبير يهمُّ بمغادرة المكان، رأى المرأةَ التي كانت تُرافق ألفريد غروسمان قادِمةً نحوه. وهي سيّدة يهوديةٌ عجوزٌ قد يحسبُها المرءُ طالعةً من القرن الماضي، وكانت تُشبه امرأةً كان قد تعرّف إليها روبير في مشفى براغ، امرأة مريضةٌ كانت قد روت له أنّها وُلِدَت في الحيّ اليهوديّ قبل دَكِّه في الوقت الذي كان قائماً

في المدينة، بِدُوره المُتداعية، ومَعابده التي لا تُحصى، وأزقّته المُعتمة، وغوليماته. شدَّت المرأةُ على يده طويلاً، من دون أن تنبس بكلمة واحدة، وهي تُحدّق إليه بعينيْها الواسعتيْن.

في الغرفة التي اسودَّت بالدُّخان، كانوا ينفرون من المغادرة، وكانوا يُواصلون الجدالَ حول ما إذا كان لا بُدّ من قراءة القَبالة أو ماركس أو فرويد لفهم كافكا. أطالوا عُمْرَ هذه اللّحظة غير مكترثين بالحفلات الهمجية التي كانت تجري في الخارج. وإذْ تأمّل الاِجتماعَ، بدا لروبير أنّ هذا العالَم الصّغير كان يقتفي مصيرَ الحيّ اليهوديّ القديم في براغ، وقد تَأَتَّتْ له من هذا الحُضور رُؤيةٌ أكثر قتامَةً وأشدّ تأثيراً من رُؤية تكَدُّسِ القُبور.

دورا

رتَّبَتْ لقاءً مع روبير في تيير جارتن، في شُرفة مقهى أمام حديقة الحيوان. يُشرف على المكان من بعيد عَمودُ النّصْر ومدافعُه بوميضها الذّهبيّ، التي تسْحَر مجموعةً من تلاميذ المدارس فيصيحون أوه! آه! مفتونين على مرأى من النظرة المبتهجة لمُرافقيهم الرّاشدين. يحتفي هذا العمودُ بذكرى معركة سيدان، والإِنتصار على فرنسا، وميلاد الرّايخ الثاني.

تتخيّل نفسَها دائماً تحت المُراقبة. وترتجف عندما تنتابها فكرةُ إلْغاء رحيلها إلى موسكو في اللّحظة الأخيرة. هل هناك شيءٌ يُقْسَرُ المرء عليه إلى الأبد هُنا؟

اكتشفتْ هذا المكانَ برفقة فرانتس، قبل ثلاثة عشر عاماً. تُحِبُّ أن تعود إليه بين الفينة والأخرى لِتَنْتَشِيَ فيه بِشَذا النّباتات، وتنسى لحين من الوقت اسْمَها وأُصولَها، وكلَّ ما يُهدِّدُها بالموْت. تُعيدُها مسالكُ حديقة الحيوان إلى ذاك العهْد الذي كانت تسير فيه جنْباً إلى جنْب مع حبيبها، يَداً في يَدٍ، أمام الحقول المُسيَّجَة حيث كانت الظِّباءُ تُبصِرُهما يمُرّان. وعندما يدنُوان من قفص القرود، كانت قِرَدةُ البابون تُطلِقُ صيْحاتٍ جَذْلانةً أثناء مُرورهما، فيبكيان من فرط الضّحك. وعلى مسافة أبعد قليلاً كانت التّماسيح في حوْضها تُراقبُهما بنظرة عَبوسٍ وقاسيَة، واليوم تشعُر أنّها كهذه الحيوانات الحبيسة في الأقفاص.

إنّها ليست في مأمنٍ من المُلاحقة. كانت تلحَظ بطرف عينها الشخصَ الذي كان يحتسي كأس بيرته على طاولة الشُّرْب. في هذا العام 1936، وبعد ثلاث سنوات من الرُّعب الشَّرس، يُواصل الغستابو مُطاردةَ آخر المنبوذين الطُّلَقاء. يُسدِّد الرّجلُ ذو الهيئة المُريبة الحِسابَ. تعقّبتْه بعينيْها بينما كان يُغادر المكانَ.

كلّ هذا سيُؤدّي بها في آخر الأمر إلى الجُنون.

يُضيِّقُ النّظامُ الخِناقَ. يحظُر قانونُ حمايةِ الدَّمِ والشَّرَفِ الألمانيَيْن، منذ الآن، الزَّواجَ والعلاقات غير الشرعية بين اليهود والمواطنين من *(دمٍ ألمانيٍّ)*. وابتكروا نعْتاً لهذه الجريمة: *(تدْنيس العِرْق)*. ويتعرّض الجُناةُ لاعتقال غيرِ محدود في معسكر احتجاز. «إنّ الخِيار، كما أعلن للتّوّ أحدُ كبار مسؤولي الرّايخ؛ ليس بين السّلام والحرب، بل بين إبادة اليهود وإبادة الرّايخ».

أنهتْ قهوتَها. تأخّر روبير. لقد عرفته دائماً متأخّراً، وغفرتْ له دائماً كلَّ شيء.

تنفجِر الضّحكاتُ من خلفها، يرفعون الكُؤوس ويصكّون بعضَها ببعض، آثرتْ ألاّ تعرف سببَ هذا. ثمّة صبيّةٌ تلعب في المَمرّ تُراقبُها أُمُّها الجالسةُ إلى طاولة مُجاورة. وبينما كانت تكنُفُها بنظرها، أخذت عُلبةَ سجائر من حقيبتها، وعدّلتْ حاملَ سيجارها، ووضعته بين شفتيْها، وتناولت قدّاحةً وأشعلتْ، استنشقت نفْحَةً ونفثَتْ بأناقة. يكْسو وجهَها خيطُ دُخّانٍ. كلّ شيء فيها يسْطَعُ: شُقرتُها، وعيناها، وشفتاها المرسومتان بعناية، وبَياضُ بَشَرتِها. تضع حول جيدِها قِلادةً من عِرْق اللُّؤلُؤ. تُلقي الصبيّةُ، من حين إلى آخر، نظرةً صوبها، فتومئُ الأُمُّ إليها دلالة على الموافقة.

تفكّر دورا في ماريان. صغيرتُها مريضةٌ ـ قيل لها إنّ كليَتَيْها مُصابتان.

ولم تكن تدري أنّ صبيّة في عمر السنتيْن يمكن أن تُعاني من مشاكل في الكلى. وتأمل أن تحصل في روسيا على الرّعاية اللّازمة. إنّها تؤمن بالاتّحاد السّوفياتي، وتُعلّق كلّ آمالِها عليه. هي في حاجة إلى أن تؤمن، وإلّا فإنّها ستيأس، وإلّا فإنّها تُجابِه مشهدَ العالَم، عالمٍ يتحاماها، حيث تُنْبَذُ فيه، ولا مكان لها فيه. لم تُوَفَّق حتى إلى نهْم ما يُريده النّازيون، وإلى أين يودّون الذّهابَ بالتّدابير والقوانين، وماذا يُريدون من اليهود، ومن أجل ماذا يُضْعِفونهم، بعد أن جُرِّدوا من كلّ شيء، وحُرِموا من أيّ حقّ؟ لقد حطّموهم، وسلبوا أغنياءَهم، ومنعوا كلَّ عَمَلٍ على من لا يملك شيئاً، وزجّوا بهم في السُّجون، واعتقلوهم كما لو كانوا غيرَ مرئيين. لكن لا يُمكنُ أن نَفْنِيَ شعْباً بأكمله، وتاريخاً برُمّته. إنّها لا تُدرك أين هي الغاية من كلّ هذا. أيُريدون أن يجعلوا من اليهود شعْباً من العبيد؟ ترحل عن هذا العالَم. ولن تتعفّن في هذه المدينة التي ستكرَه فيها قريباً على التوسّل للحصول حتّى على حقّ التّنفُّس. تريد أن تُؤمن بوجود مكان على هذه الأرض لا تُنْبَذُ فيه. وما هذا المكانُ إلّا موسكو.

بدؤوا تحت فوانيس كشك الموسيقى قُبالَتها يعزفون رقصة الفالس أمام جمهور من النّساء والرّجال، يهزّون رؤوسَهم على نحو منتظم. يرُدُّ الشُّرطيُّ المُناوبُ أمام الكشك بصخَبٍ عبارةَ *(هايل هتلر)* على رَجُليْن يرتديان معطفيْن رماديّيْن، ويعتمران قُبّعةَ بورسالينو يسيران بالوتيرة نفسها، ويأتيان لتحيّتِه.

لم تَرَ روبير منذ شهور. كان لقاؤهما الأخير نتيجة المصادفة، كان ينزل من الترام، وكانت هي تصعد دَرَجاته، فجلسا على مقعد قريب. ولم يُطيلا الجلوس.

في ظهيرة هذا اليوم، وفي هذا المكان وهما على انفراد، سيكون لديهما

مُتَّسعٌ من الوقت. وستستطيع إخبارَه بنبأ رحيلها. لقد حصلت أخيراً على التّأشيرة، هذا المفتاح السِّحريُّ الذي نالته بعد عُسْرٍ، والذي حملها انتظارُه على الوقوع في اليأس من القدرة على مغادرة هذا البلد. في الأسبوع الماضي تلقَّت الِاستدعاءَ الذي طال انتظارُه. حضرت إلى دائرة الشُّرطة حيث بَلَّغَ المسؤولُ الآريُّ المتحمّس للنّظام النّازيِّ؛ اليهوديةَ الشيوعيةَ البولنديةَ الصّغيرةَ من بيدزين، أنّها ستكون حُرَّةً قريباً في مغادرة الرّايخ. أبلغها الرجلُ بهذا القرار، ووجهُه المُعَبَّسُ يَشِي بالِاشمئزاز، من دون أن يرفعَ نظرَه إليها، مُشعِراً إياها بأنّ الأُمّة الألمانية وجدت على هذا النّحو وسيلةً لإرسالها إلى الجحيم.

ستعثُر في موسكو أخيراً على زوجها. لقد أُطلِق سراحُ لوتس من السُّجون الألمانية قبل بضعة أشهُر. وسُمِح له بمغادرة الرّايخ. يشغل الآن منصبَ مُساعدٍ في جامعة موسكو. ستُشْرَعُ أمامهما حياةٌ جديدةٌ، إنّها نهايةُ التّيه، ويُسْنَحُ لهما بالأمل مرّة أخرى. لقد عاشت دائماً على الأمل. إنّها تودّ أن تُشارك روبير فرحتَها وارتياحَها وأملَها. طلبت منه أن يُعيد فرشاةَ شَعَرِ فرانتس التي أرسلتْها إليه بعد تفتيش الغستابو، حتى تكون في مَأمن في منزله، لأنّها كانت تخْشى في ذلك الوقت أنْ يُلْقَى القبضُ عليها. الفرشاة الآن هي الذّكرى الوحيدة التي لديها عنه. واليوم، إذْ تهُمُّ بمغادرة الرّايخ، يُمكنُها أن تستعيد أخيراً كنزَها الثّمينَ.

مرّ بائعُ صُحُفٍ بالقرب منها وهو يصيح: «*دير شتورمر! اشتروا دير شتورمر!*[1]». لا بُدّ أن يكون في الخامسة عشرة من عمره، له خدّان مُمتلئان، ونظرةٌ حادّةٌ، ويرتدي زيَّ الشّبيبة الهتلرية.

---

(1) ـ دير شتورمر: أسبوعية نازية (1923 ـ 1945).

أخذ الجوق الموسيقي يعزف *(الدّانوب الأزرق الجميل)*[1]، ويجعل الصُّدورَ تَميدُ بالحركة البطيئة نفسها. ثمّة ضابط بالزّيّ العسكري يدعو مُجاوِرتَه إلى بضع خُطُوات من الرّقص. يدوران مبتهجيْن يُصاحبُهما التّصفيقُ، مستقيميْن، ينظران نظرةَ فَخْرٍ واعتزازٍ بالدَّم والشّرفِ الألمانييْن، اللّذيْن يحميهما القانونُ منذ الآن من أيِّ دَنَسٍ عِرْقِيٍّ. يرقصان، لا يعوقُهما عائقٌ، طليقيْن، تسْتَخِفُّهما السّعادةُ، مُنْتَشِيَيْن بالموسيقى. يُجاوِزُ ساقا المرأةِ المكسُوَتان بالأسود مِعطفَها الطّويلَ. تنظرُ دورا إلى ساقيْها العاريتيْن، والحاشية المُنْفَكَّة لفُستانها من الحرير المُضَلَّعِ.

أشارت مجاورتُها إلى بائع الصّحف، دنا اليافِعُ وعلى شفتيْه ابتسامةٌ، وضعت المرأةُ قطعةً نقديةً في يده، شكرَها الطّفلُ، ووضع الصّحيفةَ على الطّاولة.

دنا من دورا: «سيّدتي، ألا تشترين دير شتورمر؟». انتابها شعورٌ بالذُّعْر، وأومأت بحركةِ رَفْضٍ مَرعوبة. «لا بأس!»، صاحَ الفتى اليافِعُ فِرحاً قبل أن يُتابع سيرَه صرب الطّاولات الأخرى.

لعلّها في موسكو تستطيع الاستمرارَ في التَّعْويلِ على عائدات بَيْعِ كُتُبِ فرانتس؟ كان برود، منذ النّشْر الأوّل لَبِقاً وأميناً، عندما أدْرَج في جميع العُقود التي وقَّعَها مع دور النّشْر بأنّ نسبةً من المبيعات قد أُذِنَ لها بها، بصفتها *(السّيدة كافكا)*. كان قد اسْتَنَد على واقعة حاصلُها أنّ مُدير المصحّة في كيرلينغ رأى أنّ من المُناسب الإلحاحَ على تزويجهما رسميّاً.

---

(1) ـ الدانوب لأزرق الجميل: فالس شهير من فيينا، ألّفه الموسيقار النّمساوي يوهان شتراوس.

وهكذا يُمكن لدورا أن تستمرّ، بوصفها زوجةً شرعيةً، في البقاء تحت سقْفٍ واحد مع الرّجل المُحْتَضَر من دون أن تنتهك الأخلاقَ. وإذا لم يكُن للورق أيُّ قيمةٍ حقيقيةٍ، فإنّ توقيعَ النّشر ذو قيمةٍ حقيقية، وهي الدّفْعُ نَقْداً، ولا شكّ في أنّ هذا الورقَ سيكون صفقةً مُبالَغاً فيها من أجل تعْويضٍ زهيدٍ جدّاً، يأتي بشكل غيرِ مُنتَظِمٍ.

تعود الطّبعة الألمانيةُ الأولى من *(المُحاكمة)* إلى عام 1925، وقد نُشِرَت الرّواية منذ حين باللّغة البولندية في هذا العام 1936. أمّا *(التحوّل)* فقد ظهرت في فرنسا عام 1928، في مجلّة *La Nouvelle Revue Francaise* الشهيرة. ونُشرَت *(القلعة)* عام 1930 في نيويورك. وهنا في برلين، اشترت دار شوكين الحقوقَ العالميةَ للأعمال الكاملة، ونشرتْ منها الأجزاءَ الأربعةَ الأولى في العام الماضي، وهي أعمالٌ أدبيةٌ يهوديةٌ نشرتْها دارُ نشْرٍ يهودية، ولا يُسمَحُ بقراءتها إلّا للقُرّاء اليهود، وأيُّ آرِيٍّ يحوزُ مثلَ هذا العمل الأدبيّ يُعرِّضُ نفسَه للسّجن.

استرعتْ انتباهَها الصّفحةُ الأولى من *(شتورمر)* على الطّاولة المُجاورة. صورة كاريكاتورية لرجُل ذي أنْفٍ معْقوفٍ يذْبَح طفلاً؛ تعْلو شِعارَ الصّحيفة المكتوب بحُروف بارزة:

(اليهودُ هُم مُصيبتُنا).

شخصتْ ببصرها، وعرفتْ من بعيد طيْفَ روبير يدْنو نحوها بخُطى حثيثةٍ. يبْدو أنّه لم يلْحَظْها، وكان يُفتّش عنها بعينيْه. أنيقٌ كلّ الأناقة، ببدلته السّوداء تحت مِعطفِه المفتوح، مِعطفٍ خفيفٍ للغاية لا يُناسِبُ بَرْدَ الشّتاء، وعريض جدّاً لا يُشاكِل كتفيْه. لقد وجدتْه دائماً فاتِناً. جسدٌ

مألوفٌ إلى حدّ ما، ووجهٌ طُفوليٌّ، وكتفان مُتَهَدِّلان، وشَعَرٌ ينْحَسِرُ عن مُقدَّم رأسِه. لكنّها تُحبُّ نظرتَه وذكاءَه. تُلوِّحُ بذراعها نحوه. أومأ إليها، وأسرع وارتمى بين ذراعيْها وجلس. طلب بيرة، أمّا هي فتناولت قهوةً من جديد.

تسأل وصرتُها يَشي بالتخوّف:

«لم تنْسَ؟».

كيف يمكنه أنْ؟ إنّه يعرف مدى أهميةِ هذه الفرشاة عندها، ويعرف حجْمَ تفَطُّرِ قلبِها عليها إذا فارقتْها. يأخذ الشّيءَ الملفوفَ بالورق المُقوّى من جيب معطفه، ويضعه على الطّاولة.

برقّة فكَّتْ الورقَ، وفي أناةٍ اكتشفتْ الشّيءَ. سَرَتْ في جسدها قُشعريرةٌ، وارتجفتْ أناملُها. تُمسك بيدها الإطارَ الخشبيَّ البسيطَ المُغطّى بالشّعَر. فكّرتْ أنّها أحبَّتْ، وأنّها كانت حبيبَةً. يتراءى لها الوجهُ الحبيبُ مرّة أخرى، ونمشط في تمهّل الشَّعَرَ النّبيلَ لأميرها الخالد.

همسَتْ شاكرةً، ووضعتْ الشّيءَ في حقيبتها.

ـ «قهوتك سيّدتي، وبيرتك سيّدي»، تدخّلَ النّادلُ.

ساد صمْتٌ.

ـ «إذاً، مه خبرُك المُهمُّ؟»، سألَ أخيراً.. «لا تقولي شيئاً، أحْزِرُ... سترحلين!».

أومأت برأسها أنْ نعم. قال: إنّه أمرٌ رائعٌ.

ـ «في الأسبوع المقبل، سأكون في موسكو!».

قال إنّها نَجَتْ.

ـ «أنتَ لك بودابست».

ـ «نعم، هورثي وهتلر يتبادلان التّقدير كثيراً لدرجة أنّني أستطيع القدومَ إلى برلين».

ـ «ما المكان الآخرُ الذي ترغب في الذّهاب إليه؟... إنْ لم يكُن أمريكا».

إنّها تعلم أن الإدارة الأمريكية قَيَّدَتْ بشكل صارم إمكانيات الدخول إلى الولايات المتحدة.

أجاب إنّه التمس من بعض الأشخاص الذين يستطيعون مساعدتَه. فسألته مَنْ هُم.

ـ لن تسْخري؟ ابتسمتْ. لا، بالطّبع، لن تسخر.

ـ «توماس مان»، قال بصوت ضئيل جداً.

لم تتمالك نفسَها من الضّحك بصوت عالٍ، تداركت خطأَها، واعتذرتْ، كيف استطاع بحقّ الجحيم أن يتّصل بتوماس مان؟

قال:

ـ إنّ شرح ذلك مُعقَّدٌ بعضَ التّعقيد.

قالت:

ـ لدينا متّسَعٌ من الوقت.أصبح صديقاً للكاتب فرانتس ويرفيل الذي ترجمته زوجتُه جيزيل إلى اللّغة المجرية. قدّمَه ويرفيل إلى أرستقراطيّ مجريّ يرْعى الأدبَ والفنّ بعض الرّعاية، يُدعى لودفيج فون هاتفاني. وهذا المدعو فون هاتفاني ربط الصّلةَ بينه وبين توماس مان في سويسرا التي يُقيم فيها، منذ الآن، الحاصلُ على جائزة نوبل. لقد أسْهَبا الكلامَ في

الجوانب الطّبّية لرواية *(الجبل السّحريّ)* التي تتضمّن وصْفاً عِلمياً لداء السُّلّ. ولقد أبْدى توماس مان اهتماماً بأساليب العلاج المبتكرة التي يُطوِّرُها روبير. ثمّ عَرَّجا على الحديث عن كافكا. كان توماس مان مفتوناً بكافكا. وكان من بين الأوائل في ألمانيا الذين اكتشفوا عملَه الأدبيَّ.

ـ طلبتُ منه توصيةً للإدارة الأمريكية. وأنبأتُه أنّني بعد أن آزرْتُ كافكا في أوقاته الأخيرة، فأنا الآن مَن يحتاج إلى المُؤازرة.

ـ هل جرُؤتَ على كتابة ذلك؟

ـ سأجرُؤُ على أيّ شيءٍ لأتجنّب الوقوعَ في الفَخّ، وعلاوة على ذلك، لن أكتفي بمان...

ـ تُريد أن تطلب من الله؟

ـ أوشكْتُ... أن أطلب من إنشاتين! قهقهتْ، لكنّها تعلم جيّداً أنّ إنشاتين منذ أن عثَر على ملاذٍ في برينستون، اشتهر بالاِستجابة لجميع طَلبات طالبي اللّجوء الألمان. ويُقدّم التّوصيات المُوَقَّعَة بِيَده بكثافة، هذه الإقْرارات الخَطِّيَّةُ التي تشترِطُها الإدارةُ الأمريكيةُ للدّخولَ إلى أراضيها، أو الإقامة فيها. إنّه على وشْك أنّ يغْدُوَ موسى اليهودِ الألمانِ، وهو يُتيحُ لهم عُبورَ البحر المُحيط. إنّ لِتساهُلِ كاتبِ الدّولة الأمريكية، كورديل هال الرّهيب، حُدوداً للأسف! وفي شأن مسألة إنْقاذ اليهود، فقد تم تجاوز هذه الحُدودُ منذ فترة طويلة.

ـ ماذا تُريد أن تقول لإنشاتيْن؟ كان العالِمُ الفيزيائيُّ أستاذاً قبل نُشوء الحرب في جامعة براغ، التي درس فيها روبير نفسه بعد خمسة عشر عاماً. وقد يكون هذا مدعاةً لإقامة اتّصال. لكنّه يودّ في المقام الأوّل

استحضارَ كافكا. كان إنشتاين يتردَّد في براغ على شُقَقِ بيرتا فانتا، هذا الصّالون الأدبيُّ الذي كان فرانتس يتحدّث عنه كثيراً، حيث كان يُقدِّم فيه أحياناً بعضَ قراءاته. لعلّ الرّجليْن العبقريّيْن قد التقيا فيه؟ لعلّ كافكا، في المساء نفسه، قرأ مقتطفات من *(الحكم)*، وإنشتاين عَزَف على الكمان! بَيْد أنّه سيوضّح لإنشتاين، قبل كل شيء، بأنّه أحدُ المتخصّصين الألمان في العلاج الجِراحي لداء السُّلّ، وفي مستطاعه أن يضع عِلمَه ومعارفَه وأساليبَ الجراحة التي طُوِّرَتْ في المشفى الخيْري في خِدمة أمريكا.

انفجرت ضاحكة:

ـ أنت لا تزال مجنوناً! أنت لا تطلب المؤازرةَ من الأمريكان، بل تعرضُ عليهم مساعدتَك! تركتْ وقتاً ينصرم قبل أن تقول:

ـ هل تتخيّل، أنا في موسكو، وأنت في نيويورك، نتقاسَمُ العالَمَ الحُرَّ بيننا!

مكتبة ياسمين

اعترضَ عليها قائلاً:

ـ الاتحاد السّوفياتي والعالَم الحُرّ! يبدو لي أنّهما مُتعارضان.

ـ أأنت أيضاً تَعُدُّ الاتّحادَ السّوفياتي ديكتاتوريةً؟

ـ أنا لا، ولكنّ سْتالينَكِ، نعم!

ـ لا أريد أن أُفسِد هذه اللّحظةَ وأنا أخوض في حديث السياسة معكَ.

هل عَلِم أنّ كُتُبَ فرانتس قد حُظِرَتْ مؤخراً في أنحاء الرّايخ كافّة، وأُدْرِج كافكا في قائمة الكُتاب غيرِ المرغوب فيهم!

ـ نعم، مارتن بلومفيلد، وروبير ويلتش أُخْبِرا بجوابهما بعد عاميْن...

ـ ما هو؟

ـ سيستغرق الأمرُ وقتاً طويلاً للحديث عن هذا... عَرَّجا على ذِكْر أوتلا. الأخبارُ نادرةٌ، والأيّام في براغ تشهَد توالي حالات الحِداد. توفي هيرمان عام 1931، وقَضَتْ جولي نحْبَها بعده، وفقدتْ أوتلا ابنةَ أُختِها في ظروف أحسّتْ بأنّها مسؤولةٌ عنها. إنّها جَذْلى، بالطّبع، وهي ترى ابنتيْها تكبُران. لكنّهما يتّفقان، والحُزن يعروهُما، عندما يُطالعان ما تُضْمِرُه رسائلُها، فيشعُران أنّ شيئاً ما قد تحطَّم في دخيلة نفسها بالتّأكيد. يبدو أنّ التي جسّدتْ بهْجَةَ الحياة لم تَتَعافَ أبداً من وفاة شقيقها.

لَزِما صمتاً طويلاً بما هو وسيلة للاستغراق في التّأمُّل. قطعتْ صيحةُ قِرْدٍ من حديقة الحيوان هذا الصّمتَ، وجعلتهما يُقهقهان. طفِقا يستعيدان ذكريات الماضي، ويتذكّران كَم كان فرانتس سعيداً في برلين. تسْتذْكِرُ هدوءَ حدائق ستيجليتز، وغَلَيانَ شارعِ فريدريشتراس الذي لا ينتهي ـ «كُنّا نرتجف من شدّة البرد، ولم نكُن نُصيبُ من الطّعام ما يكْفينا، وانتهى الأمر بإيجار الشُّقّة الصّغيرة إلى أن يرتفع ارتفاعاً مهولاً. لكنّنا كُنّا نرتادُ المسرحَ، ونغْشى المقاهيَ نتناول فيها غداءَنا. لقد أحبَبْنا الحياةَ، وكُنّا عاشقيْن. حدث هذا كلُّه قبل ثلاثة عشر عاماً من الآن. أَيُمكننا أن نتخيّل اليومَ أنه كان من الممكن أن يكون هناك الكثيرُ من السّعادة في هذا العالَم؟».

وضعتْ يدَها على يَد روبير، وابتسمَتْ له. ينظران في عيْنَيْ بعضِهما. بدأ اللّيل يُقْبِل. وفرغ الجوقُ من العزْف، وأقْفَرَ الكشكُ من جُمهوره، وجَمَع الموسيقيون آلاتهم، وغادر آخرُ زبائن المقهى المكانَ، وأوصدتْ حديقةُ الحيوان أبوابَها. لا هِي ولا هو أفلحا في النّهوض. يخفق بينهما إحساسٌ مفادُه أنّهما لنْ يَرَيا بعضهما أبداً. كلاهُما يأبى أن يقول كلمة وداعاً. أزِفَتْ

ساعةُ الفراق. هو أوّل مَن يُغادر الطّاولةَ. تتعقّبه ببصرها بينما كان يمضي في اتجاه معاكس لذاك الذي يجب أن تسلكه. قامت بدورها. سارت في طريق محطّة الترام. بينما كانت تمشي، عادت إلى ذاكرتها قصيدةٌ لفرلين، كان فرانتس قد عرَّفها بِها. وأنشأتْ تُنْشِدُها في صمْت الغَسَق:

(في الحديقة القديمة الوحيدة والمُثَلَّجَة،

مَرّ منذ حين طَيْفان.

عيناهُما هامِدتان وشفتاهما رخْوَتان،

وتكادُ كلماتُهما لا تُسْمَعُ.

في الحديقة القديمة الوحيدة والمُثلّجَة،

خيالان يتذكّران الماضي...).

صيف 1936

دورا

حاوِلْ أن تتخيّل ـ إذا استطعْتَ ـ ما سأصِفُه لك من تأثير على الذين فَرّوا من ألمانيا وقوانين نورمبرغ. لقد امتطينا المترو، ومشيْنا نحو المسرح. على الجانب الآخر من الشارع يبرز في المقابل مبْنى كبيرٌ مكتوبٌ فوقه بأحرف عبرية زاهِيَةٍ: مسرح العُمّال اليهود. وكُتِب أعلاه قليلاً بأحرُف روسية صغيرة جدّاً: Yebraiske Gosudarstveni Teater، عَراني الذُّهولُ هناك، وأخذتْني الدّهشةُ مِمّا رأيتُ. أشخاصٌ ينحدرون من كلّ الأعراق، ويتحدّثون كلَّ اللُّغات، قدِموا لمُشاهدة الملك لير، باللّغة اليديشية.

توقّفتْ عن الكتابة ونظرت حولها. هل سُتُنتَزَعُ انتزاعاً عنيفاً من حُلمِها، جاءت طَرقاتٌ تَرُجُّ بابَها، وتنْهال كوابِلٍ على رأسِها، كانت تسمع: روس، روس! أغمضتْ عينيْها، وظلَّت حيناً من الوقت مُطْبقة الجفنيْن. كانت أصواتٌ مبتهجة وضحكاتُ أطفال تتردّد في الطّابق العُلوي، وتُسمَع من النافذة جَلَبَةُ الشوارع، وضجيجُ محرّكات السيّارات، وصريرُ إطارات الترام. لم يكذب الحزبُ، لقد كانت موسكو ملاذاً آمِناً. والحزب لا يكذب أبداً. وكانت *البرافدا* صوتَ الحقيقة الحَقَّة. لم يعُد هناك ما تخشاه. لقد كانت حياةً جديدةً طُهِّرَتْ من كلّ كراهية. كانت نهايةً للتّيه وللشَّقاء

وللمنْفى. وموسكو هي مُنْتَهى كُلِّ رِحلة. لقد انتُشِلَتْ أخيراً من غياهِب الجُبّ الذي كان بمثابة حياة المُعاناة التي قاستْها. لقد انضمّت انضماماً أبدياً إلى حزب العُمّال والأحلام المُمكنة.

كانت تتنزّه أمس في شارع نيكولسكايا، وعَبَرت حَيَّ كيتاي ـ جورود وبازاراته، حيث يمكن للمرء أن يرى، بين الأسطُح أبْراجَ الكرملين ترتفع من بعيد. لقد استسلمت لحركة الحُشود تقودُها، وهي تسير وسط محيط ينْبُض بالحياة، جنباً إلى جنب مع آلاف النّساء والرّجال كانوا يذهبون إلى العمل خافقي القُلوب.

في أوّل أمس، كان شارع تفيرسكايا، بمحالّه ومطاعمه وفندق باريس، حيث كان ستالين ـ كما أخبروها ـ يُحَيّي الجماهيرَ بمناسبة الأعياد الوطنية. توقّفتْ لتناول طعام الغداء في نُزلٍ صغير، وهناك لقاءَ خمسين كوبيلاً؛ تلذّذت بحساء اللّحم والملفوف وكأسٍ من شراب كِفاس. وغداً ستذهب إلى سوق سموكينسْكايا، وسوق خوروشيفو لتجارة السّقَط. وقد عزمتْ على أن تذهب في نزهة ذات يوم قريب مع ماريان إلى الغابة الفضّية، لتتأمّل سُطوحَ الدّاتْشا[1] عند غُروب الشمس.

لقد انصهرت في الجُموع. لم تعُد النَّظراتُ عدائيةً، وما عاد وجودُها يُذْكي الكراهيةَ، ولم يعد ثمّة آرِيون، أو يهود، أو أسيْاد، أو عبيد، إنّما هناك الشّعْب السّوفياتي. لم يكن يُعْتَدُّ بالأعْراق أو الأديان، بل كان جميع البشر سَواسيةً. ومن حولها كان كلُّ إخوتها من بني الإنسان يمضون بالخُطوة نفسها. وكانت تُؤثر من بين جميع وسائل النّقل الأخرى رُكوبَ المترو.

(1) ـ داتشا: منزل ريفيّ على مشارف مدينة كبيرة.

هل يمكن للمرء أن يتخيّل مثل هذا الإفراط في التّرف والعظمة والشّساعة. السّلالم المتحرّكة، والرُّخام في كلّ مكان! المرصود للعُمّال فقط؟ مَعْبَدٌ لِنَقْل البرولتاريا كُلّ يوم في ظروف ناعِمة ودافئةٍ. تأتّى كلُّ هذا من صَنيعِ ستالين ومَشيئتِه، الأب الصّغير للشّعْب!

كانت تستطيع رفْعَ رأسِها، لقد استعادت كبرياءَها. أرادت أن تُعانق المارّةَ، لِتشكُر كلّ واحد منهم على المجتمع الصّالح الذي شيّدوه. كانت تهمس بطرف شفتيْها «شُكراً! شكراً!» أمام كلّ وجْهٍ تُقابلُه. تضحك على الفور من إسْرافِها، لكنّها تستسلم ـ في اللّحظة المُوالية ـ لرغبتها في تجديد امْتِنانِها. كانت تخشى، أحياناً أن يحسبها النّاسُ مجنونةً من السّعادة، ونَشْوى من الفرح، ويتملّكُها هَوَسُ الحياة!

على طول شارع أربات، كانت قد أحجمتْ بصعوبة عن الرّكوع أمام رجل عجوز كان يمشي بهدوء على الرّصيف. لأنّها تيقّنت فجأة من خلال سترته المُوَشّاةِ بصَفٍّ من الأوسمة أنّه أحدُ أبطال ثورة أكتوبر، التي يُمكن أن تُعْرِب لها عن امْتنانها الأبديّ.

ستختلف في المساء إلى المسرح، وسترتدي لباساً يليق بهذه المناسبة. أرشدوها إلى متجر في شارع بتروفكا حيث يمكنها شراءُ قُبّعة، ومتجر آخر في شارع ستولشنيكوف تُباعُ فيه الفساتينُ. كانت سعيدة لمجرّد أنّها قاستْها، واثِقةً من أنّها ذات يوم ستُكافئُ نفسَها بفُستان. لم تكن في الحقيقة تُعير بالاً للملابس المُرقَّعَة، التي كانت ترتديها، فمَن كان يُعلّق هنا أيَّ أهميّةٍ على هذا الهُراء البورجوازي؟ اليوم، ما عاد هناك فقراء ولا أغنياء. لقد قضت الثورةُ على الفوارق الطبقية مثلما تغلّبت على الفقر. وكان المسرح في طليعة هذه المعركة، وكانت الثورة تخدُم الطّليعةَ المسرحيةَ.

أَلَم يقُل ماياكوفسكي الكبيرُ: «*الحزبُ يَدٌ بملايين الأصابع، مشدودة في قبْضَة واحدةٍ مُحطِّمَةٍ*»؟

كانت قد حضّرت الأسبوع الماضي لِعَرْضِ *(مؤامرة الأتقياء)*، وهي مسرحية لبولغاكوف، الذي كانت تعشق رواياته. لم يَخِبْ ظنُّها. وفي اليوم السابق كانت قد شاهدت في الأوبرا *(ليدي ماكبث من مقاطعة متسنسك)*، العمل الأخير لشوستاكوفيتش. ولم تُدرك مرامي النّقد العنيف الذي وجّهته له البرافدا، وما حدث لستالين، بحسب الناقد، من أنّه غادر العَرْضَ قبل نهايته.

وكتبتْ في الطّلب الذي قدّمته إلى اللّجنة المركزية لتُصبح عُضواً في الحزب: «*أتمنّى أن أُقبَل في الحزب البلشفي، لأنّني أرغب في أن أكون نافعةً بصفتي عُضواً نشيطاً في الحركة العمّالية من أجل بناء الاشتراكية. إنّني مَدينةٌ للحزب بتطوُّري، وتحرُّري الذّاتي*».

كانت تفكّر أيضاً في أن تغدُوَ من جديد مُمثّلةً كوميدية. وتنضمّ إلى فرقة مسرحية، وأن تتفرّغ إلى شَغَفِها الأوّل، وتنسى ماركس لحين من الوقت، وتَجْأَرَ بشكسبير. ألَم تكن المعركةُ قد انتهت؟ لقد كانت موسكو مَوْئِلاً لكلّ الغايات، وملاذاً للعدالة والمساواة، وملجأً للسّلام المُستعاد.

كلّ هذه السّنوات من النّضال، وكلّ هذه التّضحيات، وهؤلاء الرّفاق الذين قضوا نحْبَهم، والآخرون الذين سُجِنوا. كلُّ هذا لم يذهب سُدى. لقد كُنّا على حقّ، وفكّرْنا على نحوٍ قويم. أوه! كم كانت تودّ أن يرى فرانتس ذلك؟ لم يعُد العالَمُ مثلما وصفه في رواياته.

هذه الإنجازاتُ، وهذه النّجاحاتُ العجيبةُ، لم تكن بالطّبع مُمكنةً

إلّا بفضل تنظيم مُحكَم وفعّالٍ، وكان عليها منذ قُدومها أن تُجيب عن عدد من الأسئلة والاستجوابات وطَلبات التّوضيح من مسؤولي الدّولة. لا ينبغي لأَيّ تفصيل من تفاصيل حياتها، وأيٍّ شخصٍ من عائلتها ومن وَسطِها ووسَطِ عائلتها، ووسَطِ وسطِها؛ أنْ يَفلِت من الاِستجواب. نقَّبوا في ماضيها كما لو كان أدنى نشاطٍ كانت قد شاركتْ فيه، في برلين، في الخَلية رقم 218، في فرْع شارلوتبورغ في الحزب الشّيوعي الألماني؛ كان له أهمّيةٌ قُصوى. كانوا يُريدون معرفةَ كلّ شيءٍ عنها، مثلما نُريد أن نعرف كلّ شيء عن صديق جديد، وعن رغباته، وما يُؤثِرُ فعلَه، وإلى أين سيذهب في سَفَرِه... لقد عاملوها بوصفها حليفةً للشّعب السّوفياتي، ونصيرةً للثّورة. كان الأمر كما لو أنها ساهمت أيضاً في بِناء وطنِ الاشتراكية، بواسطة توزيع بعض المنشورات في شوارع برلين، وتنظيم الاجتماعات. كانوا يُولون أهمّيةً لأدّق التّفاصيل، نحو مقالٍ كانت قد كتبته، وشخص غريب صادفتْه. كان كلّ شيء يستحقّ تماماً أن نتوقّف عنده. كان عليها أن تبحث في أغْوار ذكرياتها، وتسْتذْكِر كلّ مُناضل التقتْ به، وكلَّ خطابٍ ألْقَتْه. ولم يكن لديها ـ لحُسن الحظّ ـ ما تُخْفيه، ولن يكون لديها أدْنى سِرٍّ من أجل الوطن الذي أنقذها. وكان عليها أن تكون ناكرةً للجميل، إلّا أنّ دورا ديامانت تُجسّد كلَّ شيءٍ ما عَدا نُكْرانَ الجَميلِ.

وقدّمتْ مرّة أخرى إلى الموظّف الذي استقبلها في مُلحقٍ بمَبْنى لوبيانكا جميعَ المعلومات التي كان من الممكن أن تُقدّمها. وسُرعان ما أدركتْ أنّ الرّجل يعرف عنها كلَّ شيء بالفعل. وما كان عليها تقريباً إلّا أن تحكُم بصحّةِ قِصَّةِ حياتِها الشخصية له. نعم، إنّها وُلِدَت في بولونيا، بِبابيانيس، وكانت في البداية زوجةً للدكتور فرانتس كافكا، ثمّ زوجة

ـ في زواجها الثاني ـ للودفيج لاسك، المعروف في الحزب في برلين باسم هانس آيلر، رئيس تحرير صحيفةِ *(داي روت فاهن)* لسانِ حالِ الحزب الشّيوعي الألماني. كانت لها ابنةٌ تبلُغ من العُمر ثلاثَ سنواتٍ اسمها ماريان. أُصيبتْ ماريان بالحُمّى القرمزية، وعانت من مُضاعفات في الكِلى، جَهِدَت في علاجِها مَشافي موسكو على الرغم من أنّها من بين أفضل المشافي في العالَم، انخرطتْ عام 1930 في الحزب الشيوعي الألماني.

ـ بل في نهاية 1929، أليس كذلك؟

ـ بلى، هذا هو، بالطّبع، ديسمبر 1929...

ـ من فضلك، كوني دقيقةً، منذ الآن فصاعداً!وعندما فرغتْ من قصّة حياتها، طلب منها الرّجل معلومات عن امرأة تُدْعَى لوتي كلينسمان، والتي لا بُدّ أنّها التقتْ بها في اجتماعات الحزب. لقد رَوَتْ كلَّ ما كانت تعرفه، وهو ليس بالأمر المُهمّ، لأن لوتي كلينسمان لم تكن في الواقع صديقةً حقّاً، إنّما تعرَّفَتْ إليها.

ـ لكن، لماذا ترغبون في معرفة كلّ هذا؟

ـ أنا مَن يطرح الأسئلةَ هُنا! أدركتْ في آخر الأمر أنّها كانت تعرف الكثيرَ عن هذه المرأة، تعرف عُنوانَها، ونوعَ سجائرِها، والمكانَ الذي كانت تشتري فيه ملابسَها، والسّاعةَ التي كانت تؤوب فيها إلى منزلها مساءً، ركامٌ هائلٌ من الأمور الأخرى التّافهة للغاية، ولكن يبْدو أنّ مجرّد ذكرِها يفْتِن المُحقِّقَ.

كان عليها بعد عدّة أسابيع أن تحضُرَ مقابلةً أخرى أمام مُحقّق آخر.

وكان لا بُدّ من أن تُجيب عن الأسئلة الأخرى التي كانت تعْنيها هذه المرّة على نحو مباشر. جاءت المعلوماتُ التي يتوفّر عليها المحقّقُ من ادّعاءاتٍ قدّمَها عُضوٌ قياديٌّ في الحزب الشيوعيّ البرلينيّ. ووجّه الرّجلُ اتّهاماتٍ خطيرةً إلى دورا. قال إنّ شُكوكاً تُساوِرُه حول صِدْقِ التزامها حيال الحزب، «شكوكٌ حول التزامي؟!». أكان من الخطأ أنّها قامتْ في عدّة مناسبات، خلال اجتماع الفَرْع، بِشَنّ هجمات افْترائيةٍ وخطيرةٍ للغاية ضدّ مبادئ الماركسية ـ اللّينينية ذاتِها، أو قامت بالأحرى بادّعاءات ضدّ ديكتاتورية البروليتاريا؟

قالت مذعورةً: ـ لا أتذكّر!

ـ «ستتذكّر من أجلك»، قال المُحقّق.

انتهى الأمر بالرّجل إلى أن طالَبَها باستئناف الحديث عن مسيرِها النّضالي منذ البداية. وعندما فرغَتْ، جَنَحَ إلى الصّمت، ثمّ أعادها إلى منزلها مؤكّداً لها بأنّها ستُبلغُ بمواصلة التّحقيق في القضية.

ـ «في قضية كلينسمان؟»، تساءلت.

ـ «في قضية دورا ـ لاسك ديامانت!»، أجاب.

وسُرعان ما فُصِلَ مجموعُ الأساتذة الأجانب عن الكُلّية، لأنّه اشتُبِه في أمْر مُعاداتهم للنّظام، ما داموا قبل نفيهم قد تغذّوا بالأفكار والتّصرّفات التروتسكية السّيّئة. وكان من بين المفصولين العديدُ من الشّيوعيّين الألمان، ومعظمهم من اليهود، وقد سُلّموا إلى السُّلطات النّازية. استطاع لوتس ـ مُراعاة لجميع الخدمات التي قدّمها ـ أن يبقى في الاتّحاد السّوفياتي، يخضع لرقابة صارمة على أفعاله وحركاته.

ولكن ذات صباح، في وقت مبكّر جدّاً، جاؤوا ليأخذوه. قصَدَ العُملاءُ أنّهم إنّما قَدِموا ليقْتادوه إلى مكاتب لوبيانكا. لم تقْلَق دورا، كانت تثق في الحزب. لقد كان لوتس مُخلِصاً دائماً، ولا شيء يمكن أن يُصيب لوتس، لا يستطيع الحزبُ أن يفعل شيئاً ضدّ لوتس، لا يرغب الحزب في إيذاء لوتس. يبحث الحزبُ عن الحقيقة، ولم يكن لدى لوتس لاسك ما يُخْفيه عن الحزب.

حدث، في نفس الفترة، ما أسْمَتْه أعمدةُ البرافدا وإزفيستيا (محاكمة الخمسة عشر). كان الأمر يتعلّق بالحُكم على قادة الحزب مِمَّن تبوّؤوا أسمى المناصب، ومنهم زينوفييف وكامينيف. مَن كان يتخيّل أنّ هذيْن البطليْن من أبطال الثورة ـ اللّذَيْن لم تعُد الصُّحُفُ تُسمّيهما إلّا باسميْهما الأصلِيَيْن، أبلبلوم وروزينفيلد ـ يمكنهما على هذا النّحو، ومع الكثير من الدّناءة، أنْ يُغرِّرا بالشّعب السّوفياتي، ويخْدَعا المُثُلَ العُليا، ويُعرّضا مستقبَلَ الاشتراكية للخطر! أُدينوا بالخيانة العُظمى، وحُكِم عليهم بالإعدام رمْياً بالرّصاص في اليوم التالي للحُكم، 25 ـ أغسطس ـ 1936.

لقد أحْزن دورا نَبَأُ إعدامهم بالطّبع. ولكن على الرغم من أنّ كامينيف كان رئيساً عظيماً لمجلس السوفيات الأعلى، وأنّ زينوفييف قاد الكومنترن ببراعة، أَلَمْ يكن المرءُ مُحِقّاً وهو يُؤكّد مع ستالين أنّهما يستأهلان العقوبةَ القُصوى؟

وإذا كانت دورا قد ارتأت أن تُغادر موسكو لتُقيم في سيباستوبول، فإن الحافز على ذلك لم يكن هو أجواء الوشاية، وفَيْض التّشهير الحقيقي الذي استولى على العاصمة. لم تكن لتهرُب بأيّ حال من الأحوال. ذهبت

إلى شواطئ البحر الأسود لتَنْعَم ماريان بمناخ معتدل، وهو المناخ الوحيد القادر على علاج مرض الكِلى الذي تُعاني منه.

وكانت تدرك كلّ الإدراك، مثل جميع السّكان السّوفيات، أنّ النّظام كان لا بُدّ له من تطهير نفسه من كلّ عُنصر مُعادٍ له في سبيل إعطاء زَخَمٍ جديد للثورة. ولم يكن التّبليغُ ذميماً في حدّ ذاته، إنّما هو وسيلة للإجابة الصّحيحة عن الأسئلة المطروحة عليك. إنّه أَمارةٌ بسيطةٌ على الطّاعة. كان التّبليغُ أيضاً شرْطاً للحقيقة. إنّ عدم التّبليغ عن رفيق مُذنب، أو عن أخيه، أو زوجته، أو أبيه؛ يعْني خيانةَ الحزب، وبطريقة ما خيانةَ الرّفيق والأخ والزّوجة والأب.

عندما شرع الرّفيق يوري كورولوف، المُحقّقُ من الدّرجة الثانية في المبنى الملحق بلوبيانكا؛ يستجوبُ، فكّر في ذلك الصّباح كيما يتحلّى بالشّجاعة، فقال: «الدّودةُ موجودةٌ في كلّ فاكهة». كان الأمر يتعلّق بسماع دورا ـ لاسك ديامانت وهي تشرح تصرّفاتها الشّائنة المُضادّة للثّورة. أمّا الزوجُ لوتس لاسك، وهو خائن اشتراكي آخر، ينتمي إلى الحزب الشيوعي الألماني، فَلَم يعترفْ بأيِّ عَمَل من أعمال الخيانة التي أُدين بها، على الرغم من الأعباء الفادحة التي يَنوءُ بها كاهلُه، ومن وشايات أعزّ أصدقائه به. ومع ذلك، كان المحقّق الرّئيس سيرجي كاتاييف هو الذي أجرى الاستجواب. وكان يوري كورولوف معجَباً على نحو خاص بقدرة المُتّهَم على الحفاظ على إيمانه بالاشتراكية كاملاً، والسّكوت عن تصرّفاته المُسيئة على الرغم من الضّرب المبرّح الذي تعرّض له.

هذا الصباح، كان يوري وحده يُجْري التّحقيقات، وكانت تعليماتُ كاتاييف بسيطةً: لا بُدّ له من أن يحصُل على اعترافات من المرأة الشّابّة.

كانت هناك تُهَمٌ عديدة ضدّ دورا لاسك ـ ديامانت. ومنها في المقام الأوّل أنّها كانت عُضواً في الحزب الشيوعي الألماني. ولم يكن هذا الحزب محبوباً في لوبيانكا. كان الحزب الشيوعي الألماني وَكْراً للتروتسكيين يُديرُه جُبناءُ كانوا قد فَرّوا من النّازية، واستُقبِلوا استقبال الأُمراء، وأُنزِلوا بالمباني الجديدة في الشارع الكبير جنيزديكوفسكي، عندما لم يكن يُسمَحُ ليوري كورولوف، مثل معظم زملائه في مفوضية الشّعب للشؤون الداخلية، مع عائلته برمّتها؛ سوى بغُرفةٍ مساحتها اثنان وثلاثون متراً مربّعاً، تضُمُّ ستّة أفراد، من دون احتساب الفئران التي رآها يوري تنسرِب أسفل الجدران مُحدِثَة فرقعةً، كان الأمر مثل قرقعةٍ لَعينَةٍ تُرعِب المرأة والأطفالَ. لكنّ الرّصاصة كانت ناجعةً ضدّ هذه الحيوانات القذرة، وكان يوري يسخر مِمّا ظلّ المجلس المحلّي يقوله عن وجود أساليب أكثر لُطفاً ضدّ الجرذان والفئران. أمّا يوري فلم يكن أبداً مُؤيّداً للأسلوب اللّطيف.

ولحُسن الحظّ فإنّ العُصبة التروتسكية ـ الفاشية التّابعةَ للحزب الشّيوعي الألماني، لم تعُد تحتلّ المباني الحديثة في شارع جنيزديكوفسكي الكبير. وحُكِم على معظمهم بأحكام مُشدَّدة، بل بالعقوبة القُصوى.

العنصر الثاني في الادّعاء، هو أنّ دورا ديامانت كانت أجنبية، فضلاً عن كونها بولندية. والقوْمُ في موسكو لا يُحبّون البولنديين، مثلما لا يُحبّون أعضاءَ الحزب الشيوعي الألماني. ثالثاً، من هو مُدَّعي النّظام العامّ الذي سيكون فاقِد الحِسّ حيال أُصول دورا اليهودية؟ لم يكن يوري يعرف أيّاً منهم. لعلّ أبيلباوم وروزنفيلد يشهدان بذلك من دوائر الجحيم التي لا بُدّ أنّهما يتعفّنان فيها الآن.

وكان كبار القادة السابقين في الحزب الشيوعي الألماني، الذين قُتِل

جُلُّهم رمْياً بالرّصاص، في هذا اليوم، قد اتَّهَموا دورا لاسك ـ ديامانت بالقيام بمكائد مُضادّة للثّورة. وما ينبغي أن يكون الأمر مُعقّداً للغاية بالنسبة إلى يوري لانتزاع اعترافات من دون أن يتعارض مع مبادئه التي تأْبى عليه ضَرْبَ امرأةٍ، حتى لو كانت تروتسكية، وبولندية، ويهودية.

ولا تزال إدانةُ لوتس لاسك مجهولةً. لقد راهن يوري على إدانته بخمس سنوات حبْساً، عندما كان سيرجي كاتاييف يُرَجِّح احتمالَ إعدامه. كان سيرجي يتحدّث وقد انتابته سوْرَةُ الغضب، لأنّه لم يستطع أن ينتزع أدْنى اعترافٍ من لوتس لاسك على وسائل التّعذيب المُتاحة له، وقد يعتبر رُؤساؤه مثلَ هذا الفشل بمثابة خطأ مهْنِي. لكنّ يوري لم يكن يعتقد إطلاقاً في أنْ يُحكَم عليه بالإعدام. فمن ناحية، لا تصدُر عقوبةُ الإعدام إلّا بعد الحصول على الِاعترافات، ومن هنا تنبُع أهمّيةُ انتزاعها. ومن ناحية أخرى كانوا يتردّدون في إعدام الأجانب رمْياً بالرّصاص، خَشيةَ رُدود الفعل العدائية من البلد الأصلي. وجد يوري هذا الأمر مثيراً للضحك. فهل يُعتقَد في حالة لوتس لاسك ـ على سبيل المثال ـ أنّ نظام هتلر سيشتكي من إعدام يهوديّ؟ لو حدث هذا لكان من الممكن أن ينقلب العالَم رأساً على عقب.

كان قد راهن على خمس سنوات، بيْد أنّ هذا الحُكم قد يبلُغ في الواقع عشرين سنة. ما القاعدة المعمولُ بها في هذا الشّأن؟ مَن الذي وضع نظامَ العقوبات، وبحسب أيّة معايير؟ كان يوري في قرارة نفسه يأسف على غياب أيّ قواعد دقيقة. يحدُثُ الأمر جُزافاً بغير تبصُّرٍ أو قاعدة. وكان يتساءل أحياناً: فِيمَ هذه الاستجوابات؟ لماذا لا يُعْدَم الجُناة رمْياً بالرّصاص بِلا مُحاكمة؟ لماذا إذن يُنفق المرءُ كلَّ هذه السّاعات يُمحِّص المِلفّات ويُدقّق فيها، ويُضْني نفسَه في وضْع قائمة لعناصر الاتهام، واختيار أسئلتك بعناية،

والانتظار عبثاً للحصول على الإجابات الصّحيحة، وتستشيط، وتضرب بقبضتك على الطّاولة، وتصْفَع، وتضرب، وتخْبِط حتى يُراقَ الدَّمُ، وتَجْلِد، وتستعمل أُسلوبَ التّعذيب بالماء، وبالكهرباء، وبالمَلاقِط، ومُكابدة النُّواح، وصرخات الألم، والتّوسُّلات، وسَيَلان الدّم بغزارة، وتكسير العِظام، ورائحة البوْل، والقَيْء، والغائطِ، وتَكْظِم قَرَفَك في اللّحظة التي تُطهِّر فيها أرضيةَ الشخص المُعذّب فاقدِ الوعي، تُنظّف حَمّامَ الدّم والغائط والبوْل والقيء، قبل قُدوم مُذنبٍ آخر؟ لماذا نحْتَمِل هذه العَذابات، وهذه الهُموم، وهذه المُضايقات، وهذه الموانِع، ونفرض هذه الِاعتراضات، وهذه النّقاشات المُملّة التي لا تنتهي، وهذه العرقلة المُتعمّدَةُ لِسَيْر العدالة والتقدّم، إذا لم تكن توجَد، في النّهاية، أيُّ قاعدةٍ؟ اطْمأنّ وهو يقول في نفسه إنّه مهْما كان الحكمُ الصّادرُ، أكان خفيفاً ومؤقّتاً، فإن الاعتقال في معسكر العمل بكوليما؛ يعني في الحقيقة عقوبةَ الإعدام. كانت تلك هي القاعدة بلاشكّ.

كان يوري كورولوف قد حاز على لقب محقّق من الدرجة الثانية، أيْ ما يُعادل رُتبةَ مُلازم. وكان حُلمُه أن يغْدُوَ محقّقاً رئيساً، وأنْ يبلُغ سُمُوَّ مرتبة كاتاييف، الرّجلِ الذي لقّنه كلَّ شيء، مُعلِّمِه وقُدوتِه. كان يوري قد خاض تجربتَه الأولى في التّحقيق أثناء محاكمة الكاتب أوسيب ماندلشتام، الذي أُلقِي القبضُ عليه بتهمة التّشهير بستالين في قصيدةٍ؛ لا يزال يوري صاحب الرّوح الحسّاسة التي تثْوي خلْف هيئته الفظّة يتذكّر تماماً حتى اليوم بدايتَها المُقْرِفَة:

أصابعُه الغليظةُ دهنيةٌ مثل الدّيدان

كلماتُه فصيحةٌ وثقيلةٌ كعيار الميزان(1)

---

(1) ـ ترجمة جودة هوشيار، موقع الجسرة الثقافي.

وكان أوسيب ماندلشتام يقْبَع اليوم في السجن. غير أن الكاتب بوريس باسترناك كان قد تدخّل لصالحه عند القائد الأعلى. وكان يوري كورولوف مقتنعاً أنّ هذا الكلبَ المدعو ماندلشتام سيخرج ذات يوم حَيّاً طليقاً. الكُتّاب، ككُلّ الأوباش المثقّفين، يشدّون أَزْرَ بعضهم.

في فبراير 1935، كان يوري أيضاً قد كُلّفَ شخصياً باستجواب نائب مدير *(القاموس الموسوعي الألماني - الرّوسي الكبير)*، وهو موئل الأعضاء السابقين في الحزب الشيوعي الألماني. وكان قد حُكِم على نائب المدير بالإعدام مع معظم مُحرّري *(القاموس)* الآخرين، مِمّا أكسب يوري رُتبةَ مُحقّقٍ من الدرجة الثانية. لكن ذلك لم يكن يخلو من الصّعوبات، فقد عارض العقيد جريدانوف هذه الترقيةَ بحُجّة أنّ نائب المدير لم يتمكّن بعد الاستجواب من التّوقيع على اعترافاته، نظراً لِتعذُّر نقْلِه. وكان لا بُدّ من إعدامه في زنزانته خلافاً للتّوصيات المعمول بها. «لقد مَرَّغَ كورولوف سُمعةَ التشيكا[1] بأكملِها» كما قال العقيد جريدانوف. ومن حسن حظّه أن كاتاييف سَخر من رأي العقيد جريدانوف. كانت سُمعة مُحقّقي تشيكا في اعتقاده راسِخةً متجذّرةً.

كان يوري قد أنفق اليومَ السابقَ للاِستجواب في فحْص وتدقيق ملفّ دورا لاسك - ديامانت. كانت كلُّ صفحة تُرهِق كاهلَ دورا. فعلاوة على جريمة كونها زوجةً لرجل تروتسكي، والإدْلاء مراراً وتَكراراً بأحاديث تتعارض مع العقيدة السوفياتية؛ فقد كانت قبل خمسة عشر عاماً زوجةَ كاتبٍ بورجوازي من براغ، يُدعى فرانتس كافكا. وطّد يوري العزمَ على

(1) - تشيكا: الشرّطة المكلّفة بمكافحة الثورة المُضادّة والتّخريب في روسيا السوفياتية، أُسّست بتاريخ 20 - ديسمبر - 1920.

تركيز استجوابه على هذه التّهمة الأخيرة. وكان يأمل في إثبات أنّ دورا لاسك ـ ديامانت ما انفكّت تُذيعُ اليوم أعمالَ الكاتب البورجوازي فرانتس كافكا في الاتحاد السوفياتي.

كان الملفّ أمام ناظريه يشمل رُزمةً من الأرشيفات المتعلّقة بالكاتب البورجوازي، والتي ينبغي أن تكون كافيةً للغاية لإفْحامِ الجانيةِ. كان مفهوم الدّليل عَرَضِياً. العدالةُ لا تستوجب الدّليلَ، إنّما تُطالب بالِاعتراف فحسب، تقتضي تعاونَ الجاني. الِاعترافات تضَعُ حدّاً للعُنف. فَفيمَ الإصرارُ على الخطأ إذن، فِيمَ التشبّثُ بإطالة الجلسات المُؤلمة للجميع؟ ألَم يكن من الأنسب أن تُذْعِن لجلّادك وتُصادِقه؟ بيْد أنّ الِاعترافات لم تكُن لِتُطْلَبَ من أجل مُتعة التّعذيب فحسب، بل إن الِاعترافات تكفُلُ عدالةَ الحُكْم، وتشهَد على أنّ الإعدام أو الحُكمَ بالأعمال الشّاقّة كانا مُناسبيْن. تضْمَن الِاعترافاتُ انتصارَ القانون والحِياد والنّزاهة والِاستقامة. ولم تكن العدالة هي الجلّاد من ناحية، والجاني من ناحية أخرى. يستطيع المحقّق والمُتَّهَم أنْ يتلاقَيا ويتضامنا، ويُوحِّدا جهدَيهما وقناعاتهما المتبادلة باسم مصلحة عُليا مفهومة تماماً. تُرسِّخ الِاعترافاتُ هذا التّلاقي.

لم يكن يوري يتأخّر أبداً كلّما حصل على التوقيع في أسفل لائحة الاتّهام، فكان يسمح للجاني بمغادرة غرفة التّحقيق، حتى لو كان إخراجه من الغرفة يتطلّب في معظم الأحيان عدّةَ أشخاص. فبخلاف العديد من زملائه في مفوضية الشّعب للشؤون الداخلية، كان يحرص على إظهار الإنسانية في مزاولة مهمّاته، ويعدُّها مسألةً ترتبط بالشّرف. ألَسنا نُعذّب ونُعْدِم باسم الإنسانية والقانون والعدالة؟

لكن كان يحدث أنّ الجاني بدافع حقْدٍ مجهول على الثورة، يستمتع

استمتاعاً خبيثاً بعرقلة مسير العدالة، فكان ـ أو كانت ـ يُصِرّ على رفضه ويتصلّب ويتمرّد. كان استجواب بسيط يتحوّل عندئذ إلى جلسة مؤلمة من العُنف الجسدي، ويغدو المحقّقُ الهادئُ مُضطهِداً ميّالاً للثّأر، والمُتّهَم يصير شخصاً مُعذَّباً. لم يكن يوري أو أيٌّ من زملائه من تشيكا؛ يستطيع إغلاقَ الملفّ، أو العودةَ إلى البيت في ساعة معقولة، أو ينْعَم بوجوده في حِضْن عائلته، أو النّومَ وهو يشعر أنّه أدّى الواجبَ. فحتى لو أُكْرِه عُملاءُ مفوضية الشعب للشؤون الداخلية على إعدام السُّجناء السياسيين في أقْبية لوبيانكا، أَلَم يكونوا أشخاصاً كالآخرين، ألا تعروهم مشاعر التَّرَح والفَرَح، ألا يملكون روحاً حسّاسةً تُشبه أرواحَ الأشخاص الآخرين، وقَلْباً ينْزِفُ عندما كانوا يوسِعون أعداءَ الثورة ضَرْباً؟

كان يحدث أحياناً أنّ يوري ـ بعد استجواب شاقّ أكثر من المعتاد ـ يؤوب إلى بيته مُفعَماً بالأسئلة والشّكوك. تساءل مرعوباً: إذا كان الناس كافة مُذنبين، وإذا لم يكن أحدٌ على وجه هذه البسيطة يستطيع أن يتباهى بأنّه لم يخُن الحزبَ ولو ليومٍ واحد، فهل كان هو نفسه، يوري كورولوف، مُتيقّناً من أنّه بريءٌ براءةَ النّفوس النّقية؟ أَلَم ينطق أو حتى تخطر في باله فكرةُ تدْنيسٍ؟ أَلَم يتوهّم أنّ ستالين، في بعض اللّيالي؛ كان يقف بجانب سريره، يُحدّق إليه بنظرته الجميلة والقاتمة والمُتَّهِمَة؟ كان ستالين يُراقبه، ويحرص على أنّ يوري لم يكن لديه شعورٌ عدائيّ إزاء النّظام حتى وهو نائم، بحيث إنّ يوري كان مقتنعاً أحياناً أنّ ستالين قادرٌ على أنْ يتسلّل إليه وهو في سبات عميق. وكانت إحدى أعظم انتصارات البلشفية عند يوري؛ هي ألّا تسمح لأيّ شخصٍ أن يحْمِلَ أيَّ مُعتقَدٍ جِنائيٍّ حتى في قرارة أحلامه.

في ذلك اليوم بدأ يوري صباحه بمزاج رائق، كان سعيداً وهو يتحادث مع زوجة كاتب، مهما كان كاتباً بورجوازياً. وكان يتباهى بصفته قارئاً كبيراً شغوفاً بالأدب. كان يلتهم غوغول وديستويفسكي وتولستوي لمّا كان مُراهقاً، شأنه شأن أيِّ شخصٍ آخر. ويستطيع أن يروي من حافظته عدداً من قصائد بوشكين. وكان يُؤثر منها قصيدة (الخريف). أمّا اليوم، فقد دالَ الأمرُ لغوركي، كانوا يُردّدون أنّ مكسيم العظيم سَما بالاتحاد السوفياتي وبزعيمه أكثر من أيّ شخص آخر. ويحسب يوري أنّ آثار تولستوي الأدبية تجسّد امتداداً حقيقياً للفكر الماركسي. أَلَمْ يكتب هذا العملاق: «*لدراسةِ قوانين التاريخ؛ على المرء أن يَضع جانباً الملوكَ والوزراءَ والجنرالات، ويُركِّز اهتمامَه على النّقاط الصّغيرة للغاية التي تُوجِّه الجماهير؟*».

إلّا أنّه بات يقرأ أقلّ مع تقدّمه في السّنّ. يذهب الناسُ اليومَ إلى السينما. وكان قد شاهد الأسبوع الماضي أحدثَ شريط للمخرج غريغوري ألكساندروف، الذي ذكَّرتْه بطلتُه التي أدّت دورَها الفاتنة ليوبوف أورلوفا؛ بزوجته أولْغا عندما كانت في عُنفوان الشّباب. كانت أوّل ملهاة موسيقية سوفياتية! وكان ستالين باعثَها. لقد تجاوزت هذه التُّحفةُ الفنّيةُ الخالصة بكثير كلّ التُّرّهات العاطفية التي أنتجها الرّأسماليون اليانكيون. كانت هوليود على شفا حُفرة من الهزيمة، وكانت الرأسمالية على وشْك الهزيمة. كانت مسألةَ وقت فحسب.

لم يكن يوري قد قرأ أيَّ شيء للكاتب كافكا، البورجوازي والمُضادّ للثّورة. لم يكن من حيث المبدأ يَقرأ أيَّ كاتب أجنبيّ. أَلَم تكن قراءةُ مؤلِّفٍ أجنبيّ إهانةً للأدب الرّوسيّ، واعتقاداً بأنّ الرّوح الرّوسيةَ عاجزةٌ عن التّعبير

عن كلّ الأشياء؟ عندما كان لدينا ديستويفسكي وغوغول، أكُنّا نحتاج لإِهْدار وقتِنا في قراءة ديكنز؟ لن يمتلك أيُّ أجنبيّ الرّوحَ الرّوسيةَ على الإطلاق، لقد كانت هذه هي الحقيقة الصّائبة! من هُنا نقول إنّ الأجانب لا روح لهم. كان يوري قد قرّر أخيراً القيامَ بخطوة وهو مبتهج.

لم يكن كافكا كاتباً أجنبياً فحسب، بل كان كذلك كاتباً بورجوازياً على نحو خاص. هذا على الأقل ما كان يُوضّحه الأرشيفُ. وحتى لو شاء يوري مع ذلك أن يُناقِض مبادئه، وينْحَطَّ إلى قراءة مؤلِّف أجنبي، فإنه لن يستطيع ذلك: لأنّ كافكا لم يُترجَم بعد إلى الروسية. هل كان كُتّاب المقالات الذين عَدُّوا كافكا كاتباً بورجوازياً قد قرؤوه؟ هناك فُرَصٌ ضئيلةٌ لحُدوث ذلك. وهل من الواجب قراءةُ كاتبٍ لإدراك أفكاره؟ لا يُقيمُ فكرُ كاتبٍ بورجوازي في كُتبِه، بل في أُصولِه.

جلستْ دورا لاسك ـ ديامانت قبالته مُنحنِيةً وملامح التّعب بادية على جسدها، وقد خَبا بريقُ نظرتِها. كانت تبْدو، منذ استجوابها الأوّل قبل ستة أشهر؛ كأنّها شاخت على نحو رهيب. وما عاد مُحيّاها يَشي بأيّ أمارة من أمارات الجسارة. وبدا له أنها كانت تضع في المرّة الأخيرة أحمرَ الشِّفاه على شفتيْها، أمّا ثغرُها في هذا الصباح فكان مُعتَلّاً، ذا لوْنٍ ورْدِيٍّ شاحبٍ. لماذا تكْسو هذه الهيئةُ الحزينةُ مُحيّاك الفاتن يا دورا؟ أبِسبب ما يُشاعُ عن لوتس لاسك أنّه في طريقه إلى الكوليما؟ ادّخِري حُزنَك، وكَفْكِفِي دمْعَك، فإنّما حياتُك على المِحَكّ في هذه اللّحظة.

أوضح يوري على سبيل التقديم:

ـ سيتعلّق سؤالي الأولُ ـ أيتها الرّفيقة دورا لاسك ـ ديامانت ـ

برفيقك الأوّل. أودّ أن أعرف لماذا في رأيكِ لم يُترجَم فرانتس كافكا إلى اللغة الروسية. لماذا لم يُترجَم إلى الروسية بينما تُرجِم في عدّة بُلدان؟ أتعتقدين أنّ لُغتنا لا ترْقى إلى مستوى كتاباته، وأنّها لا تستطيع أن تلتقط دقّةَ أفكاره؟ أمن الممكن أنّ صفْوَة المجتمع برمّتها قد فاتها أمْرُ آثار زوجك، ولم يأخذوها بعين الإِعتبار؟ تتحدّث بعض المقالات التي في حوزتي عن النّبيّ الرّائي، وأخرى عن روائيّ الخلاص، وتتحدّث مقالاتٌ أخرى عن روائيّ الجَمال، وروائيّ القلق، وروائيّ العبث، وتجرؤ أخرى على مقارنته بديستويفسكي! أَنْبئيني بالحقيقة! إلى أيّ معسكر تنتمي شخصياتُه، أمُعسكر الخير أم معسكر الثورة المضادّة؟ كيف تتعامل رواياتُه مع الطبقة العاملة؟ أتفْتَري على ثورة أكتوبر أمْ تُعظِّمُها كما يجب، هل يذكُرُ الفلّاحين الكولخوز؟ هل كافكا رَجْعِيٌّ لا وطن له، كاتب لا صلة تربطه بالبروليتاريا، من أتباع كيرينسْكي[1]، ومن المناشفة؟ هل امتدح عظمةَ الشعب السوفياتي وتسامُحَ زعيمِه؟ هل هو العَدَمِي كما يُقال؟ أيُتيح لنا عملُه الأدبي تمجيدَ شخصية ستالين فقط، أمَلِ الشّعوب كافة، ونورِ حياتنا؟ أم أنه ينحاز إلى هذه الكلاب المسعورة من التروتسكيين، ويقف في صفّ الكولاك[2] والبيض[3]؟ ما المعنى الخَفي في أعماله الأدبية؟ لا ينبغي أن يظلّ أيُّ شيء غامضاً، أنتِ تعرفين ذلك. أنبئيني إذا كان كافكا ذا صلة بالأدب الواقعي الاشتراكي. أخبريني إذا كان جوزيف ستالين يستطيع أن يُحبّ كُتبَه، وكذلك تلامذة كومْسومول، والقرويون الكولخوز، وأبناء

---

(1) ـ نسبة إلى ألكسندر كيرينسكي

(2) ـ كولاك: فئة من المزارعين الأغنياء.

(3) ـ البيض: الروس البيض يناهضون البولشفية والشيوعية في روسيا، ويناصرون عودة القيصر والإمبراطورية الروسية.

الوطن الأماجد، وأُمّهات الوطن البطلات، ومُفوِّضو شعبنا، ومدّعينا العامّ فيشينسكي المِقدام.

توقّفَ، جفّف عَرَقَه، وشرب كأساً جَرعةً واحدةً، وظنّ أنه قد تقدّم في السنّ بحيث لم يعُد مثلُ هذا العمل يُناسبه. ثمّ تابع:

ـ تحدّثي الآن، لأنّكِ أنتِ مَن تكفُلين كافكا أمام التاريخ، وأمام الشّعب السوفيتي! وما هي إلّا لحظة حتى أعلنت دورا وهي تحدّق في عينيْ الرّجل:

ـ لم أفهم دلالةَ أسئلتِك.

كظم يوري غيظه الذي كان يَصّاعَدُ في دخيلة نفسه، وكَبَح جِماحَ رغبته في جَعْل قبضتِه تنْقَضُّ على خَدِّ المرأة الشّابّة، وأعلن:

ـ ينبغي لي إذن أن أقرأ عليك التّوطئةَ المخصّصَةَ لكافكا في *(الموسوعة الأدبية)* لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي، كيما تتمكّنين من تقْدير ما يَعيبُه أقطابُ الأدبِ الكبارُ على كتابات زوجك الأوّل. تناول الصفحةَ الأولى من الملفّ الذي أمامه، وضبط نظّارتيْه على أنفه، وطفق يقرأ:

ـ *«كافكا، فرانتس، 1883 ـ 1926، مِثالٌ بارزٌ لجماعة براغ من الكتّاب الألمان (ماكس برود، غوستاف ميرينك، إلخ).*

قالت بصوت متردّد:

ـ اسمحْ لي، لكنّ فرانس مات عام 1924.

نظر إليها شَزْراً، وصرخ:

ـ مَن أنتِ حتى تُشكّكي في إثباتات الموسوعة الأدبية لأكاديمية العلوم

في الاتحاد السوفياتي! أتظنّين أنّك تعرفين أكثر من أكاديميٍّ سوفياتيٍّ؟ إذا كُتِب أنّ كافكا مات عام 1926، فهذا يعني أنه مات عام 1926. أمّا الباقي فهو مجرّد تعديل بورجوازيٍّ. من الآن فصاعداً لا تُقاطعيني مرّة أخرى من فضلك. أُواصلُ:

«كتب كافكا ثلاثة مجلّدات من الروايات والقصص القصيرة، أبرزها غير مكتملة جزئياً، ولم تُنشَر إلّا بعد وفاته (تحت إشراف ماكس برود).

ترتبط رواية (التحوّل) بأعمال كافكا الأولى، حيث كان بطلُها شخصاً وحيداً للغاية. بعد ذلك سيطرح كافكا مشكلةَ العُزلة على نحو أكثر واقعية. وهكذا، فإنّ عُزلة البطل في (المُحاكمة) تتحدّد من خلال وضعه كمُتَّهَمٍ، وفي (القلعة) من خلال كونه أجنبياً، وتتحدّد أخيراً في (أمريكا) باعتباره مُراهقاً غِرّاً لا تجربة له، تُرِكَ لوحده لا مُرْشِد له في ظلّ الظروف المعيشية العسيرة التي تشهدها أمريكا المُعاصرة.

يُقدّم كافكا التّعارُض بين الشخص الوحيد والعالَم المحيط به، على نحو يحمِل الشخصَ الوحيدَ على الإذْعان لضغوط البيئة.

يتجلّى النّفيُ المتشائمُ للواقع عند كافكا، خاصة، في أن الشخصية الأكثر موهبةً تَفْنى، وفي أنّ البيئة البورجوازية الصغيرة المحدودة والبليدة؛ تتنصر.

بمُستطاعنا أن نَعُدَّ كافكا لسانَ حالِ الأيديولوجية النفسية لطبقة متهافتةٍ، أو على نحو أكثر دقّة؛ لشريحة اجتماعية تُناهِض طبقتَها الخاصّةَ. إنّه يُجسّد الإنتلجنسيا البورجوازية الصّغيرة».

توقّف، وأعاد الورقة إلى الملفّ بعناية، قبل أن يُعلن:

ـ أسمعْتِ الخاتمةَ؟ «*يجسّد الإنتلجنسيا البورجوازية الصغيرة*». أتُدركين جيّداً، لو ارتُكِبَت جريمةٌ كهذه لكان كافكا قد وقع في أيدي مفوضية الشعب للشؤون الداخلية؟

ـ تتمتّعون بقُدرات كثيرة، لكنّكم لا تقدرون على اغتيال مَيِّتٍ.

ـ من فضلك، لا تستهيني بمفوضية الشعب للشؤون الداخلية! أنشأتْ هذه المرّةَ تُضايقُه بشكل عجيب. لقد سَئِم الكُتّابَ والصحفيين والمثقّفين. وكان يُؤثر العُلماءَ والأطبّاء الذين شُرِع في اعتقالهم لأسباب مختلفة، والذين فوجِئوا بحطّهم الرّحالَ في هذا المكان، لدرجة أنّهم لا يصطنعون بهرجةً كبيرة في شأن التّوقيع على اعترافاتهم، في حين أنّ عناصر الإنتلجنسيا المُتمرّسين بالمناقشات، والخُبراء في المُجادلات؛ يُماحِكون إلى ما لا نهاية.

تابعَ:

ـ ما اعتراضاتُك إذن على كلام أكاديمية العلوم في شأن زوجك الأوّل؟

ـ يبدو لي...

قال بطريقة عفوية إلى حدّ ما:

ـ يبدو لكِ؟ أتشُكّين سَلَفاً؟

ـ يبدو لي أنّ هناك عدّة قراءات مُحتملَة للأثر الأدبيّ نفسه.

ـ أتُريدين القولَ إنّ أكاديمية العلوم السوفياتية لا تقول الحقيقة؟ أتزعمين أنّ ممارسة النقد الأدبيّ التي ينبَري لها أعضاؤُها المُبجَّلون؛ ليستْ عِلْماً دقيقاً؟

ـ الأكاديميةُ تقول حقيقةً، إنّها تقول حقيقتَها *الخاصّة بها*.

ـ تحسبين إذن أنّ هناك حقائقَ عدّةً! إنّك تُنْكِرين على أكاديمية العلوم السوفياتية فِعْلَها، وأُذكِّرُكِ أنّ مُدّعينا العامّ المُوَقَّر فيشينسكي هو أحد مُوَجِّهيها! إنّ كلاماً كهذا يمكن أن يُكلّفَكِ الكثيرَ، وأنا أُفضّل أنْ لا أُدَوِّنه. لِنَمْضِ قُدماً، وإلّا لن نبرح مكانَنا حتى الغَدِ. لذا لخّصي لي أحَدَ كُتُبِ زوجك الأوّل، حتى أحصُلَ على فكرة عنه. إذا قرأتُ جيّداً توطئةَ أكاديميتنا، فإنّ الأمر يتعلّق بثلاث روايات، *(أمريكا)*، و *(القلعة)* و...

ـ *(المحاكمة)*. لم يستطع مَنْعَ نفسِه من أن يبتسم، قبل أن يستأنف بفُضول:

ـ حسناً، لنتحدّث إذاً عن *(المحاكمة)*، اِحْكي قصّةَ *(المحاكمة)*.

ـ قصّة *(المحاكمة)*؟

ـ نعم، هل روايات كافكا تحكي بالفعل قصّةً؟

ـ من زاوية ما، نعم. غير أن الدّلالة العميقة لأثره الأدبيّ وقُوّةَ فنِّه تكمُن في مكان آخر.

ـ لا يعْنيني أمرُ الدّلالة العميقة! اِحْكي!

ـ حسناً، يتعلّق الأمرُ بشخص...

ـ ما اسمُ هذا الشخص؟

ـ جوزيف...

ـ آه، إنّك تَسْحَرينني! جوزيف، إنه الاسم الأوّلُ لأشهر قادتنا... جوزيف ماذا؟

ـ لا لَقَب له.

ـ لا لَقَب له، ماذا تعنين بهذا؟ يحمل بالطّبع رقمَ تسجيلٍ.

ـ مجرّد حرفٍ أوّلٍ من الاسم، ك.

ـ واصلي..

ـ ذات صباح...

ـ نعم، ذات صباح..

ـ ذات صباح، أُلقِي القبضُ على جوزيف ك....

ـ هذا استهلالٌ جيّدٌ!، استهلالٌ رائعٌ، استهلالٌ يستولي عليك، ويجعلُك تحلُم! وماذا فعل حتى يُلقَى القبضُ عليه؟

ـ طيّب... كانت تتردّد.

ـ «دَعيني أُساعِدْكِ»، قال يوري. «سأعرض عليك بعض المُقترحات: أَقْبِضَ على جوزيف ك. لأنه خان الحزبَ، أم... لأنّ أفكارَه لم تعُد تتناسب مع العقيدة الاشتراكية، أم... لأنّه يَأْبى الوشايةَ بصديقه الصّدوق، وهو بدوره يخون القضيةَ؟ تحدّثي!».

ـ إنّه يجهل أسبابَ إلقاء القبض عليه.

ـ يجهل، أهذا هو رأيُك!

ـ كان يعتقد، في البداية، أنّ الأمرَ مُزحةٌ.

ـ لا يُبدي يوري اعتراضاً. كان الجواب معقولاً. ذلك أنّ العديد من المتَّهمين لم يكونوا يأخذون استجوابَهم على محملَ الجدّ، على الأقلّ في

البداية. كانوا ينظرون إليه، كما ينظر الأستاذُ أو الكاتبُ، نظرةً استعلائيةً. ومن الواضح أنّ هذا الأمر لا يدوم، فما إنْ تنهمِر الضّرباتُ الأولى حتى يُدرك القومُ أنّهم لم يوجدوا هناك من أجل المزاح.

ثمّ تابعت، كما لو كانت مستعدّة للتّعاون كلّ الِاستعداد:

ـ يعتقد جوزيف ك. أنّ ذلك كان خطأً، حتى إنّه فكّر في حَمْل صديقه الوكيل على أن يتدخّل.

قال يوري بابتسامة مشجّعة:

ـ إنّه رَدُّ فِعلٍ مُناسب تماماً! كم مرّةٍ سمِع الجاني يستدعي تدخُّلَ طرفٍ ثالثٍ. ينبغي لك الِاتّصالُ بفُلان. وفلان سيُنكِر الاتّهامات... ثمّ أراد أن يُجيب على أنّ فلاناً قد استُجْوِب من قبل، وأنّ فلاناً كان بعيداً بالفعل، لا شكّ أنّه في سبيريا. دائماً ما تكون ردّة فعْلِ الجُناة متأخرة، كما لو أنهم ينتمون إلى عالَم تحكمُه قوانين الماضي المقدّسةُ. كان يودّ أحياناً أن يرُجَّهم ويصرخ فيهم: ولكن أيّها الرّفيق، ألا ترى في آخر الأمر أنّ القواعد قد تغيّرت! فلم يعُد هناك فلان أو علان! أنت رجل وحيدٌ. وحيدٌ ومُذنبٌ وخاسِرٌ!

استأنف قائلاً:

ـ أين يجري استجوابُ هذا السيّد ك.؟

قالت:

ـ في إحدى ضواحي المدينة.

ـ أيُّ مدينة؟

ـ لم يُحدَّد المكانُ في الرّواية. قد يحدث هذا في أيّ مدينة.

ـ حتّى في موسكو؟

ـ حتى في موسكو.

ـ لكن أخبريني بشكل أكثر دقّة، أين تُعْقَد لائحةُ الإتّهام؟

ـ توضّح الروايةُ: *«في مبنى كبير ذي واجهة طويلة للغاية، يبدأ بباب ذي أبعاد هائلة»*. خمّن يوري أنّها تصف مبنى اللوبيانكا.

وتابعت:

ـ إنّ المواجهة الأولى تجري في غرفة رحيبة يتكدّس فيها مُشاهدون.

أردف:

ـ إنّها مُحاكمة عُمومية!

وعلى الفور لامَ نفسَه لأنّه ترك ظَنّاً من الحَماسة في غير محلّه.

ولكن متى كتب كافكا مثل هذا الأثر؟

ـ في عام 1914.

كانت الكلمة الأولى التي تبادرت إلى ذهن يوري هي: مُتَنَبِّئٌ! احتفظ بها لنفسه، خشيةً من التأويل الذي قد يقوم به المحقّقُ الرّئيسُ كاتاييف لردّة فِعلِه.

سألها وقد عَرَتْه كآبةٌ طارئةٌ:

ـ أخبريني يا دورا عن الطّبيعة الحقيقية لعلاقتك بمؤلِّف هذا الكتاب؟ هل أحْبَبْتِه؟

اعْتَرى الحُزنُ مُحَيّا المرأة الشّابّة. حدّقتْ إلى يوري بعينيْها النَّجْلاويْن المَليحتيْن اللّتيْن شعر أنّه يترنَّحُ مِن سِحْرِهِما، وأجابتْ بأسىً مُؤَثِّرٍ: ـ ما مِنْ رجُلٍ أحَبَّتْه امرأةٌ أكثرَ من حُبّي لكافكا. لقد أحْبَبْتُه أكثرَ مِمّا أستطيع أن أُحبّ رجُلاً.

سادت لحظة صمت. قال عند انصرامها:

ـ هُدنةٌ عاطفيةٌ! لم تُنْبئيني بالمهنة التي يُزاولها ك. في الرواية!

أجابت دورا:

ـ إنّه وكيلٌ مُفوَّضٌ في بنك.

ـ كنت سأُراهن على أنه وكيلُ رأس المال! كيف يتصرّف في المحكمة؟

ـ في البداية، رفض جوزيف ك. الاِستجوابَ...

ـ كلُّ الجُناة يفعلون مثل هذا.

ـ أكان لِـ(ك.) الحقُّ في مُحامٍ يُدافِع عنه؟

ـ نعم، بناءً على مشورة عمِّه، استشار شخصاً يُدعى الأستاذ هولد.

ـ «المُحامي لم يعُد واقعياً جدّاً». صحَّحَ يوري.

قصَد المغسلةَ فغسل يديْه، ورطّب وجهَه، ثمّ عاد ليجلس أمام المُتّهَمَة. سألَها لأنّ هذا الأمرَ كان يشغل بالَه كلّ الشّغْل، كيف كان رَدُّ فعلِ جوزيف ك. بطلِ هذه القصّة؛ على نوائب الدّهر التي تكالبت عليه.

أجابت دورا:

ـ في البدايَة، التزم جوزيف التّحفُّظ حيال الاتّهام. فسعى إلى مواصلة العيش، وواصل العملَ، وكأنّ تهديداً رهيباً لم يكن يحوم فوقه، يتحدّى

السّلطةَ القضائيةَ ولا يذْعَنُ لها. لكنّه يرْضى في الوقت نفسه بمصيره. وإذ يُدرك أنّه بريءٌ، يبحثُ عن أسباب ذنْبِه.

قال يوري متحمّساً:

ـ هذا أمرٌ رائع!

ـ يجهل ك. طبيعةَ الجريمةِ التي اتُّهِم بها، إنّه يُجابه تنظيماً من المُفتّشين المُرتشين، وقُضاة تحقيقٍ أغبياء، لا يفهم تصرّفاتهم أو دوافعهم. قال له أحدُ المرشدين الدّينيّين مثلاً: *«لسْنا مُجبَرين على الاِعتقاد بأنّ كلَّ شيءٍ صحيحٌ، يكفي أنّنا نعُدُّه ضرورياً»*.

تابعت دورا:

ـ إنّ إحساس ك. بالذّنب شديدٌ للغاية، لدرجة أنّه لا ينتفض أبداً في وجه الرُّعْب. فالخوفُ المرتبطُ بجَريرته المحتملة يَشُلُّه. إنّ جوزيف ك. ينحني للضّرورة، ويجعل من نفسه أداةً لتدْمير ذاتِه، بخلاف بطلِ الرواية الثانية *(القلعة)* الذي يأْبى الخُضوعَ لنظام العالَم، ويتمرّد، ويُواصل بحثَه على الرغم من كلّ الصّعاب.

ـ لكنّكِ لم تُنبئيني مَن يكون البطلُ حقّاً. ما مشاعرُه وآراؤُه السياسية؟ ـ لم يُذكَر هذا في الرواية. ظلّ جوزيف ك. كائناً تجريدِياً، لم يتصرّف بوصفه بطلاً حقيقياً. وكان يبدو أحياناً جَباناً وضعيفاً، صفيقاً وانتهازياً. إنّ مزيتَه الوحيدةَ التي قد نُقِرُّ له بها هي إرادتُه الخَيِّرةُ. كان جوزيف ك. كائناً ذا إرادة خيّرة، في عالَم يصطنع أُموراً تُخالِف العقلَ والتّوافق، كائناً كان قَدَرُه يبدو مُقَدَّراً منذ السَّطْر الأوّل من الرّواية، كائناً كان يُقاوِم سُلطةَ القانون العبثية والواحدة.

حذّرها يوري: «لا تُفاقِمي وضْعَكِ من خلال مهاجمتك للقانون». قبل أن يسأل عن الظّروف التي كُتِبَت فيها الروايةُ. لقد أسَرَتْه هذه القصّةُ كثيراً حتّى إنّه كان مقتنعاً بأنّها حقيقية.

أوضحت دورا أنّ كافكا كان قد شرع يكتب *(المحاكمة)* عند عودته من برلين، حيث انفصل عن خطيبته التي كانت تربطه بها علاقةً تراسُلِيَةً في الأساس. لقد انفصل بعد مقابلة فظيعة، مُجابهةٍ أكثر منها مقابلة، حيث جابه مسؤولياته وعجزه عن التزام وعوده بالزّواج، فأحسّ كأنّه يُواجه محكمةً أمام الأشخاص القلائل المدعوين ليشهدوا انفصالَه. (محكمة أسكانيشرهوف)، هكذا كان يُسمّي هذه الواقعة الحزينة في حياته ـ نسبة إلى اسم الفندق الذي جَرَت فيه المُجابهةُ العائليةُ التي عاد منها مُرهَقاً، وغارِقاً في ضَرْبٍ من اليأس الوجوديّ الذي لم تنتشلْه منه سوى كتابةِ *(المحاكمة)*.

ـ تقصدين أن كافكا بَنَى أثراً أدبياً من هذه الواقعة البسيطة والعادية المتمثّلة في فَسْخ الخطبة، يصف فيها عظمةَ نِظامِنا؟

ـ يجوز أن نقول ذلك.

لم يتمالك يوري نفسَه، فقال:

ـ لذا ربّما كان كافكا في آخر الأمر مجرّد شخصٍ عاطفيٍّ كبير. وبعد أن نطق هذه الكلمات، كان يفكّر في نفسه.

قالت دورا:

ـ دَعْنا نَقُلْ إنّه كان شخصاً حَسّاساً، حسّاساً للغاية. خلال برهة من

الوقت لم ينبس أيٌّ منهما بكلمة واحدة. كانت ذُبابة تحوم حول المصباح المكشوف، وبدأ الشّعورُ برطوبة الغرفة وبُرودتها.

اِستأنف يوري:

ـ حدّثيني عن النّظام القضائيّ في الكتاب.

ـ النّظامُ تحكمُه قوانينُ عبثيّةٌ، إذ يُمكن لرسّام أن يُسلّم شهادات براءةٍ. ثمّة هذا القولُ المأثورُ الرّهيبُ: «ما قامتْ دعوةٌ على امرئٍ، إلّا خَسِرَها». تظلّ لائحةُ الاتّهام خَفِيَةً على المُتَّهَم والمُحامي. لا يسمح القانونُ حتماً بالدّفاع، إنّما يتم التساهل معه فحسب. ونعتقد أنّنا نستطيع تحديدَ مآل المُحاكمة على الفور، من خلال وجه المُتَّهَم وحده، وفي تقاطيع شفتيْه. تقع الإدانةُ في لحظة غيرِ مُتوقَّعَة دائماً. وهناك مُعاونون قضائيون في كلّ مكان.

قال يوري مبتهجاً:

ـ إنّ هذا النظام قد أثبت قيمتَه وإمكاناته على العديد من المستويات. ثمّ أردف: ما النّهايةُ؟

ـ ذات مساء، بعد انصرام عام كاملٍ على الاتّهام، وقبل يوم واحد من عيد ميلاده الحادي والثلاثين؛ اعتُقِل في عيد ميلاده الثلاثين ـ جاء جلّادان يبحثان عن جوزيف ك. في مَقْلَعٍ مهجورٍ، في ضوء القمر، أجلساه ورأسُه مسنودٌ إلى صخرة، فأخرج أحدُهما سكّين جزّارٍ، بينما أمسك الآخرُ (ك.). يرنو ك. بنظره إلى البعيد، نحو ضوْءٍ، حيث يمكن رُؤيةُ طَيْفِ فَرْدٍ كانت رُؤاهُ الأخيرةُ تصْبو إليه. اِنْغَرَزَ سكّينُ الجزّار في قلْب جوزيف ك. أمّا الكلمات الأخيرة في الرواية فهي: «*قال، مثل كلْبٍ، كان الأمر كما لو كان لا بُدّ للعار أن يستمرّ بعده*». بادر يوري قائلاً:

ـ «عجيبٌ!». وكان على وشْك البكاء. «سيكون لي بالطّبع بعضُ التّحفّظات أُبْديها حول صِدْق الرّواية. لكن لا يجوز لنا أنْ نطلب من كاتبٍ كتابةَ الحقيقةِ المطلقة، وإلّا فإنّه سيغدو قائداً لمجلس السوفيات الأعلى. لكن بصرف النّظر عن ذلك، نعم، إنّ كافكا كاتبُ الواقِع، كما يجدُر بكاتب الحزب أن يكون. وماذا نقول عن النّهاية؟ *«قال، مثل كلبٍ! كان الأمر كما لو كان لا بُدّ للعار أن يستمرّ بعده»*. قد نحسب أنّنا نقرأ تقريراً من محاكمة فيشينسكي، أو الصفحة الأولى من صحيفة *(إزفيستيا)*. قد يحسب المرءُ أن كافكا أقام في هذا المبنى يُراقب قُوى الظّلام وهي تعمل. عندما يدعو الأدبُ نفسَه إلى اللوبيانكا، فذلك أنّ العالَم قد بَلَغَ ذُرى الفَنّ. أوه! لقد اعتقدتُ أن كافكا، أثناء دراستي لملفّه، لا يمكن أن يكون إلّا كاتباً بورجوازياً صغيراً، أديباً مُنْحَطّاً يحسُنُ بنا استبعادُه. لكنّك جعلْتِني أُبَدِّلُ رأيي، فكافكا جُزءٌ من السُّلالة النّبيلة للرّواية الواقعية السوفياتية».

توقّفَ، فخوراً ببارقة الأمل التي ظنّ أنّه أيْقَظَها في ذهن المرأة الشابّة.

قال بصوت أكثر صرامة وأشدّ رصانة:

ـ ومع ذلك لا تبتهجي قبل الأوان، ينبغي أن ألفت انتباهَك إلى قرار سُلطات اللجنة التنفيذية في شأن طلبك للحصول على عضوية الحزب، اِعْلَمي أنّ الجواب ليس كما كنتِ تأملينه.

تناول ورقةً أخرى من الملفّ.

أقرأُ عليكِ حيثيات التقرير:

ـ «قضية دورا لاسك ـ ناشطة في الحزب الشيوعي الألماني في برلين، باسم مُستعار هو «ماريا جيلين».

البروتوكول رقم 2245. طَلَبُ انتقال الرّفيقة من الحزب الشيوعي الألماني إلى الحزب الشيوعي السوفياتي.

توصّلت اللّجنةُ إلى النتيجة التالية: نظراً لأنّنا لم نتمكّن من الحصول على تأكيد في شأن أنشطة دورا لاسك، ولأنّها أبدَتْ تهاوُناً وتَراخِياً في التزامها السياسي، وأظهرَتْ تقصيراً تامّاً في نشاطها السّرّي خلال السّنوات الأخيرة، فإنّ الانتقال إلى الحزب الشيوعيّ السّوفياتي غيرُ واردٍ حالياً، ونكتفي بتأكيد عُضويتها في الحزب الشيوعيّ الألمانيّ منذ عام 1930».

وضع الورقةَ جانباً، ولاحظ ردَّ فعلِها. كان لونُها قد امْتُقِع، ولا مِراء في أنّها كانت تُدرك أنّ رأيَ اللّجنة التنفيذية لم يكن يعْني عَدَمَ قَبولِ طلبِها فحسب، إنّما كان يَنِمُّ على قَسْوَةِ حُكمِ اللّجنة في ما يتعلّق بمُجمل أنشطتِها. اِعتقدت أنّها سوف تلْقى ـ عاجلاً أم آجلاً ـ زوجَها في الكوليما. ولكنّ شيئاً ما في هذه المرأة كان يُثير شفقتَه. شعر لأوّل مرّة بأنّه مأخوذٌ بإحساسٍ آخر غيرِ الواجبِ ومصلحةِ الحزبِ. وكان يظنّ أنّ كاتاييف سيقطع رقبتَه إذا اطّلَع على أفكارِه. غير أنّه كان يسْخر في هذه اللّحظة من كاتاييف، ومن مصلحة الحزب. لقد شاء أنْ يُنْقِذ المرأةَ الشّابّةَ من المصير الذي كان يعلَم أنّها ستلقاه. استأنف:

ـ أيتها الرّفيقة، لقد أُنْقِذَتْ حياتُك اليوم بفضل آثار زوجك الأوّل. ولكن لا بُدّ لي من أعْهَدَ إليك بشيءٍ لن أُدَوِّنَه، وألتمس منكِ الاحتفاظَ به لنفسك إلى الأبد، لأنّه قد يُكلِّفُنا ثمناً باهظاً معاً. ترك صمتاً يسود، مِثل الممثّلين الذين كان مُعجَباً بهم إلى حدّ ما، وصرخ قليلاً على شاكلتهم، بما أوتِي من نبْرةِ صوْتٍ أشدّ إقناعاً:

ـ أيتها الرّفيقة دورا ديامانت، ينبغي لكِ أن ترْحَلي! عجّلي بالرّحيل عن هُنا! اهرُبي من موسكو، بعيداً، بعيداً جدّاً، بقدر ما تستطيعين! اهْجُري هذا البلدَ غداً، لا، لا تنتظري حتى يَحينَ الغَدُ، أسرعي إلى المحطّة عندما تخرجين من هُنا، استقلِّي أوّلَ قطارٍ نحو أيّ مكان! الرُّعبُ، الرّعبُ العظيمُ، رُعبٌ هائلٌ سينزل بموسكو، عملية تطهير جبّارة لن تشكّل المجازرُ الكُبرى التي ارتُكِبَتْ في مقصلة روبسبيير ـ بالقياس إليها ـ سوى ذكْرى سائغةٍ في ذاكرة البشر. التّعليماتُ في مفوضية الشّعب للشؤون الداخلية مجنونةٌ. ويجب إخراسُ عشرات ومئات الآلاف من أعداء الشعب. ولقد خُطِّطَ من قبل لعمليات الإعْدام والاِعتقالات الجماعية. ستُفْرَغُ المدينةُ من كلّ الطُّفيليات التي سوف تُخَضّبُ دِماءُ جسومِها المُعَذَّبَةِ جَليدَ سبيريا. اِرْحَلِي قبل أنْ تُطْبِقَ غياهِبُ الظُّلُمات على موسكو. لا أدْري لماذا أقول لكِ هذا، لا شَكَّ في أنّني أقترِفُ خَطَأً جسيماً. لا يَهُمُّ! اِرْحَلِي!

عَبَرَ الغُرفةَ، وفتَح البابَ، وأَوْمَأَ بِلَحْظِه إلى المرأة الشّابّة أنْ تُغادِر المكانَ. غادرتْ تحُثُّ الخُطى من دون أنْ تُلْقِيَ نظرةً عليه.

17 ـ سبتمبر ـ 1938

روبير

من بعيد تنْأَى السّواحلُ الإنجليزيةُ، وتتوارى اليابسةُ في الضّباب، وداعاً أيّتُها القارّة العجوز مسقطُ الرّأسِ، وداعاً يا بودابست غير مأسوفٍ عليك، وداعاً يا براغ والنَّفَسُ يمتدُّ أَلَماً وحُزْناً عليكِ، وداعاً يا برلين والقَرفُ يغْشى القلْبَ منْكِ.

سوف ترْسو سفينةُ الشامبلان في نيويورك خلال عشرة أيّام. يتخيّل ناطحات السَّحاب، والإنسانَ الذي تسْحَقُه الضّخامةُ. غرقت برلينُ في الظّلام المُطْبِقِ، واجْتيحَت فيينّا في مارس، سيضُمُّ هتلر إقليمَ السّوديت، وفرنسا تحشُد قوّاتها، والاتّحاد السوفياتي يستعدّ للحرب، وموسوليني يدعو للمُفاوضات، وثمّة حديثٌ عن مؤتمر في ميونيخ.

عند جُؤجُؤ السّفينة، على السّطح السّفلي، يُغنّي النّاسُ ويبْكون ويتضرّعون. كان يشعُر، من خلال يديْه الموضوعتَيْن على الدرابزين؛ باهتزازات القلوب العديدة ترتجف تحت أصابعه. أمّا جيزيل التي بقيتْ في بودابست، فلا بُدّ أن تلْحق به إذا وجدتْ إلى ذلك سبيلاً. كانوا يسمحون لِماماً. الحياةُ هي التي كانت تبْدو مُؤجَّلَةً.

كان كلاوس مان على سَفَرٍ أيضاً. يُعَدُّ ابنُ صاحب نوبل صديقاً له.

عندما فرّ من الرّايخ لجأ إلى هنغاريا، وتعارَفا في بودابست. كانت هناك قضية ذات طبيعة سياسية، وكانت ثمّة مشاكلُ تتعلّق بتعاطي المخدّرات، وكلاوس يُعالج إدمانَه عليها في عيادة على مشارف المدينة. ساعده روبير في فِصالِه عن المخدّرات، إنّه أدْرى بالمورفين. لقد تخلّص في آخر الأمر من المخدّرات، وما عاد روبير قاتِلاً.

كانت جيزيل تُحِبّ صُحبةَ كلاوس، الذي غالباً ما كان يتناول العشاءَ في المنزل. وكان كافكا حاضراً في نقاشاتهم في الكثير من الأحيان. وقد كان كلاوس عارِفاً به متمكّناً منه، نَشَرَ مقطعاً غير منشور من *(المحاكمة)*، ومقتطفات من اليوميات. وكان يُهيّئ مقدّمةً لرواية *(أمريكا)*. كانت أمريكا هي شغل النّاس الشّاغل، وكان عليهم أن يفِرّوا مهما كلّفهم الثّمن، يحلمُ النّاسُ بالحصول على التّأشيرة، ويطرقون جميعَ الأبواب، وكان أحد هذه الأبواب مُوارباً، وقد حصل روبير على مفتاحه السّحري. كان قد استقلّ القطار إلى باريس التي مكث فيها بضعةَ أيام، ولا حديث في باريس إلّا عن الحرب التي تهيّأت فرنسا لها. ولا بُدّ لروبير أن يعود إلى إنجلترا، لأنّ سفينة الشامبلان ستغادر من ساوثهامبتون، وقد تقرّر انطلاقُها في السابع عشر.

كان قد أقام في لندن التي لم يكن يعرف فيها أحداً، فكان في المدينة يدور في حلقة مفرغة. الحربُ تشغل بالَ النّاس، لكنّ لقاءً هَلّ لِيَضَعَ حدّاً لسأمِه. كان على روبير أن يُسلّم رسالةً من كلاوس إلى شتيفان تسفايغ. كان شتيفان ومان صديقيْن. دعم الكاتب الفْييني ابنَ صاحبِ نوبل عندما نشر روايتَه الأولى. ولا شكّ في أنّ دعْمَه له يفوق دعْمَ توماس مان نفسه. كان بين الكاتبيْن، ذاك الذي يُشرِف على السّتين، وهو من أكثر الكُتّاب

شهرةً في العالَم، والكاتب الشّابّ المتعطّش للمعرفة، كانت بينهما أواصرُ عاطفيةٌ تكاد تكون أبويةً. كتب كلاوس في رسالته:

عزيزي شتيفان تسفايغ:

سيحمل إليك هذه السّطورَ أحدُ أصدقائي، ويُدْعى الدكتور روبير كلوبتسوك. ما كنتُ لأُوصيك به لو لم أكن أعلم أنّ المُحادثة معه ستسرُّك. إنّه ذكيٌّ جدّاً ولطيف للغاية ـ وإلّا هل كان من الممكن أن يكون مُقَرّباً من كافكا؟ هو ذو مَيْلٍ كبيرٍ إلى الأدب، وإلى كلّ ما نُحِبُّ. إنّه يشعُر بشيء من الوحدة في لندن، لذا فإنّ ساعةً يُنفقُها برفقتك لسوف تُشيعُ السُّرورَ في نفسه.

أنا آسِفٌ كلّ الأسف لأنّني لم أستطع أن أكون هناك! ثمّة لعْنةٌ حقيقيةٌ تُرهِقُ إقاماتي في إنجلترا، وتمنعُها من أن تُؤْتِيَ أُكْلَها. سأُبحر على متْن الشامبليان يوم 17، لأعود مباشرة إلى نيويورك. فَهَلّا كتبتَ إليّ عند الاقتضاء؟ ها هو عُنواني: ويليم ب. فيكنس، 500 الشارع الخامس. وهل سنرى بعضنا مرّة أخرى قبل حلول الكارثة العالمية؟ أنا أعتقد أيضاً، من الآن فصاعداً، أنّها أمْرٌ لا مفرّ منه، على الرغم من أنّني لا أودُّ تصديقَه، لاسيّما بعد أن سمعتُ أمس هذا الحيوانَ يأخُذُ في سيْل من الشّتائم على أمواج الأثير. النّاسُ هنا مُتوتّرون أشدّ ما يكون التّوتّر، لكنّهم واثقون وهادئون. لا شكّ أنّ الأحوالَ في برلين أكثرُ نشاطاً وانتعاشاً في الظّاهر، بيْد أنّها أشدُّ قلقاً واضطراباً في الباطن...

كلّ تمنياتي لك ولعملِك.

صديقُك الوفيّ والمخلص.

كلاوس مان.

على الرغم من أن كلاوس كان يُقدّر تسفايغ، إلّا أنّه انتقد أُسلوبَه وعَدَّه مُبَهْرَجاً، لقد كان يعتبر الكاتبَ الفْيينّي كاتباً من الطّبقة الثانية. أمّا روبير فكان أقلَّ قسوةً، إذ كان يجد السِّيَرَ لا نفْعَ فيها إلى حدّ ما، وكان يُحبّ القصصَ القصيرة. وكان عليه أن يُقرّ مع ذلك بأن تسفايغ على النّقيض التّام من كافكا. لقد كان روائياً من القرن التاسع عشر تائِهاً في القرن العشرين، عندما كان فرانتس كافكا يُجسّد الحداثةَ. غير أن هذا اللقاء في لندن كان بمثابة حدث في نظره. لاح في فكره وهو في الطّريق إلى 47، شارع هالام: في العشرين من عُمري، التقيتُ بأعظم كاتب في القرن، وفي الأربعين، التقيتُ بالكاتب الأكثر شهرةً. لقد رأيتُ قُطْبَي الإبداع.

استقبله تسفايغ، فرحّب به وأحسن وفادتَه. دخّنا السّيجار، وهَيَّأَت لهما زوجةُ الكاتب شاياً فاخراً، وهي امرأة شابّة تصغره بثلاثين عاماً. لم تَكَدْ تنبس سوى بثلاث كلمات، وكان قد نسِي اسمَها الشخصي. بدا الكاتبُ الفْيينّي حَفِياً، وكان روبير على حقّ في الرّحيل عن أوربا، الوضع السياسي سيزداد سوءاً، والحرب مُحدِقةٌ وشيكةٌ، والأنشلوس[1] بمثابة قبْر. لقد كان من أوائل الذين غادروا، وكانوا يعدُّونه جَباناً في ذلك الوقت. ولمّا أراد بَيعَ بيته في كابوسينربيرغ؛ حذّرت زوجتُه من تصرّفه المجنون. لكن لا بُدّ للمرء أن يكون من فيينّا لِيَتَنَبّأ بالمذبحة الجماعية القادمة. لقد أَزِفَت ساعةُ المذبحة. تابع: «لقد كان حُلمُ الهيمنة العالَمية موجوداً دائماً في العقل الباطن للشّعب الألماني، وليس هتلر مَن ابتكره».

أعلن وملامح وجهه تبْدو أكثر حِدّةً:

---

(1) ـ الأنشلوس: كلمة ألمانية تعني العملية التي قامت بها ألمانيا النازية لِضَمّ النّمسا.

«ليس من العَدْل دائماً أن نُقارِن مُصيبةً بأُخرى، ومع ذلك نستطيع القولَ إنّ مأساةَ اليهودية النّمساوية ما تزال تتعَدّى في قسوتها مأساةَ اليهود في ألمانيا. جَرى حِرمانُهم من الحقوق وإفْقارُهم القَسْرِي على نحو تدريجي، لقد مُنِحوا الوقتَ للتّعوّد على هذا الأمْر، وللتّحضير بأَناة للهجرة. أمّا في النّمسا فقد نَزَلَت بهم الضّربةُ القاصمةُ، خلال أسبوع واحد، أو شهْر على الأكثر، فاقتلعتْ مئات الآلاف من البشر من وجودهم ثمّ أغرقتهم في بُؤس مُرعِب».

توقّف برهة، ثمّ أعلن وقد اضطرب حديثُه وحركاتُه:

«ولهذا السبب يجب أن نهُبّ لمساعدتهم بسرعة مُضاعفة. أمّا الإِتّهاماتُ فلا خَيْر فيها. وسيتعيّن علينا إعادةُ توطين مئات الآلاف في بُلدان أخرى، أو هذا الرُّبْع؛ بل نصف المليون من اليهود، الذين رأوا ثَرى موطنهم يتداعى تحت أقدامهم. لم يسبق لليهود أبداً أن جابهوا وَضْعاً أكثر عُسْراً خلال ألْفي عامٍ من تاريخهم».

ذكّر الكاتبُ الفِيينّي بمؤتمر عالمي لإنقاذ الأطفال، ثمّ عاد إلى أمر مختلف تماماً، مشروعٍ شخصيٍّ كان يتعهّدُه منذ عدّة أسابيع. وفجأة بَدا كلُّ هذا لروبير باطِلاً وتافِهاً إلى حدّ بعيد.

«أمام هذا الوضْع الفكري والأخلاقي الطّارئ، خَطَرَتْ عليّ فكرةُ إنْشاء مجموعة من الكُتب رخيصة الثّمن، سيكلّف كلُّ جزء منها شلناً إنجليزياً واحداً. قد يكون أَثَرُ مثلِ هذه المجموعة هائلاً، ويحول دون تَماهي الثقافة الألمانية بالدّعاية الاشتراكية ـ الوطنية. لا نُضيِّعْ وقتَنا، لأنّ الوقت لا يعمل لصالحنا».

لكنّنا تحدّثْنا بما يكفي في السياسة! لقد بَرِم بالسياسة، لأنّها كانت مسؤولة عن مصائب العالم.

«إذا كنتُ أُصدّق رسالةَ كلاوس، فأنت كنت مُقَرَّباً من كافكا!».

كان تسفايغ قد قرأ كافكا، وكان يعرف بْرود جيّداً، حتى إنّه اشترى منه مخطوطةً من عدّة رسائل لكافكا، لكنّه كان يُريد أن يعرف أكثر عن الرجل، وعن نهايته. ظلّ روبير يتهرّب ويُراوغ، ومن باب المُجاملة سأل الكاتبَ الفْيينّي عن العمل الأدبيّ الذي يعمل عليه، فأجاب أنّه فَرَغ من كتابة سيرة عن ماجلان. أمّا الآن فإنّه انبَرى لكتابة رواية، هي الأولى له إذا صحّ القول. كان قد انْهى النّسخةَ الأولى مِمّا قد يُسمّيها *(الشفقة الخطيرة)*. وأشار بحركة من يده إلى رُزمة ثخينة من الصفحات الموضوعة على مكتبه، وأوضح أنّه لن يحتفظ من بين هذه الصحائف الألف، إلّا على ثلاث أو أربعمائة فقط. هكذا كان يكتب، وهو يُطارد ما لا طائل منه لِشَطْبِه.

«كلُّ حشْوٍ، وكلُّ ترهُّل، وكلُّ ما يفيض عن الحاجة ويُعطّل الحركةَ يُزْعِجُني. لا يمنحُني المُتعةَ الخالصةَ إلّا الكتاب المتماسك بناؤه في كلّ صفحة من صفحاته، الكتاب الذي يفْتِنُك دفعةً واحدة حتى الصفحة الأخيرة، من دون أن يترك لك وقتاً تلتقط فيه نَفَسَك. في أثناء عملية التّحرير الأولى أترُك قَلَمي سَيَّالاً لا يعوقُه عائقٌ، وأضَع في القصّة كلَّ ما يعتمل في فُؤادي. عندئذ يبدأ العملُ الحقيقي، عنيتُ به التكثيفَ والتّأليف، وهو العملُ الذي أُواصلُه إلى ما لا نهاية، من مُسوَّدَة إلى أُخرى. في حين أنّ معظم المؤلِّفين لا يستطيعون إخْفاءَ شيءٍ مِمّا يعرفونه، أمّا طموحي أنا فهو أنْ أعرف دائماً أكثر مِمّا يبدو في الظّاهر. تغْدو عمليةُ التكثيف هذه، وعملية التّجسيم في الوقت نفسه ضرْباً من الصّيْد المُمتِع، وحاصلُه أنّك

تعثُر على عبارة أخرى أو كلمة أخرى سيُؤدّي غيابُها إلى تسْريع الحركة. من بين كلّ الأعمال التي أقوم بها، يُعَدُّ عمَلُ الحذْف إجْمالاً أكثرَ الأعمال مُتعةً عندي. وإذا كان هناك شيءٌ يُفسِّر إلى حدّ ما نجاحَ كُتُبي؛ فإنّما هو هذه القاعدة التي تُلْزِمُني بأن أقتصر دائماً على ما هو ضروري للغاية».

أحضرتْ زوجةُ الكاتب سيجارات أخرى. تحدّث تسفايغ ثانية حديثاً يَشي هذه المرّة بالوَقار. كان يرغب في الرّحيل عن لندن، ما عاد يحتمل المدينةَ، ولم يكن مُقامُه يطيبُ في أيّ عاصمة، ما عدا ربّما باريس. كانت الحركة والجَلَبَةُ واللّقاءاتُ المُتواصلة تمنعُه من أن يمضي حَثيثاً في الكتابة. كان دائماً يمقُت المُدنَ الكبرى. أقام في سالتسبورغ بدلاً من فيينّا. وبعد حين سينتقل من لندن إلى باث. كان يفكّر أيضاً في الرّحيل عن إنجلترا، لعلّه يذهب إلى أمريكا؟ ما مُقامُنا هُنا إلّا بسبب تساهُلهم معنا. كان يرتابُ من تشامبرلين[1]. لكن هل سيُطيق نيويورك؟ لقد أقام فيها من قبل، وليس أمر العيش فيها سيان. «لعلّنا نلتقي هناك مرّة أخرى، فنتحدّث عن كافكا من جديد»، لأنّه يودُّ الاِسْتزادة من أخباره. لقد حان إذاً وقتُ الفِراق. عاد روبير إلى الفندق، ولم يعُد يعرف، وهو في طريق العودة، ما الذي سيستخلصه من هذا اللّقاء. ولم يكن الكاتبُ الفْيينّي سَمْجاً، بل كان بالطّبع ذكِيّاً للغاية. ولكن ثمّة شيئاً ضايقه، يتعلّق بالجانب الذي يسعى فيه إلى التوضيح والإثبات. وهو شكل من أشكال الغُرور يثوي خلف مظهرِ الخفّة. وهذا القلق الذي يكاد يكون مُميتاً، والذي يشعُر به المرءُ يحوم خلف رغبته في الإرْضاء.

---

(1) ـ أرتور تشامبرلين: وزير أوّل في المملكة المتحدة (1937 ـ 1940)، من الحزب المحافظ.

يتأمّل الأفُق، يغمُرُ النّورُ البحرَ. يُريد النُّزولَ إلى السّطح السُّفْلي لينصهر في الجموع، فيضحك ويُغنّي ويبكي. سيبلُغُ نيويورك في غُضون عشَرَة أيّام. ينْقَضي شطْرٌ كبيرٌ من حياته. يفكّر في رواية كافكا. يحفظ عن ظهْر قلب الجُملَ الأولى من *(أمريكا)*. يهمس بها لنفسِه:

«عندما كان الشّابُّ كارل روسْمان في السادسة عشرة من عمره، كان والداه المُعْوِزان قد بعثاه إلى المنْفى، لأنّ خادمةً أغْوَتْه، وجعلتْ منه أباً، حينما كان يدخل إلى ميناء نيويورك على متْن سفينة بطيئة للغاية، كان تمثالُ الحُرية الذي كان يُراقبُه منذ فترة طويلة، قد لاح له في ارتعاشة ضوْءٍ. قد يقول المرءُ إنّ الذّراع التي استلَّت السّيفَ ارتفعتْ في تلك اللّحظة بالذّات، وكان الهواء الطّلق يهُبُّ على هذا الجسد الهائل».

يستقصي بنظره المَدَى القَصِيَّ، ما مِن يابسة تلوح في الأُفُق. تَلْفَحُ الرّيحُ وجهَه. يُحسُّ بالهواء الطّلْق يهُبُّ على جسده.

أوتْلا

«عند السّاعة السادسة والنّصف من هذا الصّباح، عَبَرت القواتُ الألمانيةُ الحُدودَ، وهي الآن تزحف إلى براغ. اِلْتزِموا الهُدوءَ، اِذهبوا إلى عملكم، أرْسِلوا أولادكم إلى المدرسة».

تجلس أوتْلا في الصّالون، على كرسي بالقُرب من خزانة أطباقٍ وُضِع عليها المِذياعُ، تستمع إلى الأخبار، صامِتةً، لا حَراكَ بها.

«الدَّمْعُ في مقلتيْكِ، أَتَبْكي عينُكِ!»، سألها زوجُها قبل أن يُغادر الشُّقّةَ. «أمّا أنا فسأحترم التّعليمات، سأذهب إلى العمَل. إلى اللّقاء يا أوتْلا».

«إلى اللّقاء»، قالتْ.

يحلُّ أحياناً صَريرٌ طويلٌ محَلَّ صوْتِ المُذيع. تقوم بتشغيل أحد أزْرار الجهاز ثمّ تُشغّل الآخرَ، لتُعيد الزّرَّ الأوّل إلى موضعه الأصْلي. فيتوقّف الصّريرُ أخيراً.

«أُعيدُ: عَبَرَت القوّاتُ الألمانية الحُدودَ عند السّاعة السادسة والنّصف هذا الصّباح. وهي الآن تزحف إلى براغ...».

أكّد لها البائعُ أنّ الجهاز سيعمل بمنتهى الكمال، قال: «إنّه أعجوبةٌ، من مُنتجات براون، لا يوجد جهازٌ أفضل منه، اسْتَحْسِني هذا الخَشَبَ، إنّه من خشب الجوْز، والْمسي معْدِنَ الكروم هذا، يمكن أن نقول ما نشاء عن

هتلر، لكنّ الألمانَ يعرفون كيف يصنعون، وإلّا فإنّ لديْنا موديل إليكترا من شركة نورا، غير أنّه لا يحتوي على الغرامافون، لا تتردّدي كثيراً، فالنّاسُ يتخاطفونه».

تتذكّر أنّ الأوامر الرّسميةَ صَدَرَت ليهود فْيينّا بتسليم راديو TSF الذي في حوزتهم بعد وقت قصير من عملية الأنشلوس، قبل عام من الآن بالتّمام، في يوم 12 ـ مارس ـ 1938. ترى من جديد صُوَرَ الفوهرر يُحْتَفى به في هيلدن بلاتس، ومائة ألف ذراع ممدودة. لا تعلم شيئاً منذ أشهُر عن أصدقائها من عائلة فيشر.

كان شراءُ الرّاديو مَنْبَعَ خلافٍ بينها وبين زوجها. كان جوزيف يرى أنّه من الممكن إرْجاءُ عملية شِراءٍ كهذه، فجريدة الصّباح كافية كلّ الكفاية، أمّا هي فلم تكن مع هذا الرّأي، ونادراً ما كانت تتّفق معه، لقد دام هذا الخلافُ منذ زواجِهما، وقد تفاقم سوءُ تفاهُمهما على مَرّ السّنين. كان كافكا قد كتب إليها من قبل: «*أتفهّم جيّداً حاجَتكِ إلى التزام التّحفُّظ حيالَه*»، أمّا أبوها فقد غالى في القوْل: «لا يُمكنُكِ القولُ إنّنا لم نُحَذِّرْكِ». كان جوزيف يخونُها، هذا أمر مؤكّدٌ. أمَا زالت تُحبُّه؟ كانت تجهل ذلك، أكانت تُحبُّه من قبل؟ أيعرف المرءُ ماذا يفعلُ وهو في العشرين من عُمْره؟ أَفي ذهنه فكرةٌ عن ماهية الحياة فحسب؟ عندما كانت في العشرين من عمرها، كانت حياتُها تَحَدِّياً وغطرسَةً. واليوم تُشارف ابنتُها فيرا على التاسعة عشرة من عُمرها، وهيلينا تُناهز السادسة عشرة، وعمّا قريب ستكون هي نفسها قد عاشت نصْفَ قرْنٍ. حينما كانت في العشرين، بدا لها الأمرُ رَدَحاً من الدّهر، واليوم تخالُ أنّها لم تَخْبَرْ شيئاً.

انْتهى بها الأمر إلى إقناع جوزيف بهذا الشّراء المُدَمِّر، في هذا المتجر

الكبير، حيث كان ثمّة زوجان يتعجّلان خلفهما وينظران نظرةً حاسِدةً إلى آخر ما تبقّى من مذياع براون. لقد وافق على ذلك بالرغم منه. كان دائماً يقبل بالأمر على مَضَض. في سنّ العشرين يفعل المرءُ أيَّ شيءٍ.

ذهبت فيرا إلى الثانوية هذا الصّباح، بينما اقتنعت هيلينا بالبقاء في الشّقّة.

أنفقتْ ليلتَها تُصْغي إلى المُذيع يُعلِّق على اللّقاء بين الفوهرر والرّئيس التشيكي، مُصِرَّةً على أنّ إميل هاشا لن يتنازل عن أيّ شيء لهتلر، وكانت فرنسا وإنجلترا قد اعتبرَتا بميونيخ، لقد كشفت ليلةُ الكريستال[1] عن طبيعة النّظام النّازي. ولن تتراجع الديموقراطيتان بعد الآن!

فكّرت في عائلة فيشر عندما كانت تسمع الأخبار. في أبريل أُجْبِر يهودُ فيينّا على الإنتقال من شُققهم ليُحْتَجَزوا في ضواحي المدينة في مكان ضيّق ومحدود. تابع المُذيعُ: «وإذا لم يكن في مُستطاعنا أن نُعوِّل على إنجلترا، ما دام تشمبرلين يُبْدي مثل هذا الاستمرار في الخِزْي والجُبْن، فإنّ فرنسا لن تسمح بحُدوث ذلك، فدولاديي ليس تشامبرلين، وفرنسا حليفتُنا منذ عام 1924، والمُعاهدات المُوَقَّعَة تُلْزِمُنا».

تذكّرت أنّ أباها قبل سنوات خَلَتْ كان يجلس في المطبخ غارقاً في مطالعة الصحيفة. سألها عن رأيها في اتفاقية المساعدة الفرنسية التشيكية، التي وقّعَها بينيس والحكومة الفرنسية منذ قليل. كانت تُحبّ استحضارَ ذاك العَهْدَ، عندما كان أبوها يتحدّث معها، وعندما كان فرانتس لا يزال

(1) ـ ليلة الكريستال: هي المذبحة التي ارتكبها الرّايخ الثالث ضدّ اليهود. حدثت من ليلة 9 حتى 10 من نوفمبر 1938.

على قيْد الحياة. بَيْد أنّ الحياة مَضَت وزالَتْ، وأخذت الأحياءَ ومَحَت المُعاهدات. كان هيرمان وجولي قد أنفقا أُخريات أيامهما، هو تَفْري النَّدامَةُ قلْبَه، وهي يُحطِّم الشَّجو نفْسَها. لقد استسْلَما للمَرض يجْرِفُهما، يكادان يعُدّان الموتَ راحةً لهما، ما عادا يستسيغان أيَّ شيءٍ، عالِقَيْن في الألَم، تَمْلِكُ ذِكْرى فرانتس ذكرياتِهما وتُسيطر عليها، تعْدمُ أيّامُهما الحَنانَ ويُعْوِزُها الفَرَحُ، يعيشان في أَلَم يدِقُّ الوصفُ عنه، عاشا فريسةً لِيَأْسٍ لا ينتهي، فكانا يترقَّبان الموتَ.

منذ متى لم تضَعْ حَجَراً على قبْرَيْهِما؟

ـ سيّدتي، من فضلك...

ـ نعم يا إيلزي.

ـ أَعَليّ أن أُهيِّئ العَشاءَ هذا المساء لأربعة أشخاص؟

ـ نعم يا إيلْزي، من فضلك.

ـ شكراً، سيّدتي.

عندما صَحَت من نومها هذا الصّباح، ما عادت تشيكوسلوفاكيا موجودة. في أثناء اللّيل أخْضَعَ الفوهرر الرّئيسَ العجوزَ من خلال ترْكِه ينتظر طوال ساعاتٍ قبل أن يستقبله، وهدّدَ سلامتَه. قَبِلَ الرجلُ العجوزُ الذي كان على شَفا الإضْناء، ـ من دون قيْد أوْ شرْط ـ جميعَ المطالب المُقدَّمَة. وعند الساعة السادسة والنّصف صباحاً كانت القُوات الألمانية قد عبَرت الحُدودَ. خطابُ الرّئيس العجوز يملأُ الغُرفةَ الآن.

«بعد مقابلةٍ مع مستشار الرّايخ، وبعد مُعاينة الوضْع، قرّرْتُ أن أضَعَ

مصيرَ الأمّة والدّولة التشيكية بين يدَي زعيم الشّعب الألماني». لقد غدا منذ الآن قَدَرُ الأمّة ومفاتيحُ مصيرِها ومصيرِ شعْبِها في يَدِ هتلر. إنّها تُفكّر في يهود فيينّا القُدامى الذين عُومِلوا بعُنْف عَشِية وصول الألمان إلى فيينّا، بحيث أُكْرِهوا على دَعْك بَلاطِ الأرصفةِ، وفي النّساء اليهوديات اللّائي يُبْصَقُ عليهنّ - منذ عام بالتّمام تقريباً، أعْقَبَ دخول الألمان إلى فيينّا ارتكاب مذبحة كبيرة. والآن حان دورُ براغ، جاء دورها لتدْعَك بلاطَ الأرصفة في ساحة البلدية. ترى مرّة أخرى صُوَرَ ليلة الكريستال التي تَلَت الاستيلاءَ على فْيينّا، وما هي إلّا ستّة أشهر حتى التهمت ألسنةُ النّيران أسْطُحَ المعابد اليهودية، واعتُقِل آلافُ اليهود. تزحف القُواتُ الألمانية إلى براغ، وابنتُها في الشارع. ماذا تفعل ابنتُها في الشّارع بينما يوجد الألمانُ في المدينة؟ في سنّ العشرين نفْعَل أيَّ شيءٍ. تبُثُّ الإذاعةُ الآن خطاباً لهتلر، يُوضّح المُذيعُ أنّه يعود إلى نوفمبر الماضي، وقتَ اتفاقيات ميونيخ. كان الفوهرر الذي سَلَّمَه الرّئيسُ التشيكيُّ منذ قليل مفاتيحَ المدينة ومصيرَ الوطنِ التشيكيّ؛ كان يزْعَقُ في نورنبيرغ أمام جمهور جَذْلانَ:

«سأتحدّث الآن عن تشيكوسلوفاكيا. تُعدّ هذه الدولةُ ديموقراطيّةً، ديموقراطية أكرَهَتْ الغالبيَةَ العُظمى من سُكّانها، من دون أن يطلبوا منهم ذلك؛ على المُشاركة في بنائها. لقد قاموا في هذه الدولة، بوصفها ديموقراطيّةً خالصةً؛ بقمْع وإساءة مُعاملة أغلبية سُكّانها وإنْكار حقوقهم الحيويّة. ولكن من بين القوْميات المُضطهدَة في هذا البَلَد أجد أيضاً ثلاثةَ ملايين ونصف المليون ألمانيّ. إنّ الألمانَ بَشَرٌ خلقهم اللّه أيضاً، ولم يُخْلَقوا ليَخْضَعوا لِسُلطة أجنبية بموجب معاهدة فرساي. لكنّ اللّه أيضاً لم يخلُق سبعةَ ملايين تشيكيّ ليضطهدوهم ويَغْصَبوهم». تنهضُ وتفتح

النافذةَ. كالعادة دائماً في هذه السّاعة يتعرّجُ حَشْدٌ كثيفٌ على امتداد الرّصيف، حشْدٌ من الرّجال والنّساء يذهبون إلى العمل، يرتدون بدلاتٍ رماديةً وفساتين ربيعيةً، جَمْعٌ من القُبّعات والقَبّعات العالية تَتتالى أسفل سُكناها، وأطفالٌ يحملون حقائبهم المدرسية في أيديهم، يعبرون في صفوف منتظمة للغاية أمام مرأى ضابط الشُّرطة الذي يُنظّم حركةَ المُرور بإشارات مُفعمَة بالسّلطة. تشُقّ السّيّاراتُ طريقَها عبر الأشخاص الذين يُعرقلون حركة السّيْر. يركب الشّباب الدّراجات، ويبْدو كلّ شيء حكيماً ومُتْرَعاً بالنّشاط، في يوم الأربعاء هذا 15 ـ مارس ـ 1939، الذي بدا يوماً عادياً، تتأمّل الشارعَ، أخذتْها الدّهشةُ مِمّا ترى، كلّ هؤلاء النّاسُ الذين يسيرون، وكلّ هذا الجمع المُتَعَجِّل، وهؤلاء الرّجال في أبْهى حُلَلِهم، وهؤلاء النّساءُ المتجمِّلات، وهؤلاء الأطفال الوديعون؛ أَيُدركون فقط ما ينتظرُهم؟ لكنّ شيئاً ما قد تغيّر، لقد دأبت العادةُ في مثل هذه الساعة أنْ ترتفع الجَلَبَةُ النّابضةُ بالنّشاط في المدينة، أمّا في هذا الصّباح فيكاد الشارعُ يكون صامتاً. يُخَيَّل لنا أنّنا أمام ممثّلين في شريط صامت. لقد غزا الرُّعْبُ العُقولَ. إنّها بدايةُ عهْد جديد.

أوصدت النافذة من جديد، واجتازت الصّالونَ، وتناولت المجلّة الموضوعةَ على خزانة الأطباق، وجلست على الأريكة. لا بُدّ لها من أن تُخَفِّف عن الذّهْن وتُنعشَه. أَبَتْ نفسُها أنْ تتخيَّلَ أنّ الألمان قد يجعلون منها منبوذةً، وتستنْكِر أنّ الأمر يقتضي منها فَرْكَ بلاط أرصفةِ ساحة البلدية تحت تهديد قوات الإس ـ إسْ، وتؤثر أن تؤمن بأن هذا اليوم مثل باقي الأيام. كانت تُطالع ككُلّ يوم بضعَ صفحات من مجلة بريتومنوست، إنّها لا تُفوِّت أيَّ عدد من أعدادها، وتُقدّر بشكل خاص افتتاحيات بيروتْكا،

ومراجعات كاريل كابيك المسرحية، وبالطّبع؛ لم يكن عمود ميلينا ليفوتها أبداً. تحملُها قراءةُ مقالات ميلينا جيسينسكا على تجديد الصّلة بالماضي، حتى لوْ كان ماضِياً ذا نَبرات موجِعَة، تجعلها تسمع من جديد فرانتس يلتمس مشورتَها في أنْ يَلْحَقَ بالمرأة الشابّة بفيينّا، ويبوح لها بتباريح الشّوْق والفراق، ذلك أن شقيقها لم يكتم عنها سِرّاً أبداً، إنّهما يتحابّان كما لم يتحابَّ أخٌ وأختٌ من قبل. قراءةُ ميلينا هي أن تسمع مرّة أخرى قَصْفَ عاصفةِ الحُبّ المستحيل:

«لقد تأخّر الوقتُ بالفعل يا ميلينا، إنّها نهاية يوم، ومع ذلك فإنّه يومٌ مُعْتِمٌ بعض الشيء، ربّما لن أتلقى غداً أيَّ رسالةٍ منكِ، لديّ رسالةُ يومِ السّبت، أمّا رسالة يوم الأحد فلا يُمكنُها أن تصل إلّا بعد غَدٍ، لِذا فإنّ اليوم لن يحتمل التّأثير المباشر للرّسالة. من العجيب أن رسائلك تُبْهِرُني يا ميلينا، هذا هو سِرُّ قُوّتِك: فبدلاً من أن يتزايد قلقي لأنّني أشعُرُ أنّك من خلال صمْتِك تودّين إخْفاءَ شيء عنّي، فإنّي أظلّ هادئاً، ويا لَثِقتي الكبيرة فيكِ. أقول في قرارة نفسي إذا كَتَمْتِ شيئاً عنّي؛ فذلك لأنّك على صواب في كَتْمِهِ عنّي». كان يحدث لها أن تُلاقي ميلينا مصادفة في شارع، أو على رصيف مقهى، إنّ براغ قريةٌ. فكانتا تتبادلان التّحية بحرارة، وتتبادلان آخر الأخبار. علمتْ من خلال هذه اللّقاءات أنّ ميلينا ـ بعد وفاة فرانتس ـ انفصلتْ عن إرنست بولاك، ثمّ عاشت في الخارج مع شخص غريب الأطوار، أرستقراطي وشيوعي. ولمّا انفصلت عنه عادت لتعيش في براغ، فتزوجت بمهندس معماري وأنجبت طفلةً. لكن لم تُؤْنِسْ أيٌّ منهما في نفسها القُوّةَ لاستحضار ذكرى الرّاحل.

كانت ميلينا قد كتبت عند موت فرانتس:

«لقد كان رجلاً وفنّاناً موهوباً ذا وَعْيٍ حسّاس جداً، لدرجة أنّه كان يُدرك بينما كان الآخرون الصُّمُّ يشعرون بالأمان الزّائف». تتصفّح البرتومنسوت بتاريخ 8 ـ مارس، فتقع على عمود مُوَقَّع باسم ميلينا جيسينسكا. تحمل المقالةُ عنوان (نصيحة جيّدة).

منذ ميونيخ تغيّرت أشياء كثيرة عندنا. على مرّ الأيّام تبدو هذه البداهة مُمِلّةً بعض الشيء بالنّسبة إليّ، وإنّي لأترقّب بفارغ الصّبر ذاك اليوم الذي يستطيع فيه كلّ مقال أن يتوقّف عن الاِعتماد على هذه الحقيقة الواضحة، حيث يُدرك النّاسُ كافّةً هذا الأمرَ: لم نكن نرغب في ما حدث، لقد حدث على أيّ حال، وها نحن هُنا... لعلّ يوماً يأتي لن نُدرك فيه نحن الذين تثْوي برلين في نفوسنا فحسب، بل أيضاً كلّ أولئك الذين يُراقبوننا في الخارج؛ أنّ شيئاً ما قد اخْتَلَّ هُنا. لقد بُتِرَتْ تشيكوسلوفاكيا السابقة من ثُلُث أراضيها، وبقي مئاتُ الآلاف من المواطنين على الجانب الآخر من الحدود... ومع ذلك يبدو أنّ بلدَنا الذي شَهِد الكثير من التّقلُّبات في الأشهر الأخيرة؛ لم يتوقّف عن استرعاء اهتمام العالَم.

لا تملك القوّةَ للمُضي في قراءة المقال حتى آخره. يعود تاريخُه إلى الأسبوع السابق، ولكن يبدو أنّه ينتمي إلى الماضي البعيد. فكّرت أنّ (*بلدنا الصّغير*) ما عاد موجوداً. يَرِنُّ الهاتفُ، فتذهب لترفعَ السّمّاعةَ.

أختُها فالي على الطّرف الآخر من الخطّ، الأخبارُ تُرَوِّعُها، تسأل عمّا يجب القيامُ به: ـ إلى أين ينبغي أن نذهب يا أوتْلا، أنتِ التي تفكّرين دائماً في كلّ شيء، هل فكّرتِ في هذا؟ ألديك فكرةٌ على الأقلّ؟ أيُهدّد النّازيون فعلاً اليهودَ، أمْ أنّ هذا كلّه محض دعاية؟

أجابت بصوت هادئ فاجأها هي نفسها:

ـ لا داعي للذُّعْر، نحن لسنا يهودَ النّمسا، ولسنا يهودَ ألمانيا.

استشاطت فالي:

ـ لكنّنا يهودٌ! واليهود هم الذين عدَّهُم هتلر أعداءً له، اليهود الذين يُريد القضاءَ عليهم!

ـ ثمّة بوْنٌ شاسعٌ بين الكلمات والأفعال.

ـ أتظُنّين هذا؟

ـ نعم، أظنُّه. يُهَدِّئُها أنْ تكذب على هذا النّحو.

ـ وضّحي لي لماذا يُهاجم هتلر اليهودَ الألمانَ، واليهودَ النّمساويين، ولا يُهاجِم يهودَ براغ؟

ـ «لا أدري»، أجابت.

ـ ماذا تقصدين بأنّك لا تدرين يا أوتْلا؟ أنتِ الآن لا تدْرين، وقبل قليل بالضبط كُنتِ تدْرين. عليك أن تختاري يا أوتْلا، وإلّا كيف تُريدينني أن أطْمئِنّ؟ سأُجنّ إذا لم أطمئنّ! جرت العادةُ أنّك تُجيبين عن كلّ شيء، والآن تقولين إنّك لا تدْرين! كيف يمكنُك ألّا تعرفي؟ على الأقلّ لكِ رأيٌ في هذه المسألة. تذكّري أنّ لك دائماً رأْياً في كلّ شيء! بالطّبع أمرُكِ مُيَسَّرٌ يا أوتلا، فزوجُك ليس يهودياً، وابنتاك ليستا يهوديّتيْن إلّا من أحد والديْهما، والقوانين المُعادية لليهود أقلّ شدّةً بالنَّسَب للأطفال اليهود من أحد الأبويْن، الذين يُطلقون عليهم *(ميشلينغ)* (1). تخيّلي أنّهم ابتكروا

---

(1) ـ ميشْلينغ: هجين النّصف أو مُوَلَّدٌ.

اسماً لوصف أطفالِك، أطفالك اليهود من أحد والديهما. أمّا نحن، أطفالي وزوجي وحتى أنا، فنحن يهود أقْحاحٌ، وليس لدينا أيُّ جزء لننقِذه، ماذا سيحدث لنا؟ أيُمكنُك أن تُنبْئينَني يا أوتلا؟ تقولين: «لا أدْري»، بَيْدَ أنّك تدْرين جيّداً، تعرفين ماذا حدث لعائلة غرومبيرغ في فرانكفورت. قيل لإيلْسا غرومبيرغ إنّ آرثر انتحر بعد وقت قصير من اعتقاله. لو انتحر آرثر لكان ذلك تجسيداً لمُتعة العيْش! أنت تعرفين كلَّ هذا، وتقولين إنّك لا تعرفين! أنت التي كنتِ دائماً الأشْجَعَ والأقْوى بيننا، لا تقولين شيئاً، في حين أن الألمان سيدخلون براغ.

ـ فاليري، لديّ أخبارٌ عن ماكس برود.

ـ لماذا لم تبدئي بها؟ أوه! سينتهي بك الأمرُ إلى أن تُفقديني صوابي حقّاً! هل أفلح ماكس في رُكوب القطار؟

ـ في الليلة الماضية استقلّ القطارَ الأخير الذّاهبَ من محطّة ويلسون إلى كراكوف. يَعتقِد أنّه يستطيع بلوغَ تل أبيب من كونستانسا، حصل على واحدة من آلاف التّأشيرات التي يمنحها البريطانيون للأرض المقدّسة. أتتخيّلين، ألف تأشيرة فقط، يُقال إنّ هناك عشرات الآلاف من الطّلبات! يُنقذِنا الإنجليز لِماماً. كان ماكس يتّصل من قرية تُتاخم الحدودَ، لقد عَبَر قبل أن يُغلق الألمانُ الحدود.

ـ نِعْمَ الأمرُ.. نِعْم الأمرُ، أوه، خبرٌ سارٌّ في آخر المطاف! لقد نجا ماكس من الخطر! أَتَرَيْن أنّك تستطيعين حَمْلَ الأخبار السّارّة متى تشائين! قولي يا أوتلا، أكان ينبغي لنا أن نفعل مثل ماكس؟ أتعتقدين أنّه كان يجب علينا أن نرحل؟

ـ مَن يستطيع أن يقول ماذا ينبغي أن نفعل؟ وبعد ذلك هل نستطيع الرّحيل فحسب؟ ما الدّولة التي ترغب فينا؟ إنجلترا تُوصِد أبوابَها وأبوابَ فلسطين.

ـ نسيتِ فرنسا، أنا أودّ الرّحيلَ إلى فرنسا، أو أُمْعِن في الرّحيل بعيداً، ينبغي الرّحيلُ إلى أمريكا!

ـ لم تعُد أمريكا تُصْدِر بالفعل التّأشيرات.

ـ أنت لا تعرفين سوى أن تُنْبِئي بالشُّرور، ماذا سيحدث لنا يا أوتلا؟ أين تُريدِيننا أن نرحل إذا لم يكن هناك مكانٌ نرحل إليه؟

ـ لا أدري يا فالي.

ـ تعودين يا أوتلا إلى قولك إنّك لا تعرفين، ما بَرِحْتِ تُفْقدينني صوابي! سأتّصل بك بعد حين، أُفضّل الِاستماعَ إلى زوجي الذي يقول ليس من الممكن للألمان أن يدخلوا براغ. يقول إنّهم سيعودون على أعقابهم. يقول لا يمكن للعالَم أن يتركنا تحت رحمتهم... أوتلا، لماذا استنْكَفْتِ عن قوْلِ أيّ شيء؟ لا تتركيني هكذا، أنا لستُ مثلَك، أنا ضعيفةٌ، لا أستطيع البقاءَ من دون أن أعرف! تُفكّر مليّاً في خُطّة منذ أشهُر خلت لحماية ابنتيْها. الفكرة بسيطة للغاية، تتمثّل في الِانفصال عن زوجها، ما دام زوجُها ليس يهودياً، ستترك له ابنتيْها. إنّها تعتقد أنّ التخلّي عن ابنتيْها وهما يهوديتان من جهة الأمّ فقط؛ سيُجَنِّبُهما المصيرَ المرْصودَ لليهود، ستتخلّى عن ابنتيْها في سبيل إنقاذهما. تقول في دخيلة نفسها: إذا قُمتُ بِشَطْب الشَّطْر اليهوديّ شَطْباً كاملاً من العائلة، أيْ الشّطر الخاصّ بي؛ فإنّني أصْرِفُ عن عائلتي اهتمامَ قوّات الإس ـ إس بها، وأحفظها منها. أمّا هي فحسْبُها أنْ تَتَوارى.

إنّها تفكّر في ماكس إذْ يوشك أن ينجو من الخطر. طَمْأنَها عبْر الهاتف أنّه حَمَل معه جميعَ مخطوطات فرانتس، حقيبتان مليئتان بالوثائق، الرّسائلُ محفوظةٌ، والمُراسلات مع كافكا، والكُرّاسات، والمُفكّرات. كلّ ما وجد ماكس سبيلاً إلى تجْميعه، والنُّسَخ الأصلية من الرّوايات... لن يُتيح ماكس للغستابو مرّة أخرى أن يستولي على ما تبقّى من هذا الكنْز الذي تسبّبتْ سذاجةُ دورا في ضَياع جُزء منه من قبل. اجتاز ماكس الحُدودَ، ونَجَتْ آثارُ فرانتس، نَجَتْ ذاكرةُ فرانتس. آه! كَمْ تشتاق إلى شقيقها في هذا اليوم! كَمْ كان وُجودُه سيكون مُنْقِذاً، ماذا كان سيُقرّرُ أن يفعل؟

ـ أُمّي؟

ـ نعم، هيلينا.

ـ فيرا لم تعُد إلى البيت بعد؟

ـ ربّما لن تتأخّر، لا تجْزَعي، يا عزيزتي.

ـ أوه! لستُ جَزِعَةً، ولكن..

ـ لكن ماذا يا عزيزتي؟

ـ لكنّ الألمان سيدخلون براغ، أليس كذلك؟

ـ لا تُصدّقي هذه التُّرّهات يا عزيزتي.

ـ ألن يدخلوا؟

ـ ربّما، لكن ماذا في وسعهم أن يفعلوا ضدّنا يا عزيزتي؟

ـ أتدْرين ما يُكرّرُه سيغفريد في مدرستي الثانوية؟

ـ لقد أخبرتكِ سابقاً ألّا تُرافقي سيغفريد.

ـ أنا لا أُرافقُه، لكنّه يقول للجميع إنّ الرّايخ سيكون عمّا قريب هُنا، وأنّهم سيفعلون هنا ما فعلوه باليهود في ألمانيا، ويُكرّر أنّ الأمر ليس إلّا إحْقاقا للحقّ والعدالة منذ العهْد الذي هيمنَ فيه اليهودُ على براغ، واضطهدوا ألْمانَ براغ.

ـ أَسَبَقَ لكِ أنت أنْ اضطهدْتِ ألْمانِيّاً؟ أتعتقدين أنّ خالَك فرانتس، أو جدّك هيرمان قد سبق لهما أن اضطهدا ألْمانِيّاً من براغ؟

ـ بالطّبع لا.

ـ ما الذي تخشينه إذن يا عزيزتي؟ أرجوك كُفِّي عن الاستماع إلى سيغفريد.

ـ أنا لا أستمع إليه، لكن لا يَسَعُني إلّا أنْ أسمعه يقول لبقية الفصل؛ ما أنا إلّا يهوديةٌ قَذِرةٌ، وأنّني سأنال بدوري ذات يوم ما أستحقّه.

ـ ما سيغفريد إلّا وَغْدٌ جاهلٌ، وحسبُك أنتِ أنّكِ تستأهلين أعظمَ سعادةٍ في العالَم يا عزيزتي.

ـ شُكراً يا أُمّي، ولكن يشُقُّ عليّ أنْ أُوضّح لرفاقي بأنّني لستُ يهوديةً قَذرةً، ما عدا إثيل وجريت، بالطّبع.

ـ ليس عليك أن تُوضّحي أيَّ شيءٍ يا هيلينا، لا تُهْدِري وقتَكِ أبداً في تبرئة نفسِكِ من أيِّ شيءٍ مهْما كان.

ـ أتَعِدينَني يا أُمّي... قولي، أأستطيع أنْ أعود إلى المدرسة غداً؟

ـ نعم يا عزيزتي، كلّ ما في الأمر أنّي آثَرْتُ اليوم أن تبقي في البيت.

- كنتِ تخشين أن يدخل الألمانُ براغ؟

- ليس هناك شيءٌ يدعونا إلى الخشية منه يا عزيزتي، لا تجزَعي، عودي إلى غرفتك للدراسة، فأنت في حاجة إلى اسْتدْراك الدُّروس التي فاتك حُضورُها.

تدخل إيلْزي الغُرفةَ، تقول إنّها جاءت لتنفُض الغُبارَ. تتحقّق من أنّ القصيدة السمفونية التي يُذيعُها الرّاديو هي موسيقى من تأليف سميتانا. فجأة تتوقّف الموسيقى، يتردّد صَدى صوْتِ فرانتسيك كوكوريك مُراسل الإذاعة الوطنية، يقول إنّه في ساحة فاتِسْلاف:

«إنّها الثامنة وخمس وثلاثون دقيقة، وقد دخل الألمان براغ، كلّ هذا بمثابة حُلْم مُرعب، مَنْ مِنّا كان سيُصدّق قبل أسبوع أنّ مثل هذا الاِستعْراضَ يمكن أن يغْدُوَ حقيقةً هُنا، في براغ، في ساحة فاتسلاف؟ بعد جنود الفيرماخت، نرى وصولَ الوحدات الآلية. ثمّة مركباتٌ تحمل مدافعَ عملاقةً مضادّة للطّائرات. تدور عجلةُ التاريخ، وما مِن أحد يستطيع إيقافَها...».

- سيّدتي؟

- نعم، إيلْزي.

- أيُمكنُني أن أُغادر اليوم مبكّراً؟

- بالطّبع يا إيلْزي، اليوم يومٌ خاصٌّ.

- عند مغادرتي هذا الصباح أخبرَني أبي أنّ الألمان دخلوا البلاد، ويعتقد أنّ هتلر قد يحتفل بانتصارنا بعد ظهيرة هذا اليوم. على أيّ حال،

هذا ما قيل هذه اللّيلة في دوائر ألْمانِ براغ، وفي الحزب الذي ينتمي إليه أبي. قال أبي أيضاً إذا ما جاء هتلر إلى براغ ظهيرة هذا اليوم؛ فقد يُلقي خطابا في القصر، أو في ساحة فاتسْلاف، وأردف قائلاً إنّ الحَظّ لا يُسْعِفُنا دائماً برؤية الفوهرر، وأنّ عليّ ألاّ أُضيّع هذه الفرصةَ إطلاقاً...، وهناك شيءٌ آخر يجب أن أُخبرك به أيضاً...

ـ على الرّحب والسّعَة يا إيلْزي.

ـ عندما ذهب أبي إلى العمل هذا الصباح، قال لي: إنّ عليّ أن أترك خِدْمتي نهائياً، وقال إنّ براغ ستغدو جُزءاً من الرّايخ، وأنّ القانون في أرجاء الرّايخ كافّة يحْظُرُ على الآرِيِّ أن يعمل عند اليهوديّ. والحال أنّنا آريون، ومن الواضح أنّكِ يهوديةٌ، ويتوجّب عليّ إذن احترامُ القانون.

ـ أتفهّم يا إيلْزي.

ـ شكراً سيّدتي، أيُمكنني أن أنصرف؟

ـ نعم يا إيلْزي، ولكن أودّ منك أن تُغادري المنزلَ حالاً.

ـ أتطْرُدينني؟ سيغضب أبي إذا طردْتِني! لم يسبق لي أن طُرِدْتُ أبداً!

ـ أخبري أباك بأنّ هناك بدايةً لكلّ شيء.

ـ ولكن...

ـ لم يعد هناك مجال للاِعْتراض يا إيلْزي، يمكنك أن تنصرفي.

اِنصرفت المرأةُ الشّابّة وغادرت الغرفة. في الراديو يوضّح فرانتسيك كوكوريك أنّ النّار أُضْرِمَتْ خلال اللّيل في كنيس تيبليتس، في إقليم السّوديت. كانت تفكّر في جميع معابد براغ، وفي كنيس بينْكاس الذي كان

شقيقُها يُحبّ الذّهاب إليه لسماع الأناشيد المُبهجة للحَسيديين الأتْقِياء، وفي كنيس آلت نو الذي أقام فيه طقسَ البارميتسفا، فهل سيُحرقونها أيضاً؟

أطفأت جهاز الراديو وعادت من جديد إلى النّافذة. يكاد الشارع يكون الآن مُقفراً. يبدو أنّ أهل براغ قد تفرّقوا مثل سِرْبٍ من طُيور الدّوري تهجُرُ أغصانَ شجرةٍ بعد طلقةِ بُندقيةٍ. تفكّر في ابنتيْها، في أُختها، وفي مستقبلهنّ الذي طَمَسَتْه كتائبُ قُوّات الأمن الخاصّة في ساحة فاتسلاف. تشعُر بارتياح مفاجئٍ ومُخْجِلٍ لأنّ أبويْها لم يُكابِدا مصيرَ يهود فيينّا القُدامى.

تودّ أن تنْعَم بهُنيهةِ راحةٍ، وتتنفّسَ هواءَ الحُريةِ الأخيرَ. تفكّر في شقيقها، وكان الأمر عندئذ كما لو كان فرانتس معها، يهمس في أُذنِها بكلمات تُسَرِّي الهَمَّ عنها، فيَشْفي روحَها المكلومةَ. لقد غدت براغ هي براغ مرّة أخرى، وأضحى كلُّ شيء هادئاً أخيراً. وشقيقُها بجانبها كما في الماضي عندما كان العالَم لَهُما، عندما كانا يبكيان من فرْط الضّحك. لا ضوضاء يتردّد صَداها. يَكْلَؤُها شقيقُها بعطفه، لم يعُد هناك شيءٌ تخشاه، وذهب الرّوْعُ عنها.

تشخص ببصرها إلى السّماء، وتبْسَمُ للملائكة.

1941

دورا

في نهاية فترة الظّهيرة؛ وما إنْ تفْرَغَ من عملِها حتى كانت تَهْوى الذَّهابَ إلى هذه الرّبوة. جلست بشكل مُريح على الغِطاء الذي سُمِح لها باستعارته من الفندق، الذي كانت خادِمَة فيه، غطاءٍ كان قماشه مُرَقَّعاً جدّاً لدرجة أنّ أيّاً من الزّبائن القلائل لم يكُن يرغب فيه. جالسةً فوق هذه القطعة من العُشب المَجْزوز، تنسابُ الرّيحُ على وجهها، تتأمّل الأمواجَ المُتكسّرةَ ترْتَطِم بالشّاطئ الصّخري. في الأسفل؛ يمْنَحُ تراصُفُ البُيوت الصغيرة في الشّارع الرّئيس في بورت إرين موضِعاً من السّكون السّاحر.

في ضوء النّهار الآفِلِ كان الضّبابُ يتدحْرجُ من التّلال. الأُفُقُ يتجوَّفُ، وبرودةُ الرّيح تشتدُّ. كان طائرُ خُطّاف البحر يعبُر السّماءَ، وطيورٌ بيضاءُ أخرى كبيرةٌ تغوص فجأة في الموْج، ثمّ تعود إلى الضّوء، كما لو كانت تُنْزَعُ من الزَّبَد.

عندئذ تذكّرت الرّحلةَ البحريةَ على متْن السّفينة التي قادتْها إلى هُنا. تتذكّر الأمواجَ العاتيةَ ومقصورات الدّرجة الثالثة في هذه السّفينة الرّديئة، حيث كان عليها هي وابنتُها أن تتكدّسا معاً وسط مئات اللّاجئين اليهود الآخرين تحت مراقبة جُنودِ التّاجِ البريطانيّ الصّارِمَةِ. تساءلت عَمّا إذا

كانت قد عاشت كلَّ هذه الحيوات لتُنْهي أيّامَها في أرْضٍ كَنودٍ، مُسَيَّجَةٍ بالأسلاك الشّائكة، ضائعةٍ في بحر إيرلندا.

استعادت في ذهنها الرّحلةَ من موسكو، وتَأَسَّتْ وهي ترى أنّها كانت محظوظةً حَظّاً هائلاً، سلسلة من تقلُّبات القَدَر المُعجزة. وقالت في قرارة نفسها أيضاً: لم يُتَحْ للنّاس كافّة ما أُتيح لي من حَظٍّ. فكّرت في بيدزين[1]، في الأيّام الأولى من الحرب، في وصول القُوات الألمانية. لقد رُوِي لها ذلك، ولم تُصدّق أنّه ممكنٌ، وقالت لنفسها: لا، حتى الألمان غير قادرين على ارتكاب مثل هذه الوحشية. ومع ذلك كانت تعرف جيّداً الجرائمَ التي يستطيع الألمانُ ارتكابَها، لقد رأتهم يقترفونها في برلين. ولكنّها لم تستطع أن تعتقد أنّ مثل هذه الوحشية أمرٌ ممكنٌ. حتى اليوم، وبعد انصرام أشهر، عندما أكّدت مصادر متعدّدةٌ متطابقةٌ هذه القصّةَ التي تُمثّل أسوأ الفظائع، كان يحدث لها أحياناً أن تجد نفسَها عاجزةً عن تصديق أنّ الأمر كان من الممكن أن يقع على هذا النّحو. لقد أُحْرِقَت عائلتُها برُمّتها وهي حَيَّة، ولم تُوَفَّق إلى تصديق ذلك، ولم تعتقد أنّ من الممكن أنْ يُجَمِّع الألمانُ مائتي يهودي في الكنيس الكبير في المدينة، من ليلة الثامن حتى التاسع من سبتمبر 1939، بعد أيّام قليلة من وصولهم إلى بدزين. كانت شقيقاتُها وأشقّاؤُها، والأطفالُ الذين أنجبهم والدُها من زوجته الثانية، كانت عائلة ديامانت بأكملها ـ ما عداها ـ مُحَشَّدَةً بين عائلات أخرى في الكنيس. كان الألمان قد أغلقوا البابَ الرّئيسَ من دون أن يُحْكِموا إغلاقَه، وبعد ذلك أضرموا النّارَ في المكان، فهَلَكَت عائلتُها بأكملها مُحترقةً.

---

(1) ـ بيدزين (بولونيا): المدينة التي انتقلت إليها مع عائلتها بعد موت أُمّها، وتوجد بالقرب من الحدود الألمانية.

يكمُن عزاؤُها الوحيدُ في أنّ أباها توفي قبل عام من وصول الألمان، ولم يُحْرَق أبوها حَيّاً في الكنيس الذي كان يأخذ إليه أبناءَه للصّلاة. هكذا كانت تَتَأسّى من اغتيال الألمان لعائلتها بأجمعِها حَرْقاً بالنّار في بيدزين، من ليلة الثامن إلى التاسع من سبتمبر 1939، في الأيّام الأولى للحرب.

حتى على هذه الأرض اليَباب الضّائعة وسط بحر إيرلندا، لم تستطع أن تشِكو همَّها. عرفت كيف تُغادر الاتحاد السوفياتي قبل أن تعتقلها مفوضية الشّعب للشّؤون الداخلية. لقد فرّت مع ابنتها من الاتحاد السوفياتي كفرارهما من برلين من قبل. هل الحياةُ هُروبٌ أبدِيٌّ؟

من سيفاستوبول استقلّتْ مجموعةً من القطارات، وشاهدت مناظر طبيعية لا نهاية لها، واجتازت شبه جزيرة القرم ورومانيا وصربيا وكرواتيا وإيطاليا. وكانت سويسرا قِبْلَتَها النّهائية. كانت سويسرا ملاذاً آمناً. الأُمُّ والبنتُ، ماريان وهي؛ ستكونان في سويسرا سالمتيْن آمنتيْن. ستكُفّان عن الهروب في سويسرا، وستبدأ الحياة من جديد، في بُحيرة جُنيف أو في جبال الألب الشّامخة، الحياة في الهواء النّقيّ، وتتمكّنان أخيراً هي وابنتُها من التّنفُّس. لكنّ السويسريين طردوهما، الأمّ وابنتها. وكان لسويسرا من قبل نصيبُها من اللّاجئين اليهود. لقد أبعدتهما سويسرا صوب فرنسا، وقِبلَتا في فرنسا. كانت فرنسا أرضَ اللّجوء، وبَلَدَ الحُرية، لكنّها حَدَسَت بأنّ عليها ألّا تبقى في فرنسا. لقد شهدت ممارسات الرّايخ، واعتقدت أنّ الرّايخ سيسحق فرنسا، فَقصدتْ بالفطرة دونكيرك وهي تنْوي العُبورَ إلى إنجلترا. لقد تراءت لها إنجلترا مُنْتَهى سعيداً لرحلتها التي عبَرت فيها أوربا.

من دونكيرك حاولت في خمس مناسبات النّفاذ إلى إنجلترا، وكانت تُبعَدُ في كلّ مرّة. كان الإنجليز يوضّحون أنّهم لا يستطيعون قَبولَ المزيد

من اليهود على أراضيهم، وأبانوا أنّ الإفراط في التّسامح قد يُساهم في صعود حزب موسلي المؤيّد للنّازية. ولتجنّب حزبٍ مؤيّدٍ للنّازية في مناصب السّلطة قامت إنجلترا بإبعاد اليهود. عبَرت دورا الحدودَ نحو هولندا، وكانت أختُ زوجها لوتس تعيش في أمستردام. يمكنها أن تُقيم فيها لحين من الوقت، وقْتٍ تلتقط فيه أنفاسَها.

ظلّت مقتنعة بأنّ عليها الفرارَ من أمستردام ومن القارّة، مثلما كان عليها مغادرة فرنسا. كانت تتوقّع أنّ هولندا ستكون كفرنسا فريسةً سهلةً للرّايخ، كانت تخشى أن تُحرَق حَيَّةً مع ابنتها في كنيس أمستردام الكبير، كما أُحرِق إخوتُها وأخواتُها في بيدزن.

ويا لَفرحتِها، في 16 ـ مارس ـ 1939، غداة غزْوِ براغ؛ كانت تفكّر أيضاً في أوتْلا، عندما أذِنَت لها مصالحُ الهجرة البريطانية أخيراً ـ بعد خمْس محاولات عقيمة ـ بالدُّخول إلى الأراضي البريطانية! لقد أفلحت، وتغلّب عِنادُها على عِناد الإنجليز في عدم السّماح لها بالدّخول. نَجَت من الرّايخ الذي كان يتعقَّب خُطُواتها. دونها خَرْطُ القَتاد. لقد أقامت بحْرَ المانش بينها وبين هتلر، ولن يستطيع الألمانُ أبداً عُبورَ المانش. بمُستطاعها أن تتنفّس الصُّعداءَ في آخر الأمر.

وفي الثالث من سبتمبر سمِعَت ـ بارتياح عميق، وبواسطة صوت الملك ـ العالَمَ الحُرَّ يُعلِن الحربَ على ألمانيا. كان هتلر خاسراً، وكانت فرنسا وإنجلترا تنزعان لِشَنّ الحرب.

ولكن بعد مرور بعض الوقت على خطاب الملك؛ اسْتُدْعِيَت إلى مركز الشّرطة، وأُبْلِغَت أنّ قانوناً جديداً اعْتُمِد لفائدة خمسة وسبعين ألف لاجئ

ألماني ونمساوي، معظمهم يهودٌ. وخُتِم على جواز سفرها عبارةُ «*Alien Enemy*».

تشمل هذه العبارة ثلاثَ فئات. أمّا هي فصُنِّفَت في الفئة (ب). كان يتوجّب على «الأجانب غير المرغوب فيهم» لهذه الفئة ـ وهم أقلّ خُطورة من أولئك الموجودين في الفئة (أ)، ولكنّهم أكثر تهديداً من أولئك الموجودين في الفئة (ج) ـ أن يبقوا تحت المراقبة.

وفي 15 مايو 1940، تشدّد مجلسُ اللّورْدات في القانون، فقرّروا ترحيلَ «*الأجانب الأعداء*» من فئتها (ب) وأولئك من الفئة (أ) إلى جزيرةٍ في بحر إيرلندا.

في 30 مايو أُجبِرَتْ هي وابنتُها، مع ثلاثة آلاف امرأة وأطفالهنّ، أغلبيتهنّ من اليهود الألمان، على رُكوب عبّارة لبدْءِ رحلةِ عُبورِ البحر الإيرلندي ـ وهو بحْر هائجٌ ـ صوب جزيرة مان التي أُقيم في جنوبها مُعسكرٌ للنّساء. أمّا الأفراد الذّكور من الفئة (ب)، إلى جانب كلّ الأشخاص الأكثر تهديداً من الفئة (أ)، فأُبْعِدوا إلى ثلاثة مُعسكرات أخرى في أقصى الشّمال، وهي معسكرات هاتشينسون، وأونسان، وبيفريل. كانت صفوفٌ من الأسلاك الشّائكة تمنع اللّاجئين من مغادرة معسكر روشْن، أمْ أنّ الحواجز أُقيمَت لِمَنْع السُّجناء الذُّكور في معسكرات الشمال من الدُّنُوّ من السّجينات؟

لكنّها عومِلَت معاملة سليمة، فلم تُصَبْ بأيّ أذى، ولم تشْتَكِ من أيّ شيء، وإلّا لكانت ناكرةً للجميل، ودورا ديامانت ليست ناكرة للجميل على الإطلاق.

وعندما سُئِلَت عن ماضيها كذَبَت، لم تذكُر أبداً مُقامَها بموسكو، ولا

انتماءها للحزب الشيوعي الألماني، إنّ كُرههم للشّيوعيين يكاد يكون معادلاً لكُرههم للنّازيين. كانت قد أدْلَت لهم: أنا أُمٌّ، هربتُ من برلين، وأستطيع مُزاولة كلّ المهن. هذا كلّ ما في الأمر.

مَنْ كان يستطيع، فضلاً عن ذلك، أن يُصدّق قصّتَها الحقيقية؟ طاردها الغستابو لأنّها يهوديةٌ، ولاحقتْها مُفوضيةُ الشّعب للشّؤون الداخلية لأنّها تروتسكيةٌ، وأبعَدَها الجنودُ الإنجليزُ مع ابنتها، بناءً على أوامر حُكومية، خلف الأسلاك الشّائكة، لأنّها كانت تُمثّل تهديداً للتّاج البريطاني باعتبارها ألمانية.

عَلِمَت مُؤخّراً أنّ إرنست فايس، الكاتب والطّبيب صديق فرانتس، الذي التقت به في برلين عدّة مرّات؛ قد انتحر بإطلاق النّار على رأسه في أحد فنادق باريس، يوم دُخول الألمان إلى العاصمة، كي لا يقع في قبضتهم. وانتحر فالتر بنيامين لأسباب مُماثلة، بالقُرب من الحدود الإسبانية.

كانت تقول أحياناً في قرارة نفسها إنّ المشكلة تكمن في أنّها تعلّمت الكثير من الحياة، وأنّ الوعْيَ الشّديد بالمِحَن يُؤْذي الخِبرةَ العميقةَ بالعالَم.

ولكن كانت ثمّة أخبارٌ سارّةٌ، لقد علمت من شخص التقت به في لندن قبل أشهر؛ أنّ روبير سالِمٌ غيرُ مُصابٍ بأذى، لقد أفلح في تحقيق المستحيل عندما رحل إلى أمريكا.

فكّرت وهي تتأمّل الأُفُقَ الضّبابيَ، لقد نجا روبير. خطَرَتْ في بالها أوتْلا. ثمّة شائعاتٌ رهيبةٌ تأتي من براغ، وقيل إنّ المدينة طفقت تُفَرَّغُ من يهودها، مثلما أُفْرِغَتْ منهم برلين وفيينّا. وزعموا أنّ هتلر قد توعّد بأنْ لنْ يبقى يهوديٌّ واحدٌ، قبل نهاية عام 1941، في العواصم الثلاث للرّايخ، برلين وفيينّا وبراغ. وكانت تؤثِر ألّا تُصدّق مثل هذه الفظاعة. جعلت هذه

الأحداثُ النّاسَ يفقدون صوابَهم. لم تكن تودّ أن تصدّق هذه الفظائع. وكان الخيال أحياناً يذهب بها مذهباً بعيداً، فتتوهّم أنّ أُسرتَها وإخوتَها وأخواتها يُنفقون أيّاماً سعيدةً في انتظار أن تضع الحربُ أوزارَها.

كانت سالمة آمنةً مع ابنتها، كانتا شخصيْن غير مرغوب فيهما تحت مراقبة جُنود التّاج البريطاني الصّارِمَةِ، في خضمّ بحر إيرلندا. في بعض الأماسي، حين تستبدّ بها الرّغبةُ في البُكاء على مصيرها، كان صوتٌ نحيفٌ يهمسُ لها: قَدِّري حَظَّكِ يا دورا ديامانت، لو مَكَثْتِ في برلين لكُنْتِ قد اعتُقِلْتِ، ولو لم تكوني رحلْتِ عن بيدزين، لكُنتِ قد أُحْرِقْتِ حَيَّةً، ولو كنت بقيتِ في موسكو لكنت قد أُرْسِلْتِ إلى سيبيريا. لقد ظلّت دائماً تحتفظ بفرشاة فرانتس. اِرْتَحَلَت الفرشاةُ معها من كيرلينغ إلى برلين، ومن برلين إلى موسكو، ومن موسكو حتى دونكيرك، وفي رحلة عُبور المانش حتى لندن، وفي الرحلة التي قامت بها مؤخراً إلى بحر إيرلندا. عندما كانت الأوقاتُ عصيبةً جدّاً، كانت تدُسُّ يدَها أحياناً في حقيبتها، وتضغط على مقبض الفرشاة بين أصابعها، بالطريقة نفسها تقريباً التي كانت ستتعلّق بها بذراع فرانتس لو كان حاضراً بجانبها.

«أيُمكنني الجلوسُ بجانبك؟».

جعلها صوتُ المرأة خلفها تنتفض. كانت السيّدة س. صاحبة الفندق الذي كانت تعمل فيه. أومأت بإشارة من رأسها أَنْ نعم. كانت تحبّ السيّدة س. ونادراً ما كانت تسنح لها الفرصةُ للحديث معها. كانت هذه المرأة التي يصعُب تقديرُ سِنِّها، والتي شاب شعرُها، وتُدير الفندقَ بقبضة من حديد؛ تُخاطبها أحياناً لتُعطيها أمْراً فَحَسْبُ، أو ملاحظة حول طبيعة عملها. كان الغبار هو وسواسها، لم يكن الغبار يُنْفَضُ نفْضاً كاملاً أبداً. «تعالي

يا سيّدة دورا، انظري هنا وهناك، هذه الآثار، ليس الأمر عسيراً على أيّ حال. إنّك تعملين من أجل ألّا تتركي أثراً للغُبار، بينما أنت تفعلين عكس ذلك. يُخَيَّل إليّ أنّني أدْفَعُ إليك لِقاءَ تَرْكِ آثار الغُبار. وحتى لو كنتُ أُقِرُّ بأنّ الأجْرَ المُؤَدّى عن هذا العَمَل هو أجْرٌ زهيدٌ، ولكنّنا نعيش أيّامَ الحرب، أليس كذلك؟ وأنتِ لستِ عاملةً كالآخرين، فلسْنا نحن في آخر الأمر مَن اسْتَقْدَمَكِ، ولو لَمْ تمْنَح لي الحُكومةُ البريطانيةُ خمسة شِلنات في اليوم لإيوائك؛ ما كنتُ لأستقبلكِ في فُندقي. ستعتذرين مرّة أخرى عن الغُبار، لكنّني لا أكترث بأعذارك. فليست أعذارُك هي التي ستُزيل آثارَ الغُبار خلفك. تعالي، سأُريكِ... إذاً، أَما زلت تَريْن الغُبارَ؟ أتجدين هذا الأمرَ عسيراً؟ ذكّريني بالمهنة التي تُزاولينها، مُمثّلة! أتُسمّين هذا مهنة؟ حسناً أيتها السيّدة الممثّلة، سأطرح عليك سؤالاً، هل تترك الممثّلة آثارَ الغُبار؟ لا، ما مِن مُمثّلة تتركه، أو تتركه الممثّلات الكبيرات إذاً، أولئك اللّائي لديهنّ موهبة خارقة، أمّا الأخريات فما مِن واحدة منهنّ تتركه! آه، إنّك تبتسمين أخيراً، لقد فاجأتُك أليس كذلك، تقولين في دخيلة نفسك: «ربّة الفندق امرأة عجوز مغرورة ومُضحِكَة، تعدم حِسَّ الدُّعابة»، ثمّ إنّي أُحبُّ رؤيتَك تبتسمين يا دورا، أودّ أن أراك تُمْعِنين في الابتسامة. لكن ينبغي أن أقول إنّ ما يُفرَضُ عليك هُنا ليس سارّاً للغاية. هكذا كانت السيّدة س. تتحدّث أحياناً، عندما كانت تتوجّه إلى دورا.

ـ «أتسمحين لي بالجُلوس؟».

مكتبة ياسمين

كرّرتْ ذلك اليوم.

ـ بالطّبع.

تلعثمت دورا وارتبكت، وانسابت عن الغطاء لتُفسِح المجالَ لها.

ـ يبدو المنظر من هنا رائعاً، أليس كذلك؟

ـ «إنّه رائع!». وافقت دورا.

قالت السيّدة س.: ـ أفترض أنّك حزينةٌ لأنّ هاني رحلت عن الجزيرة. ألَمْ تكُن صديقتَكِ؟

فأجابت إنّها على العكس من ذلك، كانت مسرورة بهذا الرّحيل، ورحيل مئات اللّاجئين الآخرين، لاسيما أنّ هاني كانت صديقتَها، وأنّها لم تكن تُريد لها إلّا الخير. كانت سعيدة كلّ السّعادة، ذلك أنّ هاني وزوجها استطاعا في آخر المطاف أنْ يَلْحَقا بلُندن. لقد سَعَدَت لأنّهما بُرِّئا من كلّ الشُّبُهات، ونُقِلا من فئة *الأجانب الأعداء* (ب) إلى الفئة (س)، بعد تحقيق طويل كانا قد يَئِسا من نتيجته.

ـ بيْد أنّك من دون هاني ستشعُرين بالوحدة، أليس كذلك؟

ـ كُنّا قد تقاسمْنا بالطّبع أُموراً كثيرة، منها الضّحك ومنها البُكاء. لكنّ هاني اليوم غَدَتْ حُرّة طليقةٌ. لا شيء آخر يهُمّ.

أمّا عُزلتُها الشخصيةُ فأمرٌ يهون عليها، وعلاوة على ذلك فهي لم تكن وحيدة، بل كانت معها ابنتها ماريان.

وافقت السيّدة س.: ـ نعم، بالطّبع، لديك ماريان... لكن أنتِ بالذّات، أقصد ملفَّكِ، هل يُحرز فحصُه تقدّماً، هل تُواتيك الفرصةُ للانتقال أخيراً إلى وضع الفئة (س) غير المرغوب فيها؟ أجابت بالإثبات، كانت ثمّة فرصة، أوه! إنّها فرصة ضئيلة جداً، لكنّها فرصة على أيّ حال.

ـ ما هذه الفرصة الصغيرة؟

ـ «حسناً»، أوضحتْ دورا، «هل أنبأْتُكِ بأنّي كنتُ متزوّجةً من كاتب منذ سبعة عشر عاماً من الآن»؟.

ـ نعم، لقد أخبرتِني بهذا، ووجدتُ الأمر رومانسياً للغاية، ممثلة مع كاتب. واصِلي... بيّنت دورا أنّ طالبة أدَبٍ من لندن اتصلت بها مؤخّراً، تُدعى إلسي سراويتس تُعِدُّ أُطروحتَها عن الكاتب فرانتس كافكا. مَنْ يدْري كيف علِمَت إلسي سراويتس في صيف 1941 أنّ زوجة الكاتب فرانتس كافكا كانت مُحْتَجَزَةً في جزيرة مان، قد يُسمّيه البعضُ معجزةً، فعزمت على مساعدتها بمشاركة أستاذتها في الفلسفة، وهي سيّدة كانت تعمل منذ سنوات في استقبال اللّاجئين. كانت الشّابّة والأستاذة قد قامتا بمَساعٍ لدى السُّلُطات. أمّا معرفة ما إذا كانت هذه المَساعي ستنجح، فتلك قصّة أخرى...

قالت السيّدة س. متحمّسةً: ـ أنا متيقّنة من أنّ هذه المساعي ستنجح! وإذا فهمتُ القصّة بأكملها فهْماً صحيحاً إلى حدّ ما، فسيتأتّى ذلك بفضل زوجك الأوّل الكاتب، ذكّريني باسمه.

ـ كافكا، فرانتس كافكا.

ـ نعم، ستُعانقين أنت وابنتُك الحريةَ... وسيتأتّى ذلك بفضل فرانتس كافكا، وبفضل ما أثاره في الطّالبة من اهتمام، إنّ قصّتك لقصّةٌ رائعةٌ، قصّة عجيبة حتّى، ألا تعتقدين ذلك؟ لم تُوَفَّق دورا إلى أن تنبس بكلمة، كانت الدّموع تجْري غِزاراً على خدّيْها، أخرجت السيّدة س. منديلاً ووضعته برفق لِتُكَفْكِف دموعَها.

ـ تستطيعين أنْ تبْكي يا دورا، هَيّا، لِتبْكِ عينُكِ. فلا بُدّ للشَّقاء أن ينجَلي، مثلما تعرفين.

خاتمة

1972

روبير

وضع توقيعَه أسفلَ تقريرِ استشفاءِ جاك ر. فورستر؛ راضِياً عن العملية التي أُجْرِيَتْ على نحو صحيح، على الرغم من الصعوبات الجراحية المرتبطة بطوبوغرافيا الشُّعَبِ الهوائية وحَجْمِ وَرَمِها. وقد قام طبيبُ التّخدير صمويل ليفين بعمَل جيّد. أمّا إرفين سليغمان المُساعِد الواعِدُ في القِسم؛ فبمستطاعه أن يغتبط لأنّه غدا وريثَه في وحدة جراحة الصّدْر في المشفى الإداري للمحاربين القدامى في بروكلين.

قالت السيّدة غلاديس وهي تدخل المكتبَ وتضع القهوةَ التي كانت عَرَضَتْ إعْدادَها قبل لحظات قليلة: ـ بروفسور كلوبتسوك، أذكِّرُكَ أنّ الحفْل الصّغير سيُقام في قاعة الدّروس خلال ثلاثين دقيقة.

ـ شكراً غلاديس، سآخُذ ذلك بعين الاعتبار.

ـ من دون سُكّر دائماً؟ ـ «دائماً»، أجاب وهو يبتسم، قبل أن يُضيف، بينما عادت السّكرتيرة نحو الباب:

ـ سيّدة غلاديس، أيُمكنني أن أطرح عليكِ سؤالاً؟

ـ أنت لا تطلب الإذْنَ عادةً يا بروفسور.

ـ أودُّ أن أعرف؛ هل كنتُ في نظركِ رئيساً صارِماً طوال كل هذه السّنين؟

ـ أأنتَ صارِمٌ! يا لَلْعَجَب! لا، يا بروفسور كلوبتسوك! أعلمُ أنّ السيّدة هيتنغتون قد ظنّتْ ذلك، وقد أَشْعَرَتْكَ به. لكن لا، لا تُغادِرْ مشْفانا وأنت تحمِل هذه المشاعرَ المُغيظَةَ. لقد كنتَ جرّاحاً يُكِنُّ له مرضاه وزُملاؤُه وطُلاّبُه الحُبَّ، كنت أستاذاً مُتشدِّداً، وأحياناً كنتَ تُمْعِن في التشّدُّد، هذا صحيح، بَيْد أنّك كنتَ دائماً عادِلاً، وأنت تعلم، فضلاً عن ذلك، أنّ القوم هنا كافة مولعون بك.

ـ ما عدا السيّدة هيتنغتون؟

قالت وهي تقهقه:

ـ وربّما أيضاً صمويل ليفين...، إذا لم تكن لديك أيُّ أسئلة أخرى فسأعود لأُرَتِّب أوراقَك. إنّ فَرْزَ كُلّ الأوراق مهمّة جسيمة، هل لا بُدّ لي أيضاً من إخلاء المكتبة؟

ـ لا، يا غلاديس، الكُتُبُ ينبغي أن تبقى. سيصْطَفي إرفين ما سيحتفظ به منها، أمّا فيما يتعلّق بالأوراق، فلا تُنْفِقي الصّباحَ في فرْزِها، لقد أنبأْتُك من قبل، بإمكانك التخلّص من كلّ هذه الأوراق القديمة.

ـ كما تشاء يا أستاذ. أوصدت البابَ خلفها.

دقّت ساعةُ الحائط سِتَّ مرّات. بعد نصف ساعة سيترك نهائياً وحْدَةَ جراحة الصّدْر التي كان يُديرُها منذ عُقود. كان لأساليبه الجراحية أتباعٌ كثيرون عبر العالم، وجعلتْ منه أحدَ المُتخصّصين العالَميّين في العِلاج

الجِراحيّ لإصابات داء السُّلّ. كان قد نال جميعَ أصناف الميداليات، ولا يزال يُدْعى إلى مختلف النّدوات. بدا له أنّه أنفق كلَّ هذه السّنين بين جُدران غرفة العمليات الأربعة، وفي يده مِبْضَعٌ. أمّا الآن فيستطيع أن يُنْهِيَ أيّامَه رَاضِيَ البالِ مع جيزيل، في شقّتهما في نيويورك، في 60 ويست شارع 57.

قال له من جديد صديقُه ملفين ميرسون: ـ ستكون قادراً أخيراً على الكتابة.

ـ لقد كتبتُ كثيرا من قبل يا ملفين.

ـ لا أتحدّث عن مقالاتك العلمية يا روبير، إنّما أعني كتابَ حياتِك، كتابَ لقاءاتِك، كتابَ قصّتِك يا روبير! لم يكن راغباً في كتابة قصّته، ولم يكن يُحبّ أبداً أن يعود إلى ماضيه، ولم يكن لِيَبْدَأَ وهو يُشارف عامَه الثالث والسّبعين. وعلى الرغم من إصرار السيّدة غلاديس فإنّه لم يكن يودّ أن يحمل أيَّ شيء من هذا المكتب الذي انْتَثَرَتْ فوقه الذّكرياتُ.

هل انتظر طويلاً قبل أن يترك عملَه؟ لم يشعُر أبداً بوطأة السّنين، وكان يُخيّل إليه أنّه عاش كلّ عملياته الجراحية ـ حتى آخر عملية منها ـ مثل صراعٍ ضدّ الدّاء وضدّ نفسِه. كان كلّ مريض يموت على طاولة العمليات يحمل وصْمَةَ عارِ الهزائم الكُبرى، وكان كلُّ مريض يُشْفى بمثابة شَميمِ شَذا انتصارٍ؛ لم يكن الوقتُ يُسْعِفُ بالتّمتُّعِ به.

كان ملفين ميرسون يقول له:

ـ أنت تتمتّع بصحّة جيّدة يا بوب، وليس هناك عُمْرٌ يغْدو فيه المرءُ كاتباً.

ـ يُمكنُك أن تتحدّث دائماً يا ميلفين، فهذا شأنٌ لا آبه لَه! من الواضح أنّ هناك عُمْراً للكتابة، وهذا الشخص الذي شهِد كافكا يُحْتَضَرُ هو الذي يُؤكّد لك ذلك: يولَدُ المرءُ كاتباً ويموت كاتباً. علاوة على ذلك فهو لم يختر ألّا يكون كاتباً، لم يُرْجِئ ذلك، لو كان كاتباً لكان كتب بِيَدٍ، وبَضَعَ باليد الأخرى، لكنّه كان سيكتب. لقد كان كافكا مُخطئاً، فهو لم يكن تلميذاً لديستويفسكي، ولا حَوارِياً للمسيح. وحتى لو قيل أحياناً إنّ يديْه كانتا تجترحان المعجزات بعد أن يفْرَغ من إجراء عملية جراحية. وحتى لو كان أيضاً قد اختار مع جيزيل أن يتحوّل في الخمسينيات عن دينه ويَرْتَدَّ عنه في سبيل دينٍ آخر، مثلما كان قد فعل فرانتس ويرفيل، أو ألفريد دوبلين.

ما عاد يُريد أن يشعُر بأنّه يهودِيٌّ. لقد أهلك هتلر يهودَ أوربا، وأفنى يهود برلين وفيينّا، ويهود بودابست وبراغ، وأباد يهودَ بولونيا، وقتل أربعمائة ألف يهوديّ مَجريّ خلال أشهر قليلة قبل نهاية الحرب. خَسر هتلر الحربَ ضدّ الحُلفاء، لكنّه انتصر في الحرب على اليهود. أكان تحوُّلُه وتحوُّلُ جيزيل دليلاً على الشّجاعة، أمْ على الجُبْن القَميء. أرادا أن يتحرّرا من هذه القصّة، حتى لو كانا يعلمان أنّ صنيعَهما لا طائل منه.

إذا عاد إلى الوراء ستتراءى له حياتُه التي أمضاها في أوربا مقبرةً. كان أقاربُه في بودابست قد قُتِلوا، مثلما قُتِل العديدُ من أصدقائه في برلين. لقد ماتت الآنسة جالكون التي تعرّف إليها في مصحّة ماتلياري، بسبب الغاز في أوشفيتز، ولَقِيَتْ المصير نفسه غريتا بلوخ، صديقة فيليس باور، التي أَلْهَمَت شخصيةَ الآنسة بورستنر في *(المحاكمة)*. وكان شتيفان تسفايغ قد انتحر. وبنيامين الذي لطالما تحدّثنا عنه في برلين؛ انتحر أيضاً. وكان قد علِم كذلك أنّ معظم المُشاركين في النّدوة التي أُقيمَت في منزل روبير

ويلتش قد قُتِلوا. أمّا فالي وإيلي كافكا فأُبْعِدَتا إلى غيتو وودج، عندما بدأ إبْعادُ اليهود من براغ. أمّا أوتْلا الأثيرة عنده كلَّ الإيثار فقد تمكّنت خلال فترة طويلة من أن تَفْلِت من المُداهمات بعد أن انفصلت عن زوجها أَمَلاً في إنقاذ ابنتيْها. لقد قُبِض عليها في أغسطس 1942، وأُبعِدَت إلى تيريزينشتات واحتُجِزَت فيها، وهي مدينة مُحصَّنَةٌ تحوّلت إلى معسكر، تقع على بعد زهاء خمسين كيلومتراً من براغ، وكانت تصل إليها بانتظام قوافلُ الآلاف من اليهود. غدَت تيريزينشتات مَحْشَراً للبشر، تعُجُّ بالسّكان الجائعين تُرعِبُهم قوات الإس ـ إس، ويفتكُ التيفوس بهم. ولكنهم حافظوا على ما يُشبه الحياة لأنّ جزءاً صغيراً من المخيّم كان مخصَّصاً ليكون واجهةً للمُعسكرات الألمانية، حيث كان من المفروض أن يعيش اليهودُ في سلام ورفاهٍ على نفقة السّكّان الألمان. إنّ المّمثّلين من الرّجال والنّساء والأطفال والشّيوخ؛ الذين أُجْبِروا على أداء هذا العَرْض المُرْعِب؛ قد قُتِلوا على نحو منتظم من خلال قوافل تتّجه إلى أوشفيتز، وكأنّهم «بدؤوا من جديد».

كانت أوتلا تعمل ممرّضة في دار الأيتام بالمخيّم. في الثالث من يوليوز عام 1943، وفي الذّكرى السّتّين لميلاد فرانتس كافكا ـ وقد عَلِم روبير ذلك من شهادات متطابقة ـ كان الألمان المعروفون بمكيافيليتهم الفظيعة قد أَذِنوا للمُبعَدين بتنظيم عُروض صغيرة داخل قاعة، وكان شخصٌ يُدعى نوربرت فريد قد قدّم محاضرةً احْتِفاءً بذِكْرى الكاتب، وعَمِل على تقديم مسرحية صغيرة مستوحاة من *(المحاكمة)*. لقد تطابقت الشّهادات في أنّ أوتلا كانت حاضرة في ذلك اليوم. أمّا الأستاذُ الذي كان قد طلب منها أن تأتي وتتحدّث عن حياة شقيقها أمام الحُضور؛ فإنّها امتنعت وعَدَّتْ ذلك أمراً غيرَ ضروريٍّ.

في منتصف أغسطس 1943 حطّتْ بالمعسكر ناقلاتٌ تحمل ألف طفل يهوديّ بولندي، وكان من المفروض أن يُمثّلوا ورقةَ مُساومةٍ في «صفقة» افتراضية مع الحُلفاء. لعلّهم كانوا من بين آخر الأطفال اليهود الباقين على قيْد الحياة في بولندا. وعند وصولهم أَبَوا لحين من الوقت الذّهابَ إلى أماكن الاِستحمام التي اقْتِيدوا إليها. كانت هذه الفكرةُ بالذّات تُرعبهم، لأنّهم كانوا يعرفون.

أنفق الأطفالُ عدّة أسابيع في تيريزينشتات، وعومِلوا باعتبارهم غنيمةً ثمينةً. لقد تأقلموا مع المكان، ولكن هل امتنع الحُلفاءُ عن دَفْع ثمن آخرِ أَلْفِ طفْلٍ يهوديٍّ بولنديّ؟ باءت المُساومات بالفشل، فقرَّر النّازيون إبعادَهم وطلبوا مُرافقين من أجل ترحيلهم. عَرَضَتْ أوتْلا مُساعدَتَها. في الخامس من أكتوبر 1943 كان ألف ومائتان وستّون طفلاً يهودياً بولندياً ومرافقوهم الثلاثة والخمسون، ومن ضمنهم أوتلا كافكا؛ جُزءاً من قافلةِ نقْلٍ تتّجه إلى أوشفيتز. لقد قُتلوا جميعاً بالغاز عند وصولهم.

كان يودّ طَيَّ صفحة هذه القصّة، ولكن أيستطيع المرءُ أن يُغْرِقَ أُصولَه في نَزْرٍ من الماء المُقدّس؟ لم يكن، في الحقّ، يدْري شيئاً عن ذلك.

دَلَفَتْ غلاديس إلى الغرفة من دون أن تطرق البابَ: ـ «معذرة يا بروفسور»، قالت بلهجة غاضبة، «لن تتخلّص من هذه!».

وضعت بالقرب منه بعضَ الأوراق المنسوخة على الآلة الكاتبة، ومكثت واقفة أمامه، تَشي هيئتُها بالاِستنكار، وذراعاها متقاطعتان.

ألقى نظرة على الورقة الأولى، ثمّ نظر إلى الورقتيْن الأُخريَيْن، وقال وهو غير قادر على أن يَكْتم ابتسامتَه:

ـ أنتِ على حقّ يا غلاديس، هذه سأحتفظ بها.

ـ «أُفضّل ذلك»، قالت وهي تخرج ثانية.

ظلّت الرّسائل الثّلاثُ المُؤطَّرَةُ بالقرب منه مُعلَّقةً على جُدران مكتبه خلال فترة طويلة، ليس لأنّه اعتبرها غنيمةً، بل لأنّها كانت تُذكِّرُه بأيِّ حَبْلٍ يُمكن أن تعتصم به حَياةٌ ما. وكانت حياتُه تعْتَصِمُ بسُمْك حَبْلِ هذه الرّسائل الثّلاث. تريَّثَ عند الرّسالة الأولى، ونظر مَلِيّاً إلى التّوقيع في ذَيْلِها، والإشارة إلى برينستون في رأسِها. لم ينظُر فيها منذ أعوام عديدة. وتمهّل في قراءتها:

رسالة موجَّهَة إلى البروفسور، الدكتور إدغار ماير

470 بارك أف.

نيويورك.

عزيزي البروفسور ماير:

لقد علمتُ من البروفسور توماس مان مدى الاِهتمام الكبير الذي أبديتَه لوضْعية صديقنا المشترك الدكتور كلوبتسوك. ومن جهتي أودّ أن أسألك إذا كنتَ تُوافق على استعمال نفوذك الكبير لفائدة الدكتور كلوبتسوك، وإذا كنتَ تستطيع مساعدتَه في سَعْيِهِ لِنَيل منصب في إحدى الجامعات، حيث يمكنُه أن يُواصل أبحاثَه السّريريةَ والنّظريةَ.

لقد عالج الدكتور كلوبتسوك في جميع أبحاثه حتى الآن؛ مسائلَ أساسيةً ومُهمّةً للغاية، ولقد عَمل ـ مثلما أكّد لي ذلك أهْلُ الاختصاص في ميدانه ـ بطريقة مبتكَرَة جدّاً، وأبانَ عن موهبة علمية وتعليمية، سيكون بالتّأكيد من مصلحة أيّ جامعةٍ الاِستفادةُ منها.

وللأسف، هناك حاجة ماسّة إلى العُثور على شيء ما على نحو عاجل، بسبب اعتبارات راهنة متعدّدة.

أسمحُ لك باستخدام هذه الرّسالة إذا كانت تُسعفُك في تحقيق ذلك.

مع أطيب تحياتي وخالص شكري.

كانت الرسالة تحمل توقيعَ ألبرت إنشتاين، ويعود تاريخُها إلى عام 1938. لا مِراء في أنّها أنقذت حياتَه عندما كَفَلَتْ له مُؤازرةً وضمنتْ له عَمَلاً، وهما أمران كانت السّلطات الأمريكية تستوجِبُهما لقَبول أو عدم طرْدِ شخصٍ مُرشَّحٍ للهجرة. وبعد انصرام أكثر من ثلاثين عاماً على استلامها ظلّ ينظر إليها بدهشة ممتعة. لقد ساهم إنشتاين في أن يجعله بمنْأى عن الطّرْد إلى الرّايخ، وهو ما كان سيشكّل وعيداً بالموت أُسْوَة بما حدث لليهود المجريين.

تراءت له نفسُه مرّة أخرى أمام دورا، في برلين، وكان ما يزال يسمع الضّحكةَ التي اعترتْ الشّابّةَ عندما ذكر اسْمَيْ إنشاتين وتوماس مان. ولم يعُد يتذكّر بالضبط تاريخَ هذا اللّقاء. كان يرى من جديد طاولات شرفة المقهى، وكشك الموسيقى، وكان يتذكّر إحساسَه بأنّ هذا اللّقاء سيكون الأخيرَ.

طوال سنوات عديدة لم يتلّق أيَّ خبر عنها. كان يحسب أنّها لحقت بعُصبة معارفه الذين اغتيلوا. ولكن ذات يوم، بعد أن وضعت الحربُ أوزارَها، كان قد تلقّى رسالةً. كانت دورا قد نجَت وعَثَرتْ ثانية على أَثَرِه. رَوَتْ له سلسلةً من المُصادفات غير المُحتملة التي سمحت بإنقاذ حياتِها. لقد أفلتت من الغستابو، ومن مفوضية الشّعب للشؤون الداخلية،

وبعد أن احتُجِزَت في جزيرة بريطانية تمكّنت من الذّهاب إلى لندن التي أنفقت فيها الأوقاتَ الأخيرة من الحرب. وبعد ذلك، ومن حين إلى آخر، كانت تبعث إليه الأخبار. كانت تعمل من أجل ذاكرة فرانتس، وكانت تُلاقي المترجمين والباحثين. وفي أوائل الخمسينيات كتبتْ إليه من تل أبيب، حيث كانت ضيفةَ شَرَفٍ عند سُلطات المدينة لتقديم سلسلة من المحاضرات. وأوضحت في رسالتها أنّها وجدت هناك ماكس برود، الذي غَدا مديرَ المسرح الكبير في المدينة. ووجدت حتّى تايْل روسْلر، الصّديقة التي كانت برفقتها لمّا التقت كافكا. أمضت عدّة شهور في إسرائيل، ثمّ عادت إلى لندن يحدوها الأملُ في الأوْبَة إلى هناك، وإنهاء أيّامها في أحد كيبوتسات الجليل، مثلما كانت تحلُم مع فرانتس حينما كانت في العشرين من عُمرها. وماتت في لندن في سنّ الرابعة والخمسين، من دون أن تُحقّق حُلمَها. لكنّها أَسَرَّتْ إليه في رسالتها الأخيرة ـ وهذا الأمرُ ما برح يُنغِّصُ عليه حتى اليوم ـ أنّها تركت فرشاةَ كافكا كتَميمةٍ في كيبوتس عيْن حارود. لم تُفارقها الفرشاةُ طوال السّنين.

لعلّ هؤلاء الآلاف من المرْضى الذين شَفاهم من إصابتهم بداء السُّلّ؛ يكونون في آخر المطاف بمثابة تعْويض عن هذا الصّديق المُحْتَضَر الذي لم يُفلح في إنقاذه؟ «اقتُلْني، وإلّا فأنت قاتلٌ!»، هل يُمكن اختصارُ جميعِ الحيوات في مسيرة طويلة، وهي دائماً قصيرةٌ جدّاً، يجتازُها المرءُ للتّكفير عن خَطأ وهْمِيٍّ؟

هذا القَدْرُ من المآسي المُوَزَّعَة على الحيوات الثّلاث التي تلاقتْ حول فرانتس، حياته هو، وحياة دورا، وحياة أوتْلا، كانت تبْدو أحياناً كأنّها تنتمي إلى ماضٍ وَهْمِيٍّ. هل عَبَرَ كلَّ هذه الأمكنة، والتقى كُلَّ هؤلاء الأشخاص؟

عَبَرَ أروقةَ مستشفيات بودابست، ومرتفعات جبال ماتلياري المُجَلَّلَة بالثُّلوج، وتِلال مصحّة كيرلينغ، وأزقّة براغ، وغُرَف العمليات بالمشفى الخيري، وشوارع برلين المُزيّنَة بالأعلام النّازية، وما وراء المحيط الأطلسي عام 1938، أكانت كلُّ هذه الأمكنة تُشكّل ديكوراً لأيّامه؟ كانت الحياةُ تبدو وكأنّها قِصّةٌ مُخْتَلَقَةٌ.

الرّسالتان الأُخريان بالقرب منه كانتا تحملان توقيعَ توماس مان. أنشأ يقرأ الأولى قراءةً عَجْلى:

عزيزي البروفسور ماير:

الدكتور روبير كلوبتسوك صديقٌ عزيزٌ جدّاً. لقد عُرِف الدكتور كلوبتسوك في ألمانيا كأحد الأطبّاء الأكثر موهبةً وتبشيراً بالخير. ساعد البروفسور ساوربروخ في برلين، ثمّ كان مسؤولاً عن قسمٍ في المشفى المتخصّص في علاج داء السُّلّ في مدينة برلين (في بيتز سومرفيلد).

لقد قيل لي إنّ هناك عدداً قليلاً جدّاً من الأطبّاء الأكْفاء في جراحة الرّئة، كما في العلاج الداخلي لداء السّلّ، والذين يقومون بأبحاث مستقلّة في هذا المجال بالقدْر نفسه من النّجاح.

إنّ الدكتور كلوبتسوك شخصٌ مُثقّفٌ وألْمَعِيٌّ للغاية، وأنا متيقّنٌ من أنّه سيُدرك نجاحاً باهراً بوصفه أستاذاً في الطّبّ.

لقد بات من المُلِحّ الآن العثورُ على منصبِ مُدرِّسٍ أو باحث مُساعِدٍ للدكتور كلوبتسوك في إحدى كُلّيات الطّبّ أو في أحد المستشفيات الجامعية. وبعد أن وصل الدكتور كلوبتسوك بتأشيرة سياحية، يتوجّب عليه أن يفعل ما بوسعه كيما يُسَوّي هجرتَه في أسرع وقت ممكن، حتى يستطيع

إجراءَ الامتحان الذي يسمح له بالممارسة، ذلك أنّ شروط القَبول على وشْك التّغيير.

سأكون ممتنّاً جدّاً لك عزيزي البروفسور ماير؛ إذا سعيْتَ إلى استعمال نفوذك الكبير، سواء في قسمِك أو عند معارفك الكُثْر، لإرْشادي إلى أيْن ألتمس وظيفةً لصالح الدكتور كلوبتسوك مع شيء من الأمل في النّجاح. وإذا اقتضى الحال؛ فإن البروفسور إنشتاين مُستعدّ للانْضمام إلى جهودي. وأرجو أن تتفضّلوا بقَبول خالص شكري لِمُساعدتك.

مع خالص مودّتي لك.

الدكتور توماس مان.

قرأ على عجل فقرةً من الرّسالة الأخيرة:

تعرّفتُ إلى الدكتور كلوبتسوك من خلال الكاتب الألماني الشّابّ والموهوب فرانتس كافكا، الذي أَسْدى إليه الدكتور كلوبتسوك معروفاً كثيراً على المستوى المِهْني والرّوحي قبل وفاته.

منذ أن عرفتُ الدكتور كلوبتسوك وأنا أُعْجَبُ به وأحترمه لاستقامته وإخلاصه ومثاليته، مثلما أُعْجَبُ بكفاءاته المهنية. وسأكون في الحقّ سعيداً إذا أمكن تقديمُ العَوْن اللّازم لتمكينه من أن يُواصل في أمريكا هذا العملَ الذي أنجزه في أوربا بتألُّق وتفانٍ كبيرْين.

مع خالص مودتي لك.

توماس مان.

دَسَّ الرّسائلَ الثّلاثَ في ظرْف، ووضع الظّرفَ داخل حقيبته، ثمّ أقام

عند النّافذة. كان ثلاثة شُبّان يرتدون وزرات بيضاء يعبرون السّاحةَ بخُطى نشيطة، وجوههم باسمةٌ وهيئاتُهم حازمةٌ. رأى أنّهم ما زالوا شباباً والحياة أمامهم.

كرّر لنفسه جملة توماس مان: «*تعرّفتُ إلى الدكتور كلوبتسوك من خلال الكاتب الألماني الشّابّ والموهوب فرانتس كافكا، الذي أَسْدى إليه الدكتور كلوبتسوك معروفاً كثيراً على المستوى المهْني والرّوحي قبل وفاته*». ضحك من هذه الكذبة، وقال في قرارة نفسه إنّه ساعد في إنقاذه.

لم يستطع انْتشالَ كافكا من نهايته الرّهيبة، ولا مِراء في أنّ ذلك كان من باب المستحيل، ولكن لعلّ لقاءَه بكافكا قد ساهم مع ذلك في إنقاذ حياته هو؟

أمّا في ما تبقّى فقد بذل ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

تراءى له في ذهنه مرّة أخرى صديقُه مُلْقى على سرير معاناته، مُحَيّاه باسِمٌ، يكاد يكون مَلائكياً، بعد أن أعطاه آخرَ حُقْنة من المورفين. لقد خَمَّن في مِقْدار ما يَدينُ به لهذا الرّجل، وفكّر في الحَظّ الذي ساقه إليه القَدَرُ عندما ألقى في سبيله مثلَ هذا الصَّرْح الفكري، وهذا السُّموق الإنسانيّ. وشكر للسّماء هذا اللّقاءَ الذي كان قد مَنَح معْنى لوُجوده، وغَيَّر مَجْرى حياتِه.

بعد ذلك سمع السيّدةَ غلاديس تُنادي عبر الباب بأنّ الوقتَ قد أَزِف للذّهاب إلى قاعة الدّروس لحُضور الحفل الصّغير.

غادر المكانَ لِيُلقي كلمةَ وداعِه.

مكتبة ياسمين

أتقدّم بخالص شكري لجان بيير لوفيفر، مدير طبعة أعمال فرانتس كافكا الكاملة في لابلياد، على قراءته ونصائحه القيّمة.

telegram @yasmeenbook